حياة القلوب

تفسير كلام علام الغيوب

الجزء السادس

تأليف

أبي عمرو سعيد بن مصطفى دياب

شبكة الألوكة
www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُه، ونستعينُه، ونستغفرُهُ، ونعوذُ به مِن شُرُورِ أنفُسِنَا، وَمِنْ سيئاتِ أعْمَالِنا، مَنْ يَهْدِه الله فَلا مُضِلَّ لَهُ، ومن يُضْلِلْ، فَلا هَادِيَ لَهُ.

وأَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبْدُه ورَسُولُه.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.[1]

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.[2]

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.[3]

وبعد فهذا هو الجزء السَّادِسُ من كتاب: (حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عَلَّامِ الْغُيُوبِ)، أسأل الله أن ينفع به، وأن يجعله خالصًا لوجهه، وأن يتقبله بفضله ومنه وكرمه.

وكتبه

سعيد بن مصطفى دياب

الآسكندرية في: ١٦ جمادى الآخرة ١٤٤٣هـ

الموافق: ١٩/ ١/ ٢٠٢٢م

---

١ - سورة آل عمران: الآية/ ١٠٢

٢ - سورة النساء: الآية/ ١

٣ - سورة الأحزاب: الآية/ ٧٠، ٧١

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٤٨

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذمَّ اللهُ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ في الآياتِ السابقةِ وكشفَ معايبهم وَمَفَاسِدَهُمْ لِيُحَذِّرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، حذَّرَ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ هُنَا مِنْ إطلاقِ ألسنتهم بِالسُّوءِ والجَهْرِ بهِ، استدلالًا بما وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ.

يعلم الله تعالى المؤمنين الأدب في كلامهم فيما بينهم ومع غيرهم، فأخبرَ أنه لَا يُحِبُّ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ، وهو كل ما يسئ من قيلَ له، وهو كل قَبِيحٍ مِنَ الْقَوْلِ، فيدخل في ذلك السبُّ، واللعنُ؛ وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يُحِبُّ اللَّهُ أَنْ يَدْعُوَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا، فَإِنَّهُ قَدْ أُرْخِصَ لَهُ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ.

ونفي المحبة يستلزم البغض، والحُبُّ وَالْبُغْضُ صفتان من صفات الله تعالى، تليقان بذاته.

والنهيُ عن الجَهْرِ بِالسُّوءِ لا يفهم منه جواز المخافتة بالسوء، وإنما ذكرَ الجهرُ لأنه أفحش في الناسِ، ولأَنَّهُ مَجْلَبَةٌ لِلْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ، ولأَنَّ الجَهْرَ بِالسُّوءِ يُؤَثِّرُ فِي نُفُوسِ السَّامِعِينَ تَأْثِيرًا ضارًّا؛ فَيَقْتَدِي بَعْضُ النَّاسِ فيهِ بِبَعْضٍ، وبعض الناس تميل نفوسهم للقبيح من القول فإذا وَجَدَ من يتكلمُ به كان كالمسوغِ له للوقوعِ في أعراضِ الناسِ.

﴿إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾.

ثم استثنى الله تعالى من ذلك لمنْ كَانَ مَظْلُومًا أَنْ يَدْعُوَ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ، ويذكر مظلمته لحاجته لذلك؛ ولا يعدُّ ذلك من الغيبة؛ فعَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ، عَنْ أَبِيهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَيُّ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ، وَعُقُوبَتَهُ». [١]

١ - رواه أحمد- حديث رقم: ١٧٩٤٦، وأبو داود- كِتَاب الْأَقْضِيَةِ، بَابٌ فِي الْحَبْسِ فِي الدَّيْنِ وَغَيْرِهِ، حديث رقم: ٣٦٢٨، والنسائي- كِتَابُ الْبُيُوعِ، مَطْلُ الْغَنِيِّ، حديث رقم: ٤٦٨٩، وابن ماجه- كِتَابُ الصَّدَقَاتِ، بَابُ الْحَبْسِ فِي الدَّيْنِ وَالْمُلَازَمَةِ، حديث رقم: ٢٤٢٧، بسند حسن

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقال بعض العلماء:

القَـــدْحُ لَـــيْسَ بِغِيبَـــةٍ فِي سِـــتَّةٍ ***** مُـــتَظَلِّمٍ وَمُعَـــرِّفٍ وَمُحَـــذِّرِ

وَلِمُظْهِـــرٍ فِسْـــقًا وَمُسْـــتَفْتٍ وَمَـــنْ ***** طَلَـــبَ الإِعَانَـــةَ فِي إِزَالَـــةِ مُنْكَـــرِ

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

أي: وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا لِمَا يتكلمُونَ بِهِ من السُوءِ، عَلِيمًا بِمَا تُخْفُونَهُ في أنفسهم، وفيه تهديدٌ ووعيدٌ لمن يجاهر بالقبيح، ويعلن الخنا والسوء.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٤٩

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لما أخبر الله تعالى في الآية السابقة أنه لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ، رغب سبحانه وتعالى هنا في أمور ثلاثة بدأ بأرفعها رتبةً، أولها مقابلة الظلم والسوء بالخير علانيةً، وثانيها: مقابلة الظلم والسوء بالخير خفية، والثالث: العفو عن الظلم والسوء.

ثم رغب في العفو ببيان أنه من صفاته، وأخبر أنه لا يخفى عليه شيء من أحوال العباد، فمن أراد الخير بالناس فأجره على الله تعالى سواءً أظهر ذلك الخير أو أخفاه، ومَنْ عفا عمن أساء إليه قابله الله تعالى بعفوه والجزاء من جنس العمل؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.[١]

وَمما يدل على العفو ما روي أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا وَقَفَ الْعِبَادُ لِلْحِسَابِ جَاءَ قَوْمٌ وَاضِعِي سُيُوفِهِمْ عَلَى رِقَابِهِمْ، تَقْطُرُ دَمًا، فَازْدَحَمُوا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَقِيلَ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قِيلَ: الشُّهَدَاءُ، كَانُوا أَحْيَاءَ مَرْزُوقِينَ. ثُمَّ نَادَى مُنَادٍ: لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ، ثُمَّ نَادَى الثَّانِيَةَ: لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ: وَمَنْ ذَا الَّذِي أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ، ثُمَّ نَادَى الثَّالِثَةَ: لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ، فَقَامَ كَذَا وَكَذَا أَلْفًا، فَدَخَلُوهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ».[٢]

وَعَنِ الْحَسَنِ: "إِذَا جَثَتِ الْأُمَمُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُودُوا: لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، فَلَا يَقُومُ إِلَّا مَنْ عَفَا فِي الدُّنْيَا".[٣]

---

١ – سُورَةُ الشُّورَى: الآية/ ٤٠

٢ – رواه الطبراني في الأوسط– حديث رقم: ١٩٩٨، وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ١٨٧)، بسند ضعيف

٣ – رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق– بَابُ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْفَضْلِ، حديث رقم: ٣٧٩، المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها– من بَابُ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الفضل، رقم: ١٧٩

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قال الفخر الرازي: اعْلَمْ أَنَّ مَعَاقِدَ الْخَيْرَاتِ عَلَى كَثْرَتِهَا مَحْصُورَةٌ فِي أَمْرَيْنِ: صِدْقٌ مَعَ الْحَقِّ، وَخُلُقٌ مَعَ الْخَلْقِ، وَالَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالْخَلْقِ مَحْصُورٌ فِي قِسْمَيْنِ إِيصَالُ نَفْعٍ إِلَيْهِمْ وَدَفْعُ ضَرَرٍ عَنْهُمْ، فَقَوْلُهُ إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ إِشَارَةٌ إِلَى إِيصَالِ النَّفْعِ إِلَيْهِمْ، وَقَوْلُهُ أَوْ تَعْفُوا إِشَارَةٌ إِلَى دَفْعِ الضَّرَرِ عَنْهُمْ، فَدَخَلَ فِي هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَأَعْمَالِ الْبِرِّ.[١]

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

مناسبة ذكر القدرة مع العفو أن العفو لا يكون ممدوحًا إلا مع القدرة، فإن عفو العاجز ذلٌّ، وفيه تأديب للمؤمنين بالاتصاف بالعفو لا سيما عند المقدرة، فإنَّ مَنْ كان قادرًا على الانتصار فالعفو منه أجمل من الانتصار للنفس، وهو للكمال أقرب.

١ - تفسير الرازي (١١/ ٢٥٤)

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٥٠- ١٥٢

مناسبة الآيات لما قبلها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فيما تقدم من الآيات ذَكَرَ هنا الْيَهُودَ وَالنَّصارَى، الذين زعموا أنهم مؤمنون، وهم يفرقون في الإيمان بين رُسُلِ اللَّهِ، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعضٍ، كما كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والكفرُ بنَبِيٍّ واحدٍ كفرٌ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾، [الشُّعَرَاءِ: ١٢٣]، وكما قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾، [الشُّعَرَاءِ: ١٤١] وَإِنَّمَا أرسل إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ رسولٌ واحدٌ.

وصفهُمْ الله تعالى بالكفرِ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وإن ادعوا الإيمان زورًا وبهتانًا، لأَنَّ الْإِيمَانَ الشرعي إِيمَانٌ بِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، أما ما كان ناشئًا عن الهوى والعصبية فليس بإيمانٍ.

وكفروا بالله تعالى لأنهم خالفوا أمره لهم بالإيمان بكل رسول أرسله عامة، وخالفوا أمره لهم بالإيمان برسوله محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾، [الْأَعْرَافِ: ١٥٦، ١٥٧]، وكفروا برسله لتفريقهم في الإيمان بينهم.

﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾.

كَمَا آمَنَتِ الْيَهُودُ بمُوسَى وَكَفَرُوا بعيسَى؛ وَآمَنَتِ النَّصارَى بعيسَى وَكَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

أَيْ: وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ بِالْكُلِّ وَبَيْنَ الْكُفْرِ بِالْكُلِّ طَرِيقًا وَهِيَ الْإِيمَانُ بِالْبَعْضِ دُونَ الْبَعْضِ، ويجعلونه دِينًا يَدِينُونَ لِلَّهِ بِهِ.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

أَيْ: أُولَئِكَ الذين لا شك في كفرهم بل كُفْرُهم ثَابِتٌ مُتَيَقَّنٌ؛ لِأَنَّ دَاعِيَ الْإِيمَانِ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَهُوَ ظُهُورُ الْمُعْجِزَاتِ عَلَى أَيْدِيهِمْ، فإذا فَرَّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْإِيمَانِ كان ذلك دَلِيلًا عَلَى كُفْرِهِمْ بِالْجَمِيعِ، وإِيمَانُهُمْ بِالْبَعْضِ هَوى وعصَبيَّةً.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾، أي: هَيَّأْنَا لجميعِ أصنافِ الكفارِ عَذَابًا مُذِلًّا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾.

يَعْنِي بِذَلِكَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِإِنَّهُمْ الذين قَالَ تَعَالَى فيهم: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾.[1]

﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ جزاء إيمانهم به، وعدم تفريقهم بين رسله، ويغفر لهم سيئاتهم ويشملهم برحمته وعفوه.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآية/ ٢٨٥

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٥٣

مناسبة الآية لما قبلها:

مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة فإنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا فضح أهل الكتاب وكشف زيفهم، حين قالوا: نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ، ذكر هنا جملة من فضائحهم كان الحامل على ذكرها أنهم سَألُوا رسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعنتًا أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ.

سبب نزول هذه الآية:

سبب نزول هذه الآية هو أنَّ الْيَهُودَ سَأَلُوا رسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى سَبِيلِ التَّعَنُّتِ - أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ يرونه بأعينهم، كَمَا نَزَلَتِ التَّوْرَاةُ عَلَى مُوسَى مَكْتُوبَةً، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ يَهُودَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُحْتَبٍ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، أَلَا تَأْتِينَا بِكِتَابٍ مِنَ السَّمَاءِ كَمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى أَلْوَاحًا يَحْمِلُهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] الْآيَةَ، فَجَثَا رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ فَقَالَ: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَلَا عَلَى مُوسَى، وَلَا عَلَى عِيسَى، وَلَا عَلَى أَحَدٍ شَيْئًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: مَا عَلِمُوا كَيْفَ اللَّهُ ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾ [الأنعام: ٩١]، فَحَلَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَبْوَتَهُ، وَجَعَلَ يَقُولُ: «وَلَا عَلَى أَحَدٍ؟». [١]

١ - رواه الطبري (٩/ ٣٩٥)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾.

يخبر اللَّهُ تَعَالَى عن تعنت اليهود حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للإسلام، بهذا السؤال الذي لا ينم إلا عن عنادٍ واستكبارٍ، ولا مقصد لهم من ورائه إلا تبرير الإقامة على الكفر، وذلك لأنهم سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ يرونه بأعينهم، ويجسونه بأيديهم، وفي الكلام تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُبيانٌ لجَرَاءَةِ اليهود على الله تعالى وعلى أنبيائه عليهم السلام.

فهتك الله سِترَهُم، وذَكَرَ تعنتهم مع رسولهم مُوسَى عليه السلام الذي يزعمون الإيمان به وبرسالته، فقال تعالى ذامًّا وَتَقْرِيعًا لَهُمْ: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾، فليس العناد والاستكبار جديدًا عليهم، وليس التعنت بمستغرب منهم، وكأنَّ سائلًا سأل ما هذا الذي هو أكبر من سؤالهم رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ؟

فجاء الجواب يفسر ذلك المبهم هنا، ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾، أَيْ: عِيَانًا نُعَايِنُهُ وَنَنْظُرُ إِلَيْهِ.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾.

أي: فَأَخَذَتْهُمُ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فماتوا، فَقَامَ مُوسَى يَبْكِي وَيَدْعُو اللَّهَ، وَيَقُولُ: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الْأَعْرَافِ: ١٥٥]، فأحياهم الله بعد موتهم؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.[١]

ووصفهم الله تعالى سؤالهم بالظلم لأمرين: الأول: أنهم ما قدروا الله تعالى حقَّ قدره، وظنوا أنه كبعض خلقه.

والثاني: أنهم علقوا الإيمان على رؤيته؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾.[٢]

---

١ - سورة الْبَقَرَة: الآية/ ٥٦

٢ - سورة الْبَقَرَة: الآية/ ٥٥

www.alukah.net

﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

ليس المرادُ بِحَرْفِ (ثُمَّ) مجرد العطف الذي يفيدُ التَّرَاخِي، بل المرادُ ثم إنهم فعلوا ما هو أعظم من سؤالهم رؤية الله جهرة، وهو أنهم اتَّخَذُوا الْعِجْلَ إلهًا يعبدونه من دون الله تعالى، وهذا أَعْظَمُ جُرْمًا من سؤال الرؤية، وقد تقدمت عبادةُ العجلِ سؤالَهم رؤية الله.

وما عبدوا العجل إلى بعد رؤية المعجزات الباهرات، والبينات الواضحات، والدلائل القاطعات على وحدانية الله تعالى، وصِدقِ موسى عليه السلام.

﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ عن تلك الجرائم تكرمًا، وَآتَى مُوسَى حُجَّةً بينةً تُبَيِّنُ صِدْقَ نُبُوَّتِهِ، وَهِيَ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ والمعجزات التي أجراها على يديه.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٥٤

ثم أخبرَ اللهُ تَعَالَى عن تعنتِ اليهودِ حين أبوا أن يأخذوا بكتاب الله تعالى وامْتَنَعُوا عَنِ الطَّاعَةِ فرَفَعَ عَلَيْهِمُ الْجَبَلَ لِيَسْمَعُوا ويطيعوا فخروا لله سجدًا وعاهدوا الله تعالى على الطاعة والأخذ بكتابه، ثم امْتَنَعُوا عَنِ الطَّاعَةِ، وأعرضوا عن كتابِ اللهِ تَعَالَى حين أمنوا العذابَ الدنيوي، ونقضوا عهد الله تعالى.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.[1]

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.[2]

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾.

أي: ومن عنادهم واسكبارهم على أمر الله تعالى، أن الله تعالى أمرهم أن يدْخُلُوا بَابَ مدينة الْقُدْسِ سُجَّدًا، وَهُمْ يَقُولُونَ: حِطَّةٌ. أَيْ: اللَّهُمَّ حُطَّ عَنَّا خطايانا، فخالفوا أمر الله تعالى ودخلوا يَزْحَفُونَ عَلَى اسْتَاهِهِمْ، وَهُمْ يَقُولُونَ: حِنْطَةٌ. سخرية واستهزاءًا من كلام الله تعالى؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.[3]

---

١ - سُورَةُ البقرة: الآية/ ٦٣، ٦٤

٢ - سُورَةُ الْأَعْرَافِ: الآية/ ١٧١

٣ - سُورَةُ البقرة: الآية/ ٥٨، ٥٩

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾.

أي: ومن عنادهم واستكبارهم أن الله تعالى قَالَ لَهُمْ بواسطة رسله: لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ. وَأَصْلُهَا: لَا تَعْتَدُوا، وَالِاعْتِدَاءُ افْتِعَالٌ مِنَ الْعَدْوِ، وهو مجاوزة الحدّ، وكان قد حرم الله عليهم العمل يوم السبت، فنهاهم أن يَتجَاوَزُوا فِي يَوْمِ السَّبْتِ مَا أُبِيحَ لَهُمْ، فاحتالوا على أمر الله وارتكبوا ما نهى الله تعالى عنه؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.[1]

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

أي: وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ عَهْدًا مُؤَكَّدًا شَدِيدًا، بِأَنَّ يمتثلوا أمر الله، ويذعنوا له بالطاعة.

١ - سُورَةُ الْأَعْرَافِ: الآية/ ١٦٣

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٥٤

يقول كثير من المفسرين تبعًا لكثير من النحاة في مثل هذا الموضع: (ما) من لفظ: ﴿فَبِمَا﴾، زائدةٌ، وَيُطلقونَ على الزِّيَادَةِ التَّأْكِيدَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّيهِ بِالصِّلَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّيهِ الْمُقْحَمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّيهِ اللغو.

فالزِّيَادَةُ وَاللَّغْو اصطلاحٌ للْبَصْرِيّينَ، وَالصِّلَةُ وَالْحَشْو اصطلاحٌ للْكُوفِيِّينَ، قَالَ سِيبَوَيْهِ في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾: إِنَّ (مَا) لَغْوٌ في أنها لم تُحدِثْ إذ جاءت شيئًا لم يكن قبل أن تجيء من العمل.[1]

وتبعه الزجاج وغيره فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾: (مَا) لَغْوٌ، المعنى: فبنقضهم ميثاقهم.[2]

ومثل هذا الكلام لايقبلُ من النحاةِ ولا مِمَّنْ تبعهم مِنَ المفسرينَ، فِي كلامِ اللَّهِ تَعَالَى، ولا يشفعُ لهم أَنَّ مُرَادَهم بِالزَّائِدِ، الزيادةُ مِنْ جِهَةِ الْإِعْرَابِ، لَا مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى.

على أن هناك مذهبًا آخر ظاهر الفساد عند بعض النحاة، وهو أن في القرآن ألفاظًا زائدةً لا معنى لها. قال ابن الأثير: ومن ذهب إلى أن في القرآن لفظًا زائدًا لا معنى له فإما أن يكون جاهلًا بهذا القول، وإما أن يكون متسمحًا في دينه واعتقاده.[3]

والصواب أن يقال في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾، (مَا) ها هنا اسم نَكِرَة تَامَّة اقتضى حالًا مجملةً، وما بعدهما بدل منها، وجيء بها نكرة للتهويل، كأنه قيل: فبشيء ما عظيم نَقْضُوا به مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ، وهذا الشيء العظيم الذي نقضوا به ميثاقهم هو كتمان صفةِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أخذ عليهم العهد والميثاق بواسطة أنبيائهم على بيانها للناس،

١ - الكتاب لسيبويه (٤/ ٢٢١)

٢ - معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ١٥٩)

٣ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر- ت: محيي الدين عبد الحميد (١/ ٣٥٨)

والإيمان به إذا بعث وهم أحياء؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.[1]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾.[2]

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ: لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيَتَّبِعَنَّهُ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيَتَّبِعُنَّهُ وَيَنْصُرُنَّهُ.

﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

آيَاتُ اللَّهِ نوعانِ: الآياتُ الشَّرعِيةُ المتلوةُ، وَالْمُعْجِزَاتُ الَّتِي أَيَّدَ الله بها الْأَنْبِيَاءَ والمرسلينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وشَاهَدَهَا أقوامُهُم، ومع ذلك كفروا بها وجحدوها.

﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

أي: وبسببِ قَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وإنما قال الله تعالى: بِغَيْرِ حَقٍّ، وإنْ كان لا يُتصور قتل نبي بحقٍّ، لبيان أنهم لم تكن عندهم شبهة توجب لهم قتل الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾.

غُلْفٌ: جَمْعُ أَغْلَفَ وَهُوَ الْمُغَطَّى بِالْغِلَافِ، أَيْ: قُلُوبُنَا فِي أَغْطِيَةٍ مغلفةٍ لايدخلُ إليها إيمانٌ ولا يخرجُ منها كفرٌ؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾.[3]

---

١ - سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: الآية/ ٨١

٢ - سُورَةُ الْأَعْرَافِ: الآية/ ١٥٧

٣ - سُورَةُ فُصِّلَتْ: الآية/ ٥

﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾.

بل للإضراب، أي: ليس الأمر كما يزعمون، فما هِيَ بِغُلْفٍ وَلَا عَلَيْهَا أَغْطِيَةٍ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ طَبَعَ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ، والطَّبْعُ: سدُّ الشيءِ بِحَيْثُ لَا يُنْفَذُ إِلَيْهِ ولا يُخرَجُ منه، ولا يُفتَحُ إلا بالكسرِ، فلا يدخل إليها إيمان ولا يخرج منها كفرٌ..

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أَيْ: لَا يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا إِلَّا إِيمَانًا قَلِيلًا، ويحتمل لا يؤمن منهم إلا قلة قليلة.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾.

أعَادَ حَرْفَ الجَرِّ الَّذِي يُغْنِي عَنْهُ حَرْفُ الْعَطْفِ لِلتَّأْكِيدِ، وأعَادَ لفظ الكفر في قوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾، للتهويل من شأنِ الكفرِ، وبيان أن أسباب الكفر عندهم متعددة، لأنهم كفروا مرارًا.

أي: وَبِكُفْرِهِمْ وهُوَ إِنْكَارُهُمْ قُدْرَةَ اللَّه تَعَالَى عَلَى خَلْقِ الْوَلَدِ بدُونِ أَبٍ، ورميهم مَرْيَمَ بالزِّنا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "يَعْنِي أَنَّهُمْ رَمَوْهَا بِالزِّنَا".

ووصف قولهم بالبُهْتانِ العَظِيمِ؛ لِأَنَّهُ قدْ ظَهَرَ عِنْدَ وِلَادَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ مَا دَلَّ عَلَى بَرَاءَتِهَا؛ ككَلَامِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ في المهدِ، وَالْبُهْتَانُ أن يرمي غيره بما ليس فيه، ووصفه بالعظيم لأنهم رموا به مريم الصديقة، أم نبي من أنبياء الله، فكان جرمهم أعظم لذلك.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٥٧، ١٥٨

أي: وَبسببِ قَوْلِهِمْ: إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ، وهذا الذي قالوه من أقبح الكفرِ، لأنهم وتَبَجَّحُوا بِهِ وعَدُّوه من مفَاخِرِهِم، وإنما قالوا: رَسُولَ اللَّهِ، وهم لا يعتقدون أنه رسولٌ: تَهَكُّمًا وَاسْتِهْزَاءًا؛ كَمَا قَالَ الْمُشْرِكُونَ لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نزلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.[1]

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

أَيْ: وَمَا قَتَلُوا عِيسَى عليه السلامُ وَمَا صَلَبُوهُ كَمَا ادَّعَوْا وَشَاعَ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ أَلْقَي شَبَهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلامُ عَلَى أَحَدِ أَصْحَابِهِ فَأَخَذَ الْيَهُودُ الشَّبَهَ فَقَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ.

روى الضياء المقدسي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْفَعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلامُ خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنْ عَيْنٍ فِي بَيْتٍ وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً وَهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلا فَقَالَ إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ سَيَكْفُرُ بَعْدَ إِذْ آمَنَ بِي أَيُّكُمْ يَلْقَى عَلَيْهِ شَبَهِي فَيُقْتَلَ مَكَانِي فَيَكُونَ مَعِي فَقَامَ شَابٌّ فَقَالَ لَهُ أَنَا فَقَالَ لَهُ اجْلِسْ ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ الشَّابُّ أَنَا فَقَالَ اجْلِسْ فَأَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ الشَّابُّ أَنَا فَقَالَ أَنْتَ ذَاكَ فَأَلْقَى عَلَيْهِ شَبَهَ عِيسَى وَرُفِعَ عِيسَى مِنْ زَاوِيَةٍ مِنَ الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ فَأَخَذُوا الشَّبَهَ فَقَتَلُوهُ ثُمَّ صَلَبُوهُ قَالَ وَافْتَرَقُوا ثَلاث فِرَقٍ فَقَالَتْ فِرْقَةٌ كَانَ فِينَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَهَؤُلاءِ الْمُسْلِمُونَ وَقَالَتْ فِرْقَةٌ كَانَ فِينَا اللَّهُ مَا شَاءَ ثُمَّ ارْتَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ وَهَؤُلاءِ الْيَعْقُوبِيَّةُ وَقَالَتْ فِرْقَةٌ كَانَ فِينَا ابْنُ اللَّهِ مَا شَاءَ ثُمَّ رَفَعَهُ إِلَيْهِ وَهَؤُلاءِ النَّسْطُورِيَّةُ فَتَظَاهَرَتِ الْكَافِرَتَانِ عَلَى الْمُؤْمِنَةِ فَقَاتَلُوهَا فَقَتَلُوهَا فَلَمْ يَزَلِ الإِسْلامُ طَامِسًا حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.[2]

---

١ – سُورَةُ الْحِجْرِ: الآية/ ٦

٢ – الأحاديث المختارة (١٠/ ٣٧٧)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: صَلَبُوا رَجُلًا غَيْرَ عِيسَى يَحْسَبُونَهُ إِيَّاهُ.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾.

لَمَّا رُفِعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأُلْقِي شَبَهُ على غيرِهِ، وقع الخلاف بين الناس في حقيقة ما حدثَ، فَظَنَّ أَصْحَابُهُ وَالْيَهُودُ أَنَّ الَّذِيَ قُتِلَ وَصُلِبَ هُوَ عِيسَى لَمَّا رَأَوْا مِنْ شَبَهِهِ بِهِ وَخَفَاءِ أَمْرِ عِيسَى عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ رَفْعَهُ وَتَحَوُّلَ الْمَقْتُولِ فِي صُورَتِهِ كَانَ بَعْدَ تَفَرُّقِ أَصْحَابِهِ عَنْهُ، وما قالوا الذي قالوه إلا بالظَّنِّ، وَالْمُرَادُ بِالظَّنِّ هُنَا: الشَّكُّ، ولا علم لأحدٍ منهم بحقيقةِ ما حدث، وَقالَ بَعْضُهُمْ: الَّذِي شُبِّهَ لَهُمْ وقُتِلَ هو يَهُوذَا الِاسْخِرْيُوطِيِّ.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

أَيْ: وَمَا قَتَلُوهُ مُتَيَقِّنِينَ أَنَّهُ هُوَ، بَلْ شَاكِّينَ مُتَوَهِّمِينَ، وَالْيَقِينُ: الْعِلْمُ الْجَازِمُ الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ الشَّكَّ.

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

(بَلْ) للإضرابِ، أي: ليس الأمر كما ادَّعَوْهُ مِنْ قَتْلِهِ وَصَلْبِهِ، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَيْهِ حَيًّا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾. [آلِ عِمْرَانَ: ٥٥]، وَالْمُرَادُ بِالْوَفَاةِ هُنَا: النَّوْمُ، فَهُوَ حَيٌّ فِي السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ كَمَا صَحَّ عَنِ رَسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ الْمِعْرَاجِ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

أَيْ: وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا لَا يُغَالَبُ؛ فقد أَرَادَ الْيَهُودُ أَمْرًا وَأَرَادَ اللَّهُ خِلَافَهُ، وَكَانَ اللَّهُ حَكِيمًا وَمِنْ حِكْمَتِهِ تَخْلِيصُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْيَهُودِ، وَرَفْعُهُ إِلَى السَّمَاءِ لحكمةٍ يُرِيدُها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٥٩

(إِنْ) نَافِيَة بِمَعْنَى: (مَا) كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها﴾ [مَرْيَمَ: ٧١]، وَتَقْدِيرُ الكَلَامِ: وَمَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَحَدٌ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أي: يؤمنون بأنه عبد الله ورسوله، وليس كما يعتقد اليهود بأنه كذاب، ولا كما يعتقد النصارى الذين عبدوه من دون الله.

وقوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾. قَالَ: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: إِذَا نَزَلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَتْلِ الدَّجَّالِ، لَمْ يَبْقَ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ إِلَّا آمَنَ بِاللَّهِ حِينَ يَرَوْنَ قَتْلَ الدَّجَّالِ، وَتَصِيرُ الْأُمَمُ كُلُّهَا وَاحِدَةً عَلَى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قَالَ: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى، وَاللَّهِ إِنَّهُ الْآنَ لَحَيٌّ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَكِنْ إِذَا نَزَلَ آمَنُوا بِهِ أَجْمَعُونَ.

وكذا قال قتادة وجمهور المفسرين، وهو الصحيح.

وفي الآية دليلٌ على حياةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّمَاءِ، وَأَنَّهُ سَيَنْزِلُ إِلَى الْأَرْضِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، حَكَمًا عَدْلًا ولَا يقبلُ غيرَ الْإِسْلَامِ؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].[١]

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ نُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، حديث رقم: ٣٤٤٨، ومسلم- كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ نُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ حَاكِمًا بِشَرِيعَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم: ٢٤٢

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: «لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: "كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ، أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ، فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ، فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ، يَضْحَكُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ،

وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ، حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ».[1]

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

أي: وَيَشْهَدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى اليهُودِ والنَّصَارَى أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَهُمْ رِسَالَةَ اللَّهِ، ويتبرأ مِمَّنْ عَبَدَهُ مِنْ دُونِ اللهِ تعالى؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.[2]

---

١ – رواه مسلم– كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ ذِكْرِ الدَّجَّالِ وَصِفَتِهِ وَمَا مَعَهُ، حديث رقم: ٢٩٣٧

٢ – سُورَةِ الْمَائِدَةِ: الآية/ ١١٦– ١١٨

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٦٠

مناسبة الآية لما قبلها:

لا يزال الكلام في سياق نقض اليهود للمواثيق والعهود، وما ترتب على ذلك من العقوبات التي عاقبهم الله تعالى بها في الدنيا والآخرة، ودلَّ على هذا أنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾. هَذَا بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهُ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ [النِّسَاءِ: ١٥٤]، كما قَالَ الزَّجَّاجُ.

يخبر الله تعالى عما عاقب به اليهود بسببِ ظلمهم والمراد به ما ارْتَكَبُوهُ مِنَ الجرائم العظيمة، والآثام الكبيرة، وما نقضوه من العهود والمواثيق، وورد لفظ (ظلم) نكرة للتعظيم، والتقدير فَبِظُلْمٍ عظيمٍ اقترفوه حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ.

حَرّم الله تعالى عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ كَانَ قد أَحَلَّهَا لَهُمْ، بِسَبَبِ بَغْيِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَتَعَمُّدِ مُخَالَفَتِهِمْ لرسُلِ ربهم وجرأتهم عليهم، وذكر الله تعالى هنا لفظ: (طَيِّبَاتٍ) نكرة؛ ليذهب العقل كل مذهب، وذكرها هنا مجملةً، وفصلها في سُورَةِ الْأَنْعَامِ؛ كَمَا قالَ تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.[1]

وفيها دليل على أن الذنوب والمعاصي من أعظم أسباب حرمان الخير؛ ودل على ذلك قصة صاحب الجنتين، وقد قص الله تعالى عليه قصته في سورة الكهف؛ كما قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.[2]

١ – سُورَةُ الْأَنْعَامِ: الآية/ ١٤٦

٢ – سُورَةُ الكهفِ: الآية/ ٤٢

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقصة أصحاب الجنةِ؛ كما قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.[١]

ودل على ذلك ما رواه البخاري عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُخْبِرَنَا بِلَيْلَةِ القَدْرِ فَتَلاَحَى رَجُلاَنِ مِنَ المسْلِمِينَ فَقَالَ: «خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتَلاَحَى فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ، فَرُفِعَتْ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ، فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ، وَالسَّابِعَةِ، وَالخَامِسَةِ».[٢]

﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾.

أي: وحَرَّمنا عليهم ما ذُكِرَ بِسببِ صَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ خلقًا كَثِيرًا، ومن ذلك أنهم صَدُّوا بكتمانهم البشاراتِ برسولِ اللهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمْعًا عَظِيمًا مِنَ النَّاسِ؛ كما صَدُّوا أَهْلَ مَكَّةَ، وَقَالُوا لَهُمْ: أَنْتُمْ خَيْرٌ وَأَهْدَى سَبِيلًا من مُحَمَّدٍ وأصحابهِ.

---

١ – سُورَةُ القلمِ: الآية/ ١٩– ٢٧

٢ – رواه البخاري– كتَابُ فَضْلِ لَيْلَةِ القَدْرِ، بَابُ رَفْعِ مَعْرِفَةِ لَيْلَةِ القَدْرِ لِتَلاَحِي النَّاسِ، حديث رقم: ٢٠٢٣

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٦١

يخبرُ الله تعالى أنَّ من أسبابِ تحريمِ الطَّيِّبَاتِ عَلَيْهِمْ أَخْذِهِمُ الرِّبَا وانتشر ذلك بينهم حتى صار علمًا عليهم، وكان اليهودي يعرف في دائرة المعارف البريطانية إلى وقت قريب بالمرابي الجشع.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾، دليلٌ عَلَى أَنَّ النَّهيَ يُفيدُ التَّحريمِ، وأنَّ وَالرِّبَا مُحَرَّمٌ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ.

﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾.

هذا من بابِ عطفِ العَامِ على الخَاصِ؛ فإنَّ أَكْلَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ أَعَمُّ مِنَ الرِّبَا، فَيَشْمَلُ الرِّبَا والرَّشْوَةَ والسُّحتَ وَغَيْرَ ذَلِكَ؛ كما قالَ تَعَالَى عنهم: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾.[١]

واستحلالُ اليهودِ للرِّبَا والرَّشَا والسُّحتِ وسائر المحرمات، كان بسبب تحايلهم على شرع الله تعالى؛ فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَلَغَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ أَنَّ فُلاَنًا بَاعَ خَمْرًا، فَقَالَ: قَاتَلَ اللَّهُ فُلاَنًا، أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَاتَلَ اللَّهُ اليَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ، فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا».[٢]

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

لَمَّا ذَكَرَ الله تعالى العقابَ الدُّنْيَوي، وهو تحريمُ الطَّيِّبَاتِ عَلَيْهِمْ، وأنه عمهم جميعًا، ذَكَرَ تعالى مَا أَعِدَّهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وأنَّه إِنَّمَا أُعِدَّ لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ.

١ – سورةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٤٣

٢ – رواه البخاري– كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حديث رقم: ٣٤٦٠، ومسلم– كِتَابُ الْمُسَاقَاةِ، بَابُ تَحْرِيمِ بَيْعِ الْخَمْرِ، وَالْمَيْتَةِ، وَالْخِنْزِيرِ، وَالْأَصْنَامِ، حديث رقم: ١٥٨٢

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٦٢

﴿لَكِنِ﴾، تفيدُ الِاسْتِدْرَاكَ لما أخبر اللهُ تَعَالَى عن تعنتِ أَهْلِ الْكِتَابِ وبيَّنَ فسادَهُم، الذي لا يرجى له صلاح، وإغراقهم في الضلال الذي الذي لايرجى معه هدى بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ...﴾. [النِّسَاءِ: ١٥٣]، وما بعدها من آياتٍ، اسْتُدْرِكَ بِأَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ لَيْسُوا كبقيتهم، بَلْ هُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِهِ من الكتبِ، ومنهم عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَمُخَيْرِيقٌ وغيرهما ممن آمن برسولِ اللهِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَ(الرَّاسِخُونَ) جمعُ رَاسِخٍ وأصلهُ الثَّابِتُ الْقَدَمِ الذي لا يتعثرُ فِي الْمَشْيِ، وَاسْتُعِيرَ لِلتَّمَكُّنِ مِنَ الْوَصْفِ، فالرَّاسِخُ فِي الْعِلْمِ الذي لَا تزيغُ به الأهواءُ ولا تزعزعه الشُّبُهَات.

والعطف في قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، يقتضي المغايرة، فقد آمن من أهل الكتاب من ليس له قدم راسخة في العلم منهم، كالْيَهُودِيّ الَّذِي كَانَ يَخْدِمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآمَنَ بِهِ؛ روى البخاري عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ».[١]

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الجَنَائِزِ، بَابُ إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ، هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ الإِسْلَامُ، حديث رقم: ١٣٥٦

﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

أَيْ: يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عليك مِنَ الْقُرْآنِ، يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ كالتوارةِ والإنجيلِ، والزبورِ.

﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾.

مَنْصُوبٌ عَلَى الِاخْتِصَاصِ، أَوِ الْمَدْحِ، وَالتَّقْدِيرُ: أَخُصُّ الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ مِنْهُمُ الَّذِين يُؤَدُّونَهَا عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ، وَجاءَ النَّصْبُ عَلَى الْمَدْحِ لبيانِ فضلِ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ.

والنصبُ عَلَى الْمَدْحِ، أَوِ الِاخْتِصَاصِ، أسلوبٌ من أساليبِ القرآنِ البلاغيةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾.[1]

وهو كذلك أسلوبٌ من أساليبِ الْعَرَبِ فِي كَلَامِهم؛ كَمَا قَالَت الخرنقُ بنت بدرٍ:

لَا يَبْعَدَن قَوْمِي الَّذِينَ هُمُو ***** سُمّ الْعُدَاةِ وَآفَةُ الجُزرِ

النَّازِلِينَ بِكُلِّ مُعْتركٍ ***** والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأزْرِ

﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ والذين يُؤْتُونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهم طيبةً بها نفوسهم، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ والذين يأخذونَ بأسبابِ تزكيةِ نفُوسِهم.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

أَيْ: يُصَدِّقُونَ بِأَنَّهُ لَا معبودَ بحقٍّ إِلَّا اللَّهُ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ والنشورِ، وَالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآية/ ١٧٧

﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: أُولَئِكَ الذين تقدم ذكرهم، سيجازيهم اللهُ أعظم الجزاء، وأبهمه هنا لتذهب النفوس كل مذهب.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. سُورَةُ النِّساءِ: الآية/ ١٦٣- ١٦٥

سبب نزول هذه الآيات:

قيل: سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ سُكَيْنٌ وَعَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ: يَا مُحَمَّدُ مَا نَعْلَمُ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ مُوسَى, فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمَا: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ.....﴾. إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ.

وقيل: هذه الآيات ردٌّ على الْيَهُودِ حِينَ سَأَلُوا الرَّسُولَ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾.[1]

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾.

يخبرُ اللهُ تَعَالَى رسُولَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أَمْرَه كَأَمْرِ مَنْ سبقهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الْأَحْقَافِ: ٩]، أَيْ: لَسْتُ بِأَوَّلِ رَسُولٍ طَرَقَ الْعَالَمَ حَتَّى تَسْتَنْكِرُونِي بَعْثَتِي إِلَيْكُمْ، بَلْ أرسلَ الله قَبْلِي مَنْ شَاءَ أَنْ يُرسِلَهُ مِنَ الرُّسُلِ.

وَالتَّشْبِيهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، تَشْبِيهٌ بِجِنْسِ الْوَحْيِ، ولا يلزم منه أن تُسْتَوفَى أَنْوَاعُهُ، وَالْوَحْيُ إِعْلَامٌ فِي خَفَاءٍ.

وَبدأ بنُوحٍ عليه السلام لأَنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ شُرِعَتْ عَلَى لِسَانِهِ الشَّرَائِعُ.

﴿وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾. عامٌّ يشملُ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ.

---

١ - سُورَةُ النِّساءِ: الآية/ ١٥٣

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾.

خَصَّ تعالى هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ بِالذِّكْرِ تَشْرِيفًا لَهُمْ، وذكرهم بعدَ قوله: ﴿وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، مِنْ بابِ ذكرِ الخاصِ بعدَ العامِ، وَبَدَأَ بِإِبْرَاهِيمَ لِأَنَّهُ أَبُو الْأَنْبِيَاءِ الذين أتوا من بعده.

﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾.

وَالزَّبُورُ: اسْمٌ لِلْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَهُ اللَّهُ على دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخصه الله تعالى بالذكر هنا؛ لأنَّ أهل الكتاب يؤمنون به مع أنه لم ينزلْ دُفْعَةً وَاحِدَةً مِثْلَ مَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ دُفْعَةً وَاحِدَةً عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ففي ذكره إلزام لأهل الكتاب بالإيمان بالقرآن.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾.

نُصِبَ لفظُ: ﴿رُسُلًا﴾، بفِعْلٍ مُضْمَرٍ تقديره: قَدْ قَصَصْنَا رُسُلًا عَلَيْكَ؛ والمعنى: قَدْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ رُسُلًا مِنْ قَبْلِ فِيمَا أَوْحينَا إِليكَ مِنَ الْقُرْآنِ.

وجملةُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ وَرَدَتْ أَسْمَاؤُهُمْ فِي الْقُرْآنِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ نَبِيًّا، وَهُمْ: آدَمُ وَإِدْرِيسُ، وَنُوحٌ، وَهُودٌ، وَصَالِحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَلُوطٌ، وَإِسْمَاعِيلُ، وَإِسْحَاقُ، وَيَعْقُوبُ، وَيُوسُفُ، وَأَيُّوبُ، وَشُعَيْبٌ، وَمُوسَى، وَهَارُونُ، وَيُونُسُ، وَدَاوُدُ، وَسُلَيْمَانُ، وَإِلْيَاسُ، والْيَسَع، وذُو الْكِفْلِ، وَزَكَرِيَّا، وَيَحْيَى، وَعِيسَى وَخَاتَمُهُمْ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ذَكَرَهُمُ الشَّاعِرُ فِي قَوْلِهِ:

فِي ﴿تِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ مِنْهُمْ ثَمَانِيَةٌ　*****　مِنْ بَعْدِ عَشْرٍ وَيَبْقَى سَبْعَةٌ وَهُمُ
إِدْرِيسُ هُودُ شُعَيْبٌ صَالِحٌ وَكَذا　*****　ذُو الكِفْلِ آدَمُ بِالْمُخْتَارِ قَدْ خُتِمُوا

وقوله: فِي ﴿تِلْكَ حُجَّتُنَا﴾، أي: قَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾.[١]

﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.

أَيْ: وَرُسُلًا آخَرِينَ لَمْ يردْ ذِكْرُهُم فِي الْقُرْآنِ.

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾.

لما كان الكلام في معرض ذكر الوحي، وهو كلامه تعالى لبعض رسله بلا واسطة، وَالكَلَامُ صِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى، والله تعالى يتكلم بما شاء وقتما شاء، وإثبات صفة الكلام من عقيدة أهل السنة والجماعة، وأكدَّ الكلامَ بِالْمَصْدَرِ ﴿تَكْلِيمًا﴾، مُبَالَغَةً فِي الْبَيَانِ وَالتَّوْضِيحِ، ولِبَيَانِ أَنَّهُ كانَ كَلَامًا حَقِيقِيًّا وَلَمْ يَكُنْ مَجَازًا.

قَالَ النَّحَّاسُ: وَأَجْمَعَ النَّحْوِيُّونَ عَلَى أَنَّكَ إِذَا أَكَّدْتَ الْفِعْلَ بِالْمَصْدَرِ لَمْ يَكُنْ مَجَازًا.

وانكرت الجَهْمِية والمعتزلة كلام الله تعالى حتى قَالَ بَعْضُ الْمُعْتَزِلَةِ لِأَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ أَحَدِ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ: أُرِيدُ أَنْ تَقْرَأَ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾، بِنَصْبِ اسْمِ اللَّهِ، لِيَكُونَ مُوسَى هُوَ الْمُتَكَلِّمَ لَا اللَّهُ! فَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: هَبْ أَنِّي قَرَأْتُ هَذِهِ الْآيَةَ كَذَا، فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾؟! فَبُهِتَ الْمُعْتَزِلِيُّ!

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.

يُبَشِّرُونَ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ بِرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، وَيُنْذِرُونَ مَنْ عَصَاهُ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ بغَضَبِهِ وَعَذَابِهِ.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى الرُسُلَ وَأَنْزَلَ الكُتُبَ ليبَيِّنَ للنَّاسِ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ؛ لِئَلَّا يَقُولُوا يوم القيامةِ رَبَّنَا مَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا، وَمَا أَنْزَلْتَ عَلَيْنَا كِتَابًا، ولو فعلت لاتبعنا آيَاتِكَ

١ - سُورَةُ الْأَنْعَامِ: الآية/ ٨٣

وأطعنا رُسُلَكَ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾.[١]

ومن أجل هذه الغاية الجليلة قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.[٢]

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

أي: وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا لا يُغَالَبُ إذا عذب فبعدله، وإذا رحم فبفضله، ومن حكمته البالغة إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وقطع أعذار الناس.

---

١ - سُورةُ طَهَ: الآية/ ١٣٤

٢ - سُورةُ الْإِسْرَاء: الآية/ ١٥

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٦٦، ١٦٧

لما حجد أهل الكتاب نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنكروا أن يكون القرآن كلام الله بما حكاه اللهُ تَعَالَى عنهم بقوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾. [النِّسَاءِ: ١٥٣]، وبقولهم: ﴿مَا أَنزلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾. [الْأَنْعَامِ: ٩١]، تولى الله تعالى الدفاع عن رسوله، وَفِي الْكَلَامِ حَذْفٌ دَلَّ عَلَيْهِ السياقُ، تقديره: لَمْ يَشْهَدْ لَكَ أَهْلُ الْكِتَابِ بالرسالةِ، وَلَمْ يَشْهَدُوا أن القرآنَ كلامهُ، لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ لَكَ بِأَنَّكَ رَسُولُهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا.

﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾.

أَيْ: أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّكَ أَهْلٌ لِإِنْزَالِهِ عَلَيْكَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.[1]

وقيلَ: المعنى: أَنْزَلَهُ بِعِلْمٍ تَامٍّ وَحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ، وَهُوَ وَصْفُ الْقُرْآنِ بأَنَّهُ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ وَنِهَايَةِ الْكَمَالِ.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾.

أَيْ: يَشْهَدُونَ بمَا أَوحيَ إِلَيْكَ رَبُكَ مِنَ الْقُرْآنَ، كَأَنَّهُ قِيلَ: يَا مُحَمَّدُ إِنْ كَذَّبَكَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ فَلَا تُبَالِ بِهِمْ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُصَدِّقُكَ وَيَشْهَدُ لك، وَالْمَلَائِكَةُ يُصَدِّقُونَكَ وَيَشْهَدُونَ لك.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

عُدِّي لفظ: (كَفَى) بالْبَاءِ لأنه ضُمِّنَ مَعْنَى اقْتَنِعُوا، أي: اكتفوا بالله في شهادته.

١ – سُورَةُ الدُّخَانِ: الآية/ ٣٢

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

أَيْ: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بتكذيبهم لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنكارهم لوحي الله المنزل عليه، وَصَدُّوا النَّاسَ عَنِ الإيمانِ بهِ واتِّبَاعِهِ، قَدْ حَادُوا عَنِ الطريقِ القويمِ، وبَعُدُوا عَنْهُ بُعْدًا عَظِيمًا حتى ضَلُّوا عَنْهُ، وأغرقوا فِي الضَّلَالِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٦٨، ١٦٩

لما ذكر الله تعالى في الآية السابقة أن اليهود قد ضلوا ضلالًا بعيدًا بصدهم عن سبيل الله تعالى، ذكر تعالى في هذه الآية جزاء هذا الضلال الذي ترتب على كفرهم بالله تعالى وصدهم الخلق عن دينه تعالى، فقال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾، وَوضع الظاهر موضع المضمر، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. تشنيعًا عليهم بتأكيدِ إثبات كفرهم، ولِتُبْنَى عَلَى الموصولِ صِلَةُ ﴿وَظَلَمُوا﴾.

ويحتمل أن يكون المرادُ بقوله: ﴿كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾. كَفَرُوا باللهِ وَآيَاتِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ، وَظَلَمُوا، أي: أشركُوا بالله تعالى؛ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. [لُقْمَان: ١٣]، فَيَكُونُ مِنْ بابِ عَطْفِ الْخَاص عَلَى الْعَام، ويحتملُ أَنْ يُرَادَ الظلمِ التَّعَدِّي عَلَى النَّاسِ، كَظُلْمِهِمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدم الإيمان وإنكارِ البشارة به في كتبهم، وَظُلْمِ من صدوهم عن دين الله.

﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾.

أي: لَمْ يَكُنِ اللَّهُ ليسترَ قبائِحَهُم ولَمْ يَكُنِ لِيتركَهُم بدونِ عقابٍ، وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَهْدِيَهم إلى طَرِيقِ الجَنَّةِ وقد كَفَرُوا وأضلوا عباده عن طريقها.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

الاستثناءُ هنا منقطعٌ؛ لأنَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ ليس طريقَ هدايةٍ، وَلَكِنَّهُ طريقُ الضلالِ والخذلانِ، فيَخْذُلُهُمْ عَنْ طَرِيقِ الجَنَّةِ، إِلَى طَرِيقِ جَهَنَّمَ، حيث الخلود فيها.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

لأنه لا رادَّ لأمرِهِ ولا معقبَ لحكمه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

www.alukah.net

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٧٠

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لما ردَّ الله تعالى على شبهِ اليهودِ، في عدم إيمانهم برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خاطب الناس جميعًا أهلَ الكتابِ وغيرهم خِطَابًا عَامًّا يدعوهم إِلَى الإيمانِ بما جاء بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الدين الحقِ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أي: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالدِّينِ الْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ، ويحتمل أن يكون المرادُ بقوله: ﴿بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. أي: جَاءَكُمْ بِالْقُرْآنِ وهو وحيٌ مِنْ رَبِّكُمْ.

وخاطبَ اللهُ تعالى النَّاسَ عامةً بالإيمان برسولِهِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لعموم دعوته؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.[١]

ومما يدل على عموم دعوته؛ ما رواه البخاري ومسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ».[٢]

﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾.

أي: فَآمِنُوا بما جَاءَكُمْ به الرَّسُولُ مِنْ رَبِّكُمْ يكن إيمانكم خَيْرًا لَكُمْ في دنياكم وأخراكم.

١ - سُورَةُ الْأَعْرَافِ: الآية/ ١٥٨

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا"، حديث رقم: ٤٣٨، ومسلم- كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ، باب جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، حديث رقم: ٥٢١

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

أي: وَإِنْ تَكْفُرُوا فإنَّ اللهَ غنيٌ عَنْكُم وعَنْ عِبَادَتِكُم، فَإِنَّ لهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وما بينهما، الكلُ يسبحُ بحمدِهِ وينقادُ لطَاعَتِهِ؛ كَمَا قَالَ تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.[١]

وَكَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.[٢]

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أَيْ: وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا بإيمانِ من آمنَ، وكفرِ من كفرَ، حَكِيمًا فِي أَقْوَالِهِ وأفعاله وشرعه وقدره.

---

١ – سُورَةُ الزُّمَرِ: الآية/ ٧

٢ – سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: الآية/ ٨

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٧١

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لما ردَّ الله تعالى على شبهِ اليهودِ في الآيات السابقة وبين كفرهم، توجه بالخطاب هنا للنصارى فنهاهم عن الغلو في الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، عام يرادُ به الخصوص، وهم النَّصَارَى بدليل قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ﴾.

نَهَى الله تعالى النَّصَارَى عَنِ الْغُلُوِّ فِي عِيسَى عليه السلام، وَالْغُلُوُّ هو مجاوزةُ الْحَدِّ، وذلك أَنَّ النَّصَارَى غَلَوْا فِي تَعْظِيمِ عِيسَى عليه السلام حتى عبدوه وادَّعَوْا أنه ابن اللَّهِ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وَمنهم من جَعَلَهُ ثَالِثَ ثلاثةٍ كلهمْ آلِهَةٌ.

وَكَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ حَتَّى جَعَلُوهُ رَبًّا، بالغَ الْيَهُودُ فِي عِيسَى حَتَّى جعلوه ابن زنا فقَذَفُوا أُمَّهُ مَرْيَمَ عليها السلام، وحتى حكموا بكفره فعندهم من الغلو ما يقابل غلو النصارى، هؤلاء عندهم تفريط، وهؤلاء عندهم إفراط، ولكن النهي في هذه الآية للنصارى أصالةً.

والغلو مذمومٌ على كلِ حالٍ، وقد قيل: الفَضِيلَةُ بَيْنَ رَذِيلَتَينِ، والْحَسَنَةُ بَيْنَ سَيِّئَتَيْنِ.

وقد حَذَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ مِنَ الغلوِ الذي وقع فيه النصارى، ونهاهم عن الإطراء وهو مجاوزة الحد في المدح؛ لأنه صورة من صور الغلو؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ عَلَى المِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ».[1]

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا سَيِّدَنَا، وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَيَا خَيْرَنَا، وَابْنَ خَيْرِنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَرَسُولُ اللهِ، وَاللهِ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَا رَفَعَنِي اللهُ».[2]

وَعَنْ مُطَرِّفٍ، قَالَ: قَالَ أَبِي: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ».[3]

﴿وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ﴾.

أي: لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ ما لم يقله بنسبةِ الصَاحِبَةِ وَالوَلَدِ له تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وقوله: ﴿وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ﴾، بعد قوله: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾، من باب عطف الخاص على العام لخطره وأهميته؛ فإن التَّقولَ على الله تعالى من أظهر صور الغلو في الدين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾، تفيدُ الْقَصْرَ، والمرادُ قَصْرُ المَوْصُوفِ عَلَى تلك الصِفَاتِ المذكورة، فالْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَقْصُورٌ على تلك الصِفَات الثَلَاث التي ذكرها الله تعالى هنا وهي: صِفَةُ الرِّسَالَةِ، وَصِفَةُ كَوْنِهِ كَلِمَةَ اللهِ التي أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَصِفَةُ كَوْنِهِ رُوحًا مِنْ الأرواحِ التي خلقها اللَّهُ.

---

١ – رواه البخاري– كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦]، حديث رقم: ٣٤٤٥

٢ – رواه أحمد– حديث رقم: ١٣٥٩٦، بسند صحيح

٣ – رواه أبو داود– كِتَاب الْأَدَبِ، بَابٌ فِي كَرَاهِيَةِ التَّمَادُحِ، حديث رقم: ٤٨٠٦، بسند صحيح

والمرَادُ مِنْ هَذَا الْقَصْرِ إِبْطَالُ مَا وصفه به النصارى الضُّلَّالُ من كونه إلهًا أو ابن الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

فهُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ اصطفاه الله تعالى برسالته؛ كما اصطفى رسله عَلَيْهِم السَّلَامُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، فخلقه بها؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.[1]

ووصفه الله بالكلمةِ لأَنَّهُ وُجِدَ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَلَا نُطْفَةٍ، فَبالكلمةِ كَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِذْنِ اللَّهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عن خَلْقِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.[2]

﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، أي: وَرُوحٌ مِنَ الْأَرْوَاحِ الشَّرِيفَةِ الْعَالِيَةِ التي خلقها الله تعالى، وَأُضِيفَتِ الرُّوحُ إِلَى اللَّهِ عَلَى وَجْهِ التَّشْرِيفِ، كَمَا أُضِيفَتِ النَّاقَةُ وَالْبَيْتُ إِلَى اللَّهِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [هُودٍ: ٦٤]. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ [الْحَجِّ: ٢٦]، و(مِنْ) لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، وَلَيْسَتْ لِلتَّبْعِيضِ، كَمَا تزعمُ النَّصَارَى عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ الْمُتَتَابِعَةُ، فليس في الله تعالى شيء من خلقه، ولا في الخلق شيء من الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

فَالرُّوحُ عِبَارَةٌ عَنْ نَفْخَةِ جِبْرِيلَ وَقَوْلُهُ مِنْهُ يَعْنِي أَنَّ ذَلِكَ النَّفْخَ مِنْ جِبْرِيلَ كَانَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَإِذْنِهِ فَهُوَ مِنْهُ.

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.

أَيْ: فَآمِنُوا بِاللَّهِ الواحدِ الأحدِ الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وَآمِنُوا بِرُسُلِ اللَّهِ؛ فإنَّ عِيسَى واحدٌ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ فَلَا تَجْعَلُوهُ إِلَهًا.

---

١ - سُورَةُ النَّحْلِ: الآية/ ٤٠

٢ - سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: الآية/ ٥٩

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾.

لما نهى الله تعالى النصارى عن الغلو في الدين، وأمرهم بالإيمان بالله ورسله نهاهم عن ضد الإيمان بالله وهو الشرك بالله، ولما تعددت طوائفهم، وكثرت مذاهبهم، عمد الله تعالى إلى أشهرها، وهم الذين يقولون بالتثليث، وقد اختلف النصارى في دينهم اختلافًا كبيرًا جدًا، فعقدوا المجامع العامة للاتفاق على عقيدة واحدة يدين بها النصارى، فعقدوا مجمع نيقية الأول بأمر الملك قسطنطين وكان وثنيا فاعتنق النصرانية، فَأَرَادَ آرِيُوسُ أحد أساقفتهم أَنْ يَدْخُلَ مَعَهُمْ فَمَنَعَهُ بَتْرَكُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ، وَقَالَ إِنَّ بُطْرُسَ قَالَ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ آرِيُوسَ، فَلَا تَقْبَلُوهُ وَلَا تُدْخِلُوهُ الْكَنِيسَةَ.

فخَرَجَ آرِيُوسَ إِلَى قُسْطَنْطِينَ فشكا إليه بَتْرَكَ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ، وَقَالَ: إِنَّهُ تَعَدَّى عَلَيَّ وَأَخْرَجَنِي مِنَ الْكَنِيسَةِ ظُلْمًا، فأرسل قُسْطَنْطِينُ رَسُولًا إِلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فَأَحضرَ الْبَتْرَكَ وَجَمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آرِيُوسَ لِيُنَاظِرُهُ، فَاسْتَحْسَنَ قُسْطَنْطِينُ مذهبَ بَتْرَكِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ، وَأَمَرَ قُسْطَنْطِينُ الْبَتْرَكَ أَنْ يُكَفِّرَ آرِيُوسَ وَكُلَّ مَنْ قَالَ بِمَقَالَتِهِ، فعقد مجمع نيقية الثاني سنة: ٣٢٥م، فَاجْتَمَعَ فِي مَدِينَةِ نِيقِيَّةَ بَعْدَ سَنَةٍ وَشَهْرَيْنِ أَلْفَانِ وَثَمَانِيَةٌ وَأَرْبَعُونَ أُسْقُفًّا، فَكَانُوا مُخْتَلِفِي الْأَرَاءِ، مُخْتَلِفِي الْأَدْيَانِ.

وَاتَّفَقَ مِنْهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ أُسْقُفًّا عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ وَرَأْيٍ وَاحِدٍ، فَصَنَعَ لهم الْمَلِكُ مَجْلِسًا عَظِيمًا، وَجَلَسَ فِي وَسَطِهِ، وَقَالَ لَهُمْ: قَدْ سَلَّطْتُكُمُ الْيَوْمَ عَلَى الْمَمْلَكَةِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ.

ثُمَّ هَلَكَ قُسْطَنْطِينُ، وَوَلِيَ بَعْدَهُ أَكْبَرُ أَوْلَادِهِ وَاسْمُهُ قُسْطَنْطِينُ، وَفِي أَيَّامِهِ اجْتَمَعَ أَصْحَابُ آرِيُوسَ وَمَنْ قَالَ بِمَقَالَتِهِ إِلَيْهِ فَحَسَّنُوا لَهُ دِينَهُمْ وَمَقَالَتَهُمْ، وَاخْتَلَفَتِ النَّصَارَى في زمانه اختلافًا عظيمًا، حَتَّى قَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فعقدوا المجْمَعَ الثَّالِثَ وهو الْمَجْمَعُ الْآرِيُوسِيُّ بَعْدَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً مِنَ الْمَجْمَعِ الْأَوَّلِ بِنِيقِيَّةِ، وَاجْتَمَعَ فِي قُسْطَنْطِينِيَّةَ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ أُسْقُفًّا،وانتهو إلى أَنَّ الْأَبَ وَالِابْنَ وَرُوحَ الْقُدُسِ ثَلَاثَةُ أَقَانِيمَ وَثَلَاثَةُ وُجُوهٍ وَثَلَاثُ خَوَاصٍّ، وَأَنَّهَا إلهٌ واحدٌ، وَانْفَضَّ هَذَا الْجَمْعُ وَقَدْ لَعَنُوا فِيهِ كَثِيرًا مِنْ أَسَاقِفَتِهِمْ.

وَبَعْدَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ سَنَةً مِنَ الْمَجْمَعِ الْآرِيُوسِيِّ عقدوا لَهُمْ مَجْمَعًا رَابِعًا وهو مَجْمَعُ نَسْطُورِس وَكَانَ يقولُ: إِنَّ مَرْيَمَ لَيْسَتْ بِوَالِدَةِ الْإِلَهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَانْفَضَّ ذَلِكَ الْمَجْمَعُ وَقَدْ أَطْبَقُوا عَلَى لَعْنِ نَسْطُورِسَ وَأَشْيَاعِهِ وَمَنْ قَالَ بِمَقَالَتِهِ.

ثم عقدوا المجمع خَامِسَ وهو مجمع أفسيس الثاني سنة: ٤٤٩م، وسببه أَنَّهُ كَانَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ طَبِيبٌ رَاهِبٌ يُقَالُ لَهُ: أُوطِيسُوسُ يَقُولُ: إِنَّ جَسَدَ الْمَسِيحِ لَيْسَ هُوَ مِنْ أَجْسَادِنَا بِالطَّبِيعَةِ، وأنه كان قَبْلَ التَّجَسُّدِ مِنْ طَبِيعَتَيْنِ، وَصار بَعْدَ التَّجَسُّدِ طَبِيعَةً وَاحِدَةً، وعرفت هَذِهِ الْمَقَالَةُ بعدَ ذلك بِمَقَالَةِ الْيَعْقُوبِيَّةِ، وَافْتَرَقَ هَذَا الْمَجْمَعُ وَكُلُّ فَرِيقٍ يَلْعَنُ الْآخَرَ وَيُحَرِّمُهُ وَيَتَبَرَّأُ مِنْ مَقَالَتِهِ.

ثُمَّ كَانَ لَهُمْ بَعْدَ هَذَا مَجْمَعٌ سَادِسٌ فِي مَدِينَةِ خَلْقَدُونَ، سنة: ٤٥١م، وَانْفَضَّ هَذَا الْمَجْمَعُ، وَقَدْ لَعَنُوا جمعًا مِنْ أَسَاقِفَتِهِمْ. ثم توالت المجامع وفيها قاسم واحدٌ مشترك بينهم التكفير واللعن فيما بينهم، حتى انتهو إلى هذه الملل الموجودة الآن عندهم وأشهرها عقيدة التثليث، لذلك ذكرها الله تعالى هنا فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾.

وكما نهى الله تعالى النصارى عن عقيدة التثليث وكفَّرَ مَنْ يقول بها؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾. [الْمَائِدَةِ: ٧٣]، كفَّرَ الله تعالى مَنْ قَالَ بألوهية الْمَسِيحِ عليه السلام، فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.[١]

وَقَالَ تَعَالَى وهو يشنعُ على النصارى اعتقادهم: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾.[٢]

﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

إِنَّمَا تفيدُ القصرَ؛ أي: لَيْسَ اللهُ كما تزعمون، فلَيْسَ لَهُ أَجْزَاءٌ وَلَا أَقَانِيمُ، وَلَا هُوَ مُرَكَّبٌ وَلَا مُتَّحِدٌ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، بل اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ.

---

١ – سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ١٧

٢ – سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ١١٦

﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾.

(سُبْحَانَ) اسْمُ مَصْدَرِ سَبَّحَ، وهي كلمة تقال عن التعجب وعند تنزيهِ الله تعالى؛ أَيْ: تَنَزَّهَ اللهُ وَتَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، وإنما نزه الله تعالى نفسه عن أن يكون له ولد لأن نسبة الولد لله تعالى سبٌّ له تعالى؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا* أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾.[1]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "قَالَ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي، كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْئًا أَحَدٌ".[2]

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾.

أَيِ: جَمِيعُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ خَلْقُهُ هو الذي أوجدهم من العدمِ، وَجَمِيعُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ عُبَيْدُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾.[3]

والكلُ مِلْكُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾.[4]

---

١ - سُورَةُ مَرْيَمَ: الآية/ ٨٨- ٩٢

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة: ١١٦]، حديث رقم: ٤٤٨٢

٣ - سُورَةُ مَرْيَمَ: الآية/ ٩٣- ٩٥

٤ - سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ١٧

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

أي: كَفى بِاللهِ قَيِّمًا وَمُدَبِّرًا وَرَازِقًا لكل مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ، فلا يحتاجون مَعَهُ إِلَى غَيْرِهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٧٢، ١٧٣

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا نَهَى اللهُ تَعَالَى النصارى عن الغلو في دينهم، وكان من أبلغ مظاهر هذا الغلو عبادة المسيح من دون الله تعالى، بين تبارك وتعالى هنا أن المسيح لا يَسْتَنْكِفُ عَنْ عِبَادَةِ الله تعالى، فكيف تعبدونه وهو يعلن عبوديته لله، ويذعن له بالطاعة؟

سببُ نزول الآية:

قَالَ الْكَلْبِيُّ: إِنَّ وَفْدَ نَجْرَانَ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ تَعِيبُ صَاحِبَنَا؟ قَالَ: "وَمَنْ صَاحِبُكُمْ؟ " قَالُوا: عِيسَى، قَالَ: "وَأَيُّ شَيْءٍ أَقُولُ فِيهِ؟ " قَالُوا تَقُولُ إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَقَالَ لَهُمْ: "إِنَّهُ لَيْسَ بِعَارٍ لِعِيسَى أن يكون عبد الله"، قالوا: بلى، فَنَزَلَتْ: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ الْآيَةَ.[١]

ويشهد لقول الْكَلْبِيِّ أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ قَالَ للنَّجَاشِيِّ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا، فلمَّا قَالَ لَهُمْ النَّجَاشِيُّ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟ قَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَنَا بِهِ نَبِيُّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ. فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ بِيَدِهِ إِلَى الْأَرْضِ، فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمَّ قَالَ: وَاَللَّهِ مَا عَدَا عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ، فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ، فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاَللَّهِ.

الِاسْتِنْكَافُ: التَّرَفُّعُ وَالِامْتِنَاعُ بِأَنَفَةٍ، فَهُوَ أَشَدُّ مِنَ الِاسْتِكْبَارِ، وأَصلُهُ مِنَ النَّكْفِ، وهو تَنْحِيَةُ الدَّمْعِ عن الخَدِّ بِالإِصْبَعِ.

١ - أسباب النزول- ت: الحميدان (ص: ١٨٧)

يخبرُ الله تعالى أنَّ عِيسَى عليه السلام، لَا يَأنفُ ولا يَترَفعُ ولا يمتنعُ عَنْ عِبَادَةِ الله تعالى، فَلَا تَسْتَنْكِفُوا أنتم لَهُ مِنْ ذلك، فَلَوْ كَانَ مَوْضِعَ اسْتِنْكَافٍ لَكَانَ هُوَ أَوْلَى بِأَنْ يَسْتَنْكِفَ؛ لِأَنَّ الْعَارَ أَلْصَقُ بِهِ.

وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ يَأنَفُونَ ولا يَترَفعُون ولايمتنعونَ عَنْ عِبَادَتِهِ تعالى، وذكر الله تعالى الْمَلَائِكَةَ لسَببَينِ: الأول: أنهم أَقْوَى وَأَقْدَرَ عَلَى الِامْتِنَاعِ مِنَ الْمَسِيحِ، فإذا كانوا لا يمتنعون عن عبادة الله تعالى وهم أَقْوَى وَأَقْدَرَ، فالمسيح أولى بعدم الامتناعِ.

والثاني: أن المشركين كانوا يقولون عن الملائكة أنهم بناتُ اللهِ، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فتضمن الكلام الردَّ على المشركين مع النصارى بجامع الوصف الذي أطلق على الملائكة وعلى المسيح.

وذكرُ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ دليلٌ على أن من كان دونهم في المنزلة لا يستنكفون من باب أولى، وفيه دليل على تفاوتِ الملائكةِ فِي الدَّرَجَةِ وَالْفَضِيلَةِ، فقيلَ: المرادُ بالْمُقَرَّبِينَ الْكَرُوبِيّون وحملةُ العرشِ وَهُمْ سَادَةُ الْمَلَائِكَةِ.

﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

أَيْ: وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فسوف يَجْمَعُهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وهو خبرٌ يتضمن التهديد والوعيد لمن اسْتَنْكَفَ عَنْ عِبَادَتِهِ تعالى.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

لما ذكر الله تعالى أولئك الذين يَأنفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ تعالى ويَأنَفُونَ أن يكون المسيح عبدًا لله تعالى، بين الله تعالى هنا حالهم وحال من آمن به تعالى، أقر بوحدانيته، وأذعن له بالطاعة، فقَالَ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، أي: فَيُعْطِيهِمْ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ تَامًّا غير منقوصٍ، وأصلُ التَّوْفِيَةِ: الإتمامُ يُقَالُ: وَفَّاهُ أجرَهُ أَيْ: أَعْطَاهُ إِيَاهُ تَامًّا، وَيَزِيدُهُمْ فوقَ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ

أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾، [يُونُس: ٢٦]، وهي النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ رَبِّهِمْ كما قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن الزِّيَادَةِ زِيَادَةُ الثَّوَابِ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ».[1]

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أَي: وَأَمَّا الَّذِينَ امتَنعُوا عَن عِبَادَتِهِ وَاستَكبَرُوا عَن طَاعَتهِ فَيُعَذِّبُهُم عَذَابًا أَلِيمًا.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

أي: وَلَا يَجِدُونَ لَهُم نَاصِرًا يَنصُرُهُم مِن اللَّهِ، وَلَا وَلِيًّا يَستَنقِذُهُم مِن عَذَابِهِ، وَيَدفَعُ عَنهُم نِقمَتَهُ.

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ أَوْ بِسَيِّئَةٍ، حديث رقم: ٦٤٩١، ومسلم- كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ إِذَا هَمَّ الْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ كُتِبَتْ، وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ، حديث رقم: ١٣١

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٧٤، ١٧٥

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا أقامَ اللهُ تَعَالَى الْحُجَّةَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُنَافِقِينَ فِي الآياتِ السابقةِ، ببيانِ فسادِ معتقداتهم، وبطلان ما يدينون به من الدينِ، دَعَا سبحانه وتعالى النَّاسَ جَمِيعًا هُنَا إِلَى أن يدينوا بالدين الحقِّ وأَنْ يؤمنوا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَنْ يؤمنوا بما أنزله الله تعالى عليه من الوحي وهو القرآن.

البُرْهَانُ: الحُجَّةُ الْفَاصِلَةُ الْبَيِّنَةُ، والدليلُ القاطعُ الذي يقطعُ لَدَدَ الخَصمِ.

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا جَمِيعَ النَّاسِ بِأَنَّهُ قَدْ أرسلَ إليهم رسولًا بعثته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُرْهَانٌ عَظِيمٌ، وَدَلِيلٌ قَاطِعٌ لِلعُذْرِ، وَحُجَّةٌ مُزِيلَةٌ لِكلِ شُبْهَةٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. [النِّسَاءِ: ١٧٠]، فالبُرْهَانُ في هذه الآية هُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ حُجَّةً على العبادِ قَطَعَ بِهَا عُذْرَهُمْ؛ لأن الله تعالى قد بشر به في الكتب السابقةِ.

﴿وَأَنزلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾.

أَيْ: وَأَنزلْنَا إِلَيْكُمْ كتابًا منيرًا يَدلُ عَلَى الْحَقِّ ويهدي إليه لا لبس فيهِ ولا غموض، وَهُوَ الْقُرْآنُ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ جُرَيج وَغَيْرُهُ.

وهذا القول أولى من اعتبار البرهان والنور شيئًا واحدًا لأن العطف يقتضي المغايرة.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾.

أي: آمَنُوا بالله تعالى ربًّا واتقوه حقَّ تقاته، وَاعْتَصَمُوا بِهِ تَعَالَى مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ.

وقيل: صَدَّقُوا بِاللَّهِ، وَأَقَرُّوا بِوَحْدَانِيَّتِهِ، وَتَمَسَّكُوا بِالنُّورِ الْمُبِينِ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَى نَبِيِّهِ؛ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ ﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ قَالَ: بِالْقُرْآنِ.[1]

﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

أَيْ: فَسَوْفَ تَنَالُهُمْ رَحْمَتُهُ تعالى فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَيُسَدِّدُهُمْ لِسُلُوكِ مَنْهَجِ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ وهو الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الرَّحْمَةُ الْجَنَّةُ، وَالْفَضْلُ مَا يَتَفَضَّلُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً يُرِيدُ دِينًا مُسْتَقِيمًا.

---

١ - تفسير الطبري (٧/ ٧١٢)

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ١٧٦

مُنَاسَبَةُ خَتْمِ السُّورَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ:

خُتِمَت هَذِهِ السُّورَةُ بِهَذِهِ الآيَةِ لتحصل المشاكلة بين المبدأ والختام، فإن السورة بُدِئَت بِأَحكَامِ الإِرثِ وخُتِمَت كَمَا بُدِئَت بِأَحكَامِ الْإِرْثِ، مِن بابِ رَدِّ الْعَجزِ عَلَى الصَّدرِ.

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: مَرِضْتُ فَأَتَانِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبُو بَكْرٍ يَعُودَانِي مَاشِيَيْنِ، فَأُغْمِيَ عَلَيَّ، فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ صَبَّ عَلَيَّ مِنْ وَضُوئِهِ، فَأَفَقْتُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ أَقْضِي فِي مَالِي؟ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ شَيْئًا، حَتَّى نَزَلَتْ آيَةُ الْمِيرَاثِ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾.

هَذِهِ الْآيَةِ هِي آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ من آياتِ الأحكامِ؛ روى البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، سَمِعْتُ الْبَرَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ بَرَاءَةَ، وَآخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾.

في الكلام حذف إيجاز تقديره: يَسْتَفْتُونَكَ فِي الْكَلَالَةِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهَا.

وَتَقدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى معنى الْكَلَالَةِ والمرادِ بها في أول السورة وقلنا إن الْمُرَادَ بالْكَلَالَةِ مَنْ يَرِثُ الْمُتَوفَى مِنْ حَوَاشِيهِ لَا أُصُولِهِ وَلَا فُرُوعِهِ، وتقدمَ قولُ أَبِي بَكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: وقَد سُئِلَ عَنِ الْكَلَالَةِ، فَقَالَ: أَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنَ اللَّهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ بَرِيئَانِ مِنْهُ: الْكَلَالَةُ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ.

وقد أَنْزَلَ اللَّه تَعَالَى فِي الْكَلَالَةِ آيَتَيْنِ الأولى الَّتِي فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، نَزَلَتْ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ، وَالْأُخْرَى هَذِهِ الْآيَةُ وَنَزَلَتْ فِي فَصْلِ الصَّيْفِ؛ وَلِهَذَا تُسَمَّى آيَةَ الصَّيْفِ.

وَأُشْكِلَ حُكْم الْكَلَالَةِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى سأل رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عنها مرارًا؛ فعَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، خَطَبَ يَوْمَ جُمُعَةٍ، فَذَكَرَ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَكَرَ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي لَا أَدَعُ بَعْدِي شَيْئًا أَهَمَّ عِنْدِي مِنَ الْكَلَالَةِ، مَا رَاجَعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَيْءٍ مَا رَاجَعْتُهُ فِي الْكَلَالَةِ، وَمَا أَغْلَظَ لِي فِي شَيْءٍ مَا أَغْلَظَ لِي فِيهِ، حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «يَا عُمَرُ، أَلَا تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ، وَإِنِّي إِنْ أَعِشْ أَقْضِ فِيهَا بِقَضِيَّةٍ يَقْضِي بِهَا مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَمَنْ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ».[1]

﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾.

أي: إِنْ مَاتَ إِنْسَانٌ مِنَ النَّاسِ، ولا يقصد بها الذم كما يتوهم بعض الناس؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ﴾.[2]

وقد قيل:

وَمَا النَّاسُ إلاّ هالِكُ وابْنُ هالِكٍ ***** وَذُو نَسَبٍ فِي الهالكِينَ عَرِيقِ

﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾.

الولدُ يطلق على الذكرِ والأُنثى، أي: لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ذَكَرٌ وَلَا أُنْثَى، وتقدمَ أَنَّ الْكَلَالَةَ: مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ، وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾، نصٌّ على نفي الولد، ونفي الوالدِ من مفهوم الآية، فَإِنَّ الْأُخْتَ لَا ترثُ مَعَ الْوَالِدِ شيئًا بِالْإِجْمَاعِ، وهنا فُرِضَ لَهَا النِّصْفُ، فدلَّ ذلك على أن الميتَ هنا لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ.

١ - رواه مسلم- كِتَابُ الْفَرَائِضِ، بَابُ مِيرَاثِ الْكَلَالَةِ، حديث رقم: ١٦١٧

٢ - سورة الْقَصَصِ: الآية/ ٨٨

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾.

الْمُرَادُ بِالْأُخْتِ هُنَا الْأُخْتُ الشَّقِيقَةُ، وَالْأُخْتُ لِأَبٍ عِنْدَ عَدَمِ الشَّقِيقَةِ؛ أما الْأُخْتُ لِأُمٍّ فقد ذكرَ ميراثها فِي آيَةِ الشِّتَاءِ، آيَةِ الْكَلَالَةِ الْأُولَى، ولها السُّدُسُ حال انفرادها، وكذلك لَا يَرِثُ الْأَخُ لِأُمٍّ جَمِيعَ الْمَالِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لِأُخْتِهِ لِلْأُمِّ وَلَدٌ، وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا السُّدُسُ.

فإذا لم يكن مع الأختِ ولدٌ فهي صاحبةٌ فرضٍ بالآية؛ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ زَوْجٍ، وَأُخْتٍ لِأُمٍّ وَأَبٍ «فَأَعْطَى الزَّوْجَ النِّصْفَ، وَالْأُخْتَ النِّصْفَ»، فَكُلِّمَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: «حَضَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بِذَلِكَ».[١]

وإذا كان معها ابنٌ حجبها حجب حرمانٍ، وكانت بنتًا أخذت النصفَ فرضًا، وأخذت الأختُ الباقي تعصيبًا؛ عَنْ هُزَيْلِ بْنِ شُرَحْبِيلَ، قَالَ: سُئِلَ أَبُو مُوسَى عَنْ بِنْتٍ وَابْنَةِ ابْنٍ وَأُخْتٍ، فَقَالَ: لِلْبِنْتِ النِّصْفُ، وَلِلْأُخْتِ النِّصْفُ، وَأْتِ ابْنَ مَسْعُودٍ، فَسَيُتَابِعُنِي، فَسُئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَأُخْبِرَ بِقَوْلِ أَبِي مُوسَى فَقَالَ: لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ المُهْتَدِينَ، أَقْضِي فِيهَا بِمَا قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِلِابْنَةِ النِّصْفُ، وَلِابْنَةِ ابْنِ السُّدُسُ تَكْمِلَةَ الثُّلُثَيْنِ، وَمَا بَقِيَ فَلِلْأُخْتِ» فَأَتَيْنَا أَبَا مُوسَى فَأَخْبَرْنَاهُ بِقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: لاَ تَسْأَلُونِي مَا دَامَ هَذَا الحَبْرُ فِيكُمْ.[٢]

وَعَنِ الأَسْوَدِ، قَالَ: قَضَى فِينَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النِّصْفُ لِلِابْنَةِ وَالنِّصْفُ لِلْأُخْتِ».[٣]

---

١ - رواه أحمد- حديث رقم: ٢١٦٣٩، بسند فيه ضعف

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ الفَرَائِضِ، بَابُ مِيرَاثِ ابْنَةِ الِابْنِ مَعَ بِنْتٍ، حديث رقم: ٦٧٣٦

٣ - رواه البخاري- كِتَابُ الفَرَائِضِ، بَابٌ: مِيرَاثُ الأَخَوَاتِ مَعَ البَنَاتِ عَصَبَةٌ، حديث رقم: ٦٧٤١

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾.

أَيْ: وَالْأَخُ يَرِثُ جَمِيعَ مَا لَهَا إِذَا مَاتَتْ وَلَيْسَ لَهَا وَلَدٌ، وَلَا وَالِدَ؛ لما عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ».[1]

﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾.

يَعْنِي: فَإِنْ كَانَ الميتُ قد تَرَكَ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْأَخَوَاتِ الشَّقِيقَاتِ أَوْ لِأَبٍ، فَلَهُمَا ثُلُثَا مَا تَرَكَ أَخُوهُمَا الْمَيِّتُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوُرِثَ كَلَالَةً، وَمَا زَادَ عَلَى الْأُخْتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ كَذَلِكَ؛ كما قَالَ تَعَالَى عَنِ الْبَنَاتِ: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾.

﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾.

يعني: وَإِنْ كَانَ الوَرَثَةُ مِنَ الْإِخْوَةِ وَالْأَخَوَاتِ مِنَ الْأَبِ وَالْأُمِّ، أُعْطِيَ الذَّكَرُ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ.

﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾.

أَيْ: يُوَضِّحُ اللَّهُ لَكُمْ أَحكامَهُ وَشَرَائِعَهُ لِئَلَّا تَضِلُّوا عَنِ الْحَقِّ.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أَيْ: هُوَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَمِنْ ذلك ما يُشَرِّعُهُ لِعِبَادِهِ مِنَ الأَحْكَامِ، وَمَا يَسْتَحِقُّهُ الوَرَثَةُ مِنَ السهامِ.

آخِرُ تَفْسيرِ سُورَةِ النِّسَاءِ ولله الحمدُ والمنَّةُ، ونسألُ اللهَ الإعانةَ على الإتمامِ.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الفَرَائِضِ، بَابُ مِيرَاثِ الوَلَدِ مِنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، حديث رقم: ٦٧٣٢، ومسلم- كِتَابُ الْفَرَائِضِ، بَابُ أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ، حديث رقم: ١٦١٥

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ١

سُورَةُ الْمَائِدَةِ سُورَةٌ مَدَنِيَّةٌ.

وَتُسَمَّى سُورَةَ الْعُقُودِ: لورودُ هذا اللَّفْظ فِي أَوَّلِهَا، وَتُسَمَّى الْمُنْقِذَةَ؛ لأَنَّهَا تُنْقِذُ صَاحِبَهَا مِنْ أَيْدِي مَلَائِكَةِ الْعَذَابِ، وورد في ذلك حديثٌ لا يصحُّ.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ القرآنِ:

سُورَةُ الْمَائِدَةِ آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ القرآنِ على الراجح؛ فعَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ قَالَ: حَجَجْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَتْ لِي: يَا جُبَيْرُ تَقْرَأُ الْمَائِدَةَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَتْ: «أَمَا إِنَّهَا آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَلَالٍ، فَاسْتَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ».[١]

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، سَمِعْتُ البَرَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ بَرَاءَةَ، وَآخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ: اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلاَلَةِ﴾. [النساء: ١٧٦].[٢] والراجح أن آخر سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ القرآنِ سُورَةُ الْمَائِدَةِ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِسُورَةِ بَرَاءَةَ فِي الْحَجَّةِ الَّتِي حَجَّهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِالنَّاسِ قَبْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقَرَأَهَا عَلَى النَّاسِ حَتَّى خَتَمَهَا.[٣]

١ - رواه أحمد- حديث رقم: ٢٥٥٤٧، والحاكم- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، حديث رقم: ٣٢١٠، والنسائي في السنن الكبرى- كِتَابُ التَّفْسِيرِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، حديث رقم: ١١٠٧٣، بسند صحيح

٢ - رواه البخاري- بَابُ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ: اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ﴾، حديث رقم: ٤٦٠٥، ومسلم-كِتَابُ الْفَرَائِضِ، بَابُ آخِرُ آيَةٍ أُنْزِلَتْ آيَةُ الْكَلَالَةِ، حديث رقم: ١٦١٨

٣ - شرح مشكل الآثار (٦/ ٣٠٦)

سُورَةُ الْمَائِدَةِ نَزَلَتْ جملةً واحدةً:

عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُورَةُ الْمَائِدَةِ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَحْمِلَهُ، فَنَزَلَ عَنْهَا».[1]

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: إِنِّي لَآخِذَةٌ بِزِمَامِ الْعَضْبَاءِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذْ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ الْمَائِدَةُ كُلُّهَا فَكَادَتْ مِنْ ثِقَلِهَا تَدُقُّ بِعَضُدِ النَّاقَةِ».[2]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، هذا نداءٌ لِلَّذِينَ آمنُوا باللهِ رَبًّا وَأَقَرُّوا لَهُ بِالوَحْدَانِيَّةِ، وبالإسلامِ دينًا وبمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًّا ورَسُولًا، أَنْ يُوَفُّوا بِالْعُهُودِ الَّتِي عَاهَدُوهَا، وقدْ أجمعَ العلماءُ عَلَى أَنَّ مَعْنَى الْعُقُودِ هُنَا: الْعُهُودُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، والرَّبِيعُ، وَمُطَرِّفٌ، وَالضَّحَّاكُ: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، يَعْنِي: بِالْعُهُودِ.

واختلفَ العلماءُ في المرادِ بِالْعُقُودِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ بِالْوَفَاءِ بِهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ.

فقِيلَ: هي أحكامُ اللهِ تعالى وشرائِعُهُ التي شَرَعَهَا للعِبَادِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي مَا أَحَلَّ اللَّهُ وَمَا حَرَّمَ، وَمَا فَرَضَ وَمَا حَد فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ، فَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَنْكُثُوا.

وقِيلَ: هِيَ الْعُقُودُ الَّتِي يَتَعَاقَدُهَا النَّاسُ بَيْنَهُمْ، قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قَالَ: هِيَ سِتَّةٌ: عَهْدُ اللَّهِ، وَعَقْدُ الْحِلْفِ، وَعَقْدُ الشَّرِكَةِ، وَعَقْدُ الْبَيْعِ، وَعَقْدِ النِّكَاحِ، وَعَقْدِ الْيَمِينِ.

والراجح أَنَّ لفظَ الْعُقُودِ يعمُ كلَ عقدٍ مباحٍ فيدخلُ في ذلك ما شرعه الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسولهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما تَعَاقَدَهُ النَّاسُ فِيمَا بَيْنَهُمْ.

---

١ – رواه أحمد– حديث رقم: ٦٦٤٣، بسند حسن

٢ – رواه أحمد– حديث رقم: ٢٧٥٧٥، بسند حسن

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾.

قَالَ قَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: الْأَنْعَامُ كُلُّهَا.

وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: هِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ، وَالْغَنَمُ.

وَالأَنْعَامُ عِنْدَ الْعَرَبِ: اسْمٌ لِلْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ خَاصَّةً.

وقيلَ: المرادُ ببَهِيمَةِ الأنْعَامِ أَجِنَّةُ الْأَنْعَامِ الَّتِي تُوجَدُ مَيْتَةً فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهَا إِذَا نُحِرَتْ أَوْ ذُبِحَتْ؛ ودلَّ على ذلكَ ما ثبت عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْجَنِينِ فَقَالَ: «كُلُوهُ إِنْ شِئْتُمْ فَإِنَّ ذَكَاتَهُ ذَكَاةُ أُمِّهِ».[١]

وعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ذَكَاةُ الجَنِينِ ذَكَاةُ أُمِّهِ».[٢]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾.

أَيْ: إِلَّا مَا سَيُتْلَى عَلَيْكُمْ تَحْرِيمُهُ مِنْهَا؛ يعني: قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ.....﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِذَلِكَ: الْمَيْتَةَ، وَالدَّمَ، وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْمَيْتَةَ، وَمَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾.

أَيْ: أُحِلَّتْ لَكُمْ أَيُّهَا المؤمِنُونَ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ، الْإِنْسِيّ مِنْها كَالْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، وَالْوَحْشِيُّ كَالظِّبَاءِ وَالبَقَرِ وَالْحُمُرِ، غَيْرَ مُسْتَحِلِّي اصْطِيَادِهَا حَالَ إِحْرَامِكُمْ، أَيْ: حال إِحْرَامِكِم بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ أَوْ أَحدِهِمَا، فَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ: وَأَنْتُمْ دَاخلَ الْحَرَمِ.

---

١ - رواه أحمد- حديث رقم: ١١٢٦٠، وأبو داود- كِتَاب الضَّحَايَا، بَابُ مَا جَاءَ فِي ذَكَاةِ الْجَنِينِ، حديث رقم: ٢٨٢٧، وابن ماجه- كِتَابُ الذَّبَائِحِ، بَابُ ذَكَاةِ الْجَنِينِ، ذَكَاةُ أُمِّهِ، حديث رقم: ٣١٩٩، بسند صحيح

٢ - رواه أحمد- حديث رقم: ١١٣٤٣، والترمذي- أَبْوَابُ الْأَطْعِمَةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي ذَكَاةِ الْجَنِينِ، حديث رقم: ١٤٧٦، بسند صحيح

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يُقَالُ: أَحْرَمَ إِذَا تَلَبَسَ بالْإِحْرَامِ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وإِذَا دَخَلَ الْحَرَمَ وإنْ كانَ حلالًا؛ فَيَحْرُمُ الصَّيْدُ عَلَى مَنْ كَانَ فِي الْحَرَمِ، كَمَا يَحْرُمُ عَلَى مَنْ كَانَ مُحْرِمًا بِالْحَجِّ أَوِ الْعُمْرَةِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

تذييل بمثابةِ التعليلِ لِمَا أَبَاحَهُ اللهُ مِنَ الْأَنْعَامِ فِي كلِ حالٍ، وَلِمَا أَبَاحَهُ اللهُ مِنَ الصَّيْدَ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ دُونَ بَعْضٍ، وَالْحُكْمُ يأتي فِي القرآنِ بِمَعْنَى الْمَنْعِ، وَبِمَعْنَى الْقَضَاءِ، أَيْ: إِنَّ اللَّهَ يَمْنَعُ مَا أَرَادَ مَنْعَهُ، فيحرمه على العباد، أَوْ ويبيحُ ما مَا أَرَادَ إباحته ويَجْعَلُهُ حُكْمًا وَقَضَاءً، والواجب على المؤمنين أن يسلموا لله ويرضوا بحكمه على كل حالٍ.

فائدة:

حَكَى النَّقَّاشُ أَنَّ أَصْحَابَ الْفَيْلَسُوفِ الْكِنْدِيِّ قَالُوا لَهُ: أَيُّهَا الْحَكِيمُ اعْمَلْ لَنَا مِثْلَ هَذَا الْقُرْآنِ، فَقَالَ: نَعَمْ أَعْمَلُ مِثْلَ بَعْضِهِ، فَاحْتَجَبَ أَيَّامًا كَثِيرَةً ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَقْدِرُ وَلَا يُطِيقُ هَذَا أَحَدٌ، إِنِّي فَتَحْتُ الْمُصْحَفَ فَخَرَجَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ قَدْ نَطَقَ بِالْوَفَاءِ وَنَهَى عَنِ النَّكْثِ، وَحَلَّلَ تَحْلِيلًا عَامًّا، ثُمَّ اسْتَثْنَى بَعْدَ اسْتِثْنَاءٍ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي سَطْرَيْنِ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِهَذَا.[١]

١ - انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ١٤٥)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣١)، والبحر المحيط في التفسير (٤/ ١٥٧)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٢

هذا خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَّا يَتَعَدَّوْا حُدُودَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ.

وَالشَّعَائِرُ جَمْعُ شَعِيرَةٍ عَلَى وَزْنِ فَعِيلَةٍ، وَالْمَشَاعِرُ: الْمَعَالِمُ، وَاحِدُهَا مَشْعَرٌ، وَهِيَ الْمَوَاضِعُ الَّتِي قَدْ أُشْعِرَتْ بِالْعَلَامَاتِ؛ والمرادُ: لَا تُحِلُّوا حُرُمَاتِ اللَّهِ، وَلَا تَتَعَدُّوا حُدُودَ مَعَالِمِ الشَّرْعِ التي حدَّها اللَّهُ لعبادِهِ، وَهِيَ أَوَامِرُهُ، وَنَوَاهِيهِ، وَفَرَائِضُهُ، وأحكامُهُ.

وَسُئِلَ عَطَاءٌ عَنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، فَقَالَ: حُرُمَاتُ اللَّهِ: اجْتِنَابُ سَخَطِ اللَّهِ، وَاتِّبَاعُ طَاعَتِهِ، فَذَلِكَ شَعَائِرُ اللَّهِ.

وقيل: المراد بذلك شَعَائِرُ الْحَجِّ وَمَنَاسِكُهُ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِذَلِكَ مَنَاسِكَ الْحَجِّ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ وَالْهَدْيَ وَالبُدن مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ.

﴿وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾.

وَالْمُرَادُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ هُنا الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ الْأَرْبَعَةُ المذكورةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾.[١]

وَهِيَ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبٌ، ويكونُ قَوْلُهُ ﴿وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾. اسْمُ جِنْسٍ لِلْأَشْهُرِ الْحُرُمِ.

١ - سُورَةُ التَّوْبَةِ: الآية/ ٣٦

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ شهرُ رَجَبٍ خاصةً؛ وَخُصَّ بِالنَّهْيِ عَنْ إِحْلَالِهِ؛ لِأَنَّهُ أَكْمَلُ الْأَشْهُرِ الْأَرْبَعَةِ فِي هَذِهِ الصِّفَةِ؛ ولأن بعضَ الْعَرَبِ كانوا يُحَرِّمُونَهُ، وبعضهم كانوا يُحِلُّونَهُ، حتى كان بعرفُ بِرَجَبِ مُضَرَ لأنهم كانوا يُحَرِّمُونَهُ، أَمَّا رَبِيعَةُ وَإِيَادُ وَأَنْمَارٌ فكانوا يُحِلُّونَهُ.

وعلى هذا القول يكون الأمرُ تحذيرًا للمؤمنينَ مما كان يفعله المشركون من إِحْلَالِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾.[1]

قوله تعالى: ﴿وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ﴾.

الْهَدْيُ: هُوَ مَا أُهْدِيَ إِلَى بَيْتِ اللهِ مِنْ الأَنْعَامِ، تَقَرُّبًا بِهِ إِلَى اللَّهِ وَطَلَبًا لثَوَابِهِ، وَمُفردُهَا هَدْيَةٌ.

وَالْقَلَائِدُ: جَمْعُ قِلَادَةٍ، وَهِيَ كُلُ مَا يُوضَعُ فِي أَعْنَاقِ الإِبِلِ وَغَيْرِهَا لِيُعْرَفَ أَنَّهَا هَدْيٌ فَلَا يُتَعَرَّضُ لَهَا بِسُوءٍ، وقيلَ لها: قَلَائِدُ تشبيهًا لها بِقَلَائِدِ النِّسَاءِ.

أمر الله تعالى بتعظيم الْهَدْيِ وَالْقَلائِدِ ونهى عن استحلالها والإغارةِ عليها، وعطف الْقَلائِدَ على الْهَدْيِ من باب عطف الخاص على العام؛ مُبَالَغَةً فِي الوَصِيَةِ بِهَا، وقيلَ: نَهَى عَنِ التَّعَرُّضِ لِقَلَائِدِ الْهَدْيِ مُبَالَغَةً فِي النَّهْيِ عَنِ التَّعَرُّضِ لِلْهَدْيِ كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾. [النُّورِ: ٣١]، فَنَهَى عَنْ إِبْدَاءِ الزِّينَةِ مُبَالَغَةً فِي النَّهْيِ عَنْ إِبْدَاءِ مَوَاضِعِهَا.

﴿وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾.

أَيْ: وَلَا تَسْتَحِلُّوا مَنْعَ أَحَدٍ قَصَدَ بَيْتَ اللهِ الْحَرَامِ، يريدُ التِّجَارَةَ، أَوْ يَبْتَغِي الأجرَ مِنْ رَبِّهِ، ويسعى لرضوانِهِ، بالحجِّ والعمرةِ، فَلَا تَصُدُّوهُ عنه فضلًا عن ترويعِهِ وقتالِهِ.

١ - سُورَةُ التَّوْبَةِ: الآية/ ٣٧

ثم نَسَخَ اللهُ تَعَالَى ذلك الحكم بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾. الْآيَةَ [التَّوْبَة: ٢٨]، فَمُنِعَ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وأُذِنَ في قتالهم؛ فعَنْ مُجَاهِدٍ: نَسَخَتْهَا: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.[١]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِي الْحَجَّةِ الَّتِي أَمَّرَهُ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَبْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فِي رَهْطٍ، يُؤَذِّنُونَ فِي النَّاسِ يَوْمَ النَّحْرِ: «لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ».[٢]

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نُسِخَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ آيَتَانِ: آيَةُ الْقَلَائِدِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.[٣]

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾.

أَيْ: إِذَا تحللتُمْ مِنْ إِحْرَامِكُمْ، فَقَدْ أُبِيحَ لَكُمْ مَا كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْكُمْ حَالَ الْإِحْرَامِ مِنَ الصَّيْدِ. ويستدلُّ العلماء بهذه الآية على مسألةِ الْأَمْرِ بَعْدَ الْحَظْرِ ماذا يفيدُ؟

وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَرجِعُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ الْحَظْرِ، فَإِنْ كَانَ وَاجِبًا قَبْلَ الْحَظْرِ فهو وَاجِبٌ، وَإِنْ كَانَ مُسْتَحَبًّا فهو مُسْتَحَبٌّ، وَإِنْ كَانَ مُبَاحًا فهو مُبَاحٌ.

﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾. قال الكسائي والمبرّد: معناه: لا يحملنّكم.

وَالشَّنَآنُ الْبُغْضُ؛ ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾. أَيْ: مُبْغِضَكَ.

أَيْ: لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُكُم لأَقْوَامٍ عَلَى عَدمِ الْعَدْلِ معهم، ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ أَيْ: مِنْ أَجْلِ أَنْ صَدُّوكُمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، و(أَنْ) هنا تفسيرية، فَإِنَّ الْعَدْلَ

١ – سُورَةُ التَّوْبَةِ: الآية/ ٥

٢ – رواه البخاري– كِتَابُ الحَجِّ، بَابُ لاَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَلاَ يَحُجُّ مُشْرِكٌ، حديث رقم: ١٦٢٢، ومسلم– كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ لَا يَحُجُّ الْبَيْتَ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَبَيَانُ يَوْمِ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، حديث رقم: ١٣٤٧

٣ – سُورةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٤٢

من المبادئِ الراسخةِ، وهو واجبٌ فِي كُلِّ حَالٍ، وَكُلِّ إنسانٍ مؤمنٍ وكافرٍومما يدلُّ على رسوخ مبدأ العدل في الإسلام قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النَّحْلِ:٩٠]، أَيْ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنَّهُ يَأْمُرُ عِبَادَهُ بِالْعَدْلِ مَعَ الخلقِ جميعًا، وَيَنْهَى عِبَادَهُ عَنِ الْبَغْيِ على أَحَدٍ منهم.

وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو: ﴿إِنْ صَدُّوكُمْ﴾، بِكَسْرِ (إِنْ)، عَلَى أَنَّهَا شَرْطِيَّةٌ، وَالشَّرْطُ عَلَى مَعْنَى الْمَاضِي وتقديرُهُ: إِنْ كَانُوا صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؛ لأنَّ الصَّدَّ وقعَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ قبلَ نزولِ السورةِ، وهو كذلك تشريعٌ عام لما يمكنُ أَنْ يَقَعَ لِلْمُسْلِمِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾، أَيْ: لَا يَحْمِلَنَّكُمْ ذَلِكَ أَنْ تُجَاوِزُوا الْحَقَّ معاملتهم، وتخالفوا الَّذِي أمركم اللَّهُ بِهِ فِي شَأْنِهِمْ.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾.

ثم أَمَرَ تَعَالَى المؤمنينَ جَمِيعًا بِالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وهو جماعُ الخيرِ؛ أي: امتثالِ كل أمرٍ وفعلُ كلِ خيرٍ، وَالتَّقْوَى: اجتنابُ كلِ شرٍ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْبِرُّ مَا ائْتُمِرْتَ بِهِ، وَالتَّقْوَى مَا نُهِيتَ عَنْهُ.

﴿وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

ونَهَى اللهُ تَعَالَى المؤمنينَ عنِ التَّعَاوُنِ عَلَى الْإِثْمِ أي: الْمَعَاصِي، وَالْعُدْوَانُ أي: التَّعَدِّي على حُدُودِ اللَّهِ بظُلْمِ النَّاسِ، الْإِثْمُ: اسمُ جنسٍ يَعُمُّ كلَ عِصيانٍ ويدخلُ فيه الكفرُ فما دونه من الآثامِ، وَالْعُدْوَانُ يدخلُ فيه كُلُ اعتداءٍ على حقوقِ اللهِ تعالى وحقوقِ العبادِ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

تَذْيِيلٌ الغرضُ مِنْهُ التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ، لِمَنْ تَعَدَّي حُدودَ اللهِ، وانتَهكَ مَحَارِمَهُ، أي: احذروا أسباب سخطهِ، فإنَّ أخذه أليمٌ شَدِيدٌ وَوَصَفَ عِقَابَهُ بِالشِّدَّةِ، لِأَنَّهُ بنارٍ حاميةٍ، لَا يُطْفَأُ حَرُّهَا، وَلَا يُخْمَدُ جَمْرُهَا، نعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا.

الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية الاستعارةُ في قوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾. فإنَّ الحلَّ حقيقة في الأجسام، واستعير هنا لانتهاك حُرُمَاتِ تلك الشَّعَائِرِ.

وأيضًا الشَّعَائِرُ فِي اللغةِ هِيَ الْمَوَاضِعُ الَّتِي قَدْ أُشْعِرَتْ بِالْعَلَامَاتِ؛ واسْتُعِيرَتْ هُنَا لمِعَالِمِ الشَّرْعِ التي حدَّها اللَّهُ لعبادِهِ.

وعطفُ الخَاصِ على العَامّ في قوله: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾، فإنَّ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وما بَعْدَهُ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ.

وعطفُ الخَاصِ على العَامِّ في قوله: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾، مُبَالَغَةً فِي الوَصِيَةِ بِهَا؛ لأنها أفضلُ الهدي.

والإيجازُ بالحذفِ في قوله: ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾، فإنَّ القِلَادَةَ هُنَا هي كُلُ مَا يُوضَعُ فِي أَعْنَاقِ الإِبلِ وَغَيْرِهَا، والمرادُ ولا ذَوَاتِ الْقَلَائِدِ.

والمقابلة في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

والتَّذْيِيلُ في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وَالغرضُ مِنْهُ التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٣

هذا خبرٌ من اللهِ تَعَالَى يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ عَنْ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ المذكورةِ، وَهِيَ المستثناةُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾. [الْمَائِدَةِ: ١]، كما بينَّا في أولِ السُّورةِ.

وَهَذِهِ الْمُحَرَّمَاتُ أَحَدَ عَشَرَ نَوْعًا: الْأَوَّلُ:

الْمَيْتَةُ وَهِيَ: مَا مَاتَ مِنَ الْحَيَوَانِ حَتْفَ أَنْفِهِ، مِنْ غَيْرِ ذَكَاةٍ وَلَا اصْطِيَادٍ.

وَكَانَ المشركون يستحلون أكلَ الميتةِ ويقولون: تَأْكُلُونَ مَا قَتَلْتُمْ وَلَا تَأْكُلُونَ مَا قَتَلَ اللَّهُ؟

ويستثنى منَ الْمَيْتَةِ السَّمَكُ وَالْجَرَادُ؛ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ، وَدَمَانِ. فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ: فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ: فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ".[١]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَاءِ الْبَحْرِ: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحَلَالُ مَيْتَتُهُ».[٢]

والحكمة من تحريم الميتة، أن ذلك الْحَيَوَانَ الذي ماتَ حَتْف أَنْفِهِ مات بعلةٍ وهذه العلة تترك أثرًا في لحم الحيوان ودمهِ، والدَّمُ الْمُحْتَقِنُ في الميتةِ يتحول بمجردِ موتها إلى مستودعٍ للجراثيم

١ – رواه أحمد– حديث رقم: ٥٧٢٣، وابن ماجه– كِتَابُ الصَّيْدِ، بَابُ صَيْدِ الْحِيتَانِ، وَالْجَرَادِ، حديث رقم: ٣٢١٨، بسند صحيح

٢ – رواه أحمد– حديث رقم: ٧٢٣٣، وأبو داود– كِتَاب الطَّهَارَةِ، بَابُ الْوُضُوءِ بِمَاءِ الْبَحْرِ، حديث رقم: ٨٣، والترمذي– أَبْوَابُ الطَّهَارَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ مَا جَاءَ فِي مَاءِ البَحْرِ أَنَّهُ طَهُورٌ، حديث رقم: ٦٩، والنسائي– كِتَابُ الصَّيْدِ وَالذَّبَائِحِ، بَابُ مَيْتَةِ الْبَحْرِ، حديث رقم: ٤٣٥٠، وابن ماجه– كِتَابُ الطَّهَارَةِ وَسُنَنِهَا، بَابُ الْوُضُوءِ بِمَاءِ الْبَحْرِ، حديث رقم: ٣٦٨، بسند صحيح

والميكروباتِ؛ لذلك أوجب الله تعالى تذكية الحيوان، وجعلها شرطًا لاباحته، وتنتقل هذه العلة وتلك الميكروبات إلى من أكل من الميتةِ، فنهى الله تعالى عن أكلِ الميتةِ حفظًا للنفوسِ من الأدواءِ والتلفِ.

الثَّانِي مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ: الدَّمُ، والمرادُ به الدَّمُ الْمَسْفُوحُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الْأَنْعَامِ: ١٤٥]، فيحملُ المطْلَقُ هُنَا عَلَى المقَيَّدِ فِي آيَةِ سورةِ الْأَنْعَامِ، أَمَّا ما خَالَطَ اللَّحْمَ بعدَ غسلهِ فهو معفوٌ عنه بإجماعِ العلماءِ.

وكان الْمُشْرِكُونَ يَأْكُلُونَهُ وَيُطْعِمُونَهُ الضَّيْفَ؛ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَى قَوْمِي أَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَعْرِضُ عَلَيْهِمْ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ، فَأَتَيْتُهُمْ وَقَدْ سَقُوا إِبِلَهُمْ، وَأَحْلَبُوهَا، وَشَرِبُوا فَلَمَّا رَأَوْنِي، قَالُوا: مَرْحَبًا بِالصُّدَيِّ بْنِ عَجْلَانَ، ثُمَّ قَالُوا: بَلَغَنَا أَنَّكَ صَبَوْتَ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ قُلْتُ: «لَا وَلَكِنْ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَبَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْكُمْ أَعْرِضُ عَلَيْكُمُ الْإِسْلَامَ وَشَرَائِعَهُ، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ جَاءُوا بِقَصْعَةٍ دَمٍ فَوَضَعُوهَا، وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهَا يَأْكُلُوهَا» فَقَالُوا: هَلُمَّ يَا صُدَيُّ، فَقُلْتُ: «وَيْحَكُمْ إِنَّمَا أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ مَنْ يُحَرِّمُ هَذَا عَلَيْكُمْ بِمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ» ، قَالُوا: وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣] فَجَعَلْتُ أَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَيَأْبُونَ فَقُلْتُ لَهُمْ: وَيْحَكُمُ ايْتُونِي بِشَيْءٍ مِنْ مَاءٍ، فَإِنِّي شَدِيدُ الْعَطَشِ، قَالُوا: لَا، وَلَكِنْ نَدَعُكَ تَمُوتُ عَطَشًا، قَالَ: «فَاعْتَمَمْتُ وَضَرَبْتُ رَأْسِي فِي الْعِمَامَةِ، وَنِمْتُ فِي الرَّمْضَاءِ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، فَأَتَانِي آتٍ فِي مَنَامِي بِقَدَحِ زُجَاجٍ لَمْ يَرَ النَّاسُ أَحْسَنَ مِنْهُ وَفِيهِ شَرَابٌ لَمْ يَرَ النَّاسُ أَلَذَّ مِنْهُ فَأَمْكَنَنِي مِنْهَا، فَشَرِبْتُهَا فَحَيْثُ فَرَغْتُ مِنْ شَرَابِي اسْتَيْقَظْتُ وَلَا، وَاللَّهِ مَا عَطِشْتُ، وَلَا عَرَفْتُ عَطَشًا بَعْدَ تِلْكَ الشَّرْبَةِ» فَسَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ: أَتَاكُمْ رَجُلٌ مِنْ سُرَاةِ قَوْمِكُمْ فَلَمْ تَمْجَعُوهُ بِمَذْقَةٍ فَأَتَوْنِي بِمَذِيقَتِهِمْ فَقُلْتُ: «لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَطْعَمَنِي وَسَقَانِي فَأَرَيْتُهُمْ بَطْنِي فَأَسْلَمُوا عَنْ آخِرِهِمْ».[١]

---

١ – رواه الحاكم– كِتَابُ مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ذِكْرُ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم: ٦٧٠٥، والطبراني في الكبير– حديث رقم: ٨٠٧٤، بسند صحيح

ويستثنى من الدمِ الْكَبِدُ وَالطِّحَالُ للحديث المتقدمِ.

الثَّالِثُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ: لَحْمُ الْخِنْزِيرِ، خصَّ الله تعالى الْخِنْزِيرَ بالذكرِ لأنَّ النصارى يستحلون أكله، فربما توهم متوهمٌ أنه حلالٌ في شرعهم، فنصَّ الله تعالى عليه تنبيهًا إلى أنه ما أحله لهم وإنما ذلك من جملة ما أحدثوه في دين الله تعالى.

وذكر الله تعالى لَحْمَ الْخِنْزِيرِ لأنه هو الذي يؤكل منه غالبًا، والمرادُ كلُ ما في الخنزير من الشحم والكبد والطحال وغيرها، فهو من باب ذكر البعض ويرادُ به الكل؛ قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ مُقْتَضٍ لِشَحْمِهِ بِإِجْمَاعٍ.

وَعِلَّةُ تَحْرِيمِ الْخِنْزِيرِ ما يشتمل عليه من المضارِّ الحسية والمعنوية، فإنَّ الأمراضَ التي تصيب الْخِنْزِيرَ يبلغ عددها أربعمائة وخمسين مرضًا، منها سبعة وخمسون مرضًا طفيليًا تنتقل منه إلى الإنسان، ويختص الخنزير بنقل سبعة وعشرين مرضًا وبائيًا، بعضها خطيرٌ بل وقاتل أيضًا، ومن أشهر هذه الأمراض فيروس أنفلونزا الخنازير، الذي انتشر بين عامي: (٢٠٠٩)- و(٢٠١٠م) وأصاب أعدادًا هائلة من الناس، حتى صنفته منظمة الصحة العالمية وباءًا عالميًا، وهو سليلُ فيروس الأنفلونزا الأسبانية الذي حصد ما بين عشرين إلى مائة مليون إنسان ما بين عامي (١٩١٨م) - و(١٩٢٠م).

وتنتقل تلك الفيروسات للبشر إذا حدث اتصال بين تلك الحيوانات المصابة والبشر، وانتشار مثل هذه الفيروسات من أظهر الأدلة على أن القرآن كلام الله تعالى، وما انتشرت هذه الفيروسات وتلك الأمراض إلا لما استحل الناس أكل كل مستخبث ومستقذر، بل وما تيقنوا ضرره، والله تعالى لا يحرم إلا ما فيه ضررٌ وإلا كلُ مستخبثٍ؛ فإن الشريعة أتت بجلب المصالح وتكميلها، ودرأ المفاسد وتقليلها.

ومن تلك الأمراض المشهورة التي يسببها أكل لحم الخنزير الدودة الشريطية والتي لَا تَقْتُلُهَا حَرَارَةُ النَّارِ عِنْدَ الطَّبْخِ، وإِذَا وَصَلَتْ إِلَى دَمِ آكِلِهِ عَاشَتْ فِي الدَّمِ فَأَحْدَثَتْ أَضْرَارًا عَظِيمَةً.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن المضارِّ المعنوية لأكل لحم الخنزير، أن الخنزير من أقذر الحيوانات وأخسها طباعًا، وأقلها غيرةً، وأشدها رغبة في الشهوات، ولما كانت المطعومات تؤثر في أجساد آكليها وأخلاقهم حَرَّمَ الله تعالى أَكْلَهُ عَلَى الْإِنْسَانِ لِئَلَّا يَتَصِفَ بِتِلْكَ الْصفاتِ الدنيئة.

﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ.....﴾.

الرَّابِعُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ: مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وهو كلُ مَا ذُبِحَ لغَيْرِ اللَّهِ، وَذُكِرَ عَلَيْهِ اسْمُ صَنَمٍ أَوْ طَاغُوتٍ، وَالْإِهْلَالُ رَفْعُ الصَّوْتِ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا اسْتَهَلَّ الْمَوْلُودُ وُرِّثَ». أي: صَرَخَ إِذَا وُلِدَ.

وَكَانُ المشركونَ يَقُولُونَ عِنْدَ الذَّبحِ: بِاسْمِ اللَّاتِ وَالْعُزَّى فَحَرَّمَ اللَّه تَعَالَى ذَبَائِحَهُم لذَلِكَ.

﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

الْخَامِسُ: الْمُنْخَنِقَةُ، وَهِيَ الَّتِي تَمُوتُ بِالْخَنْقِ قَصْدًا كما كَانُوا يَفْعَلُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قالَ قَتَادَةُ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَخْنُقُونَ الشَّاةَ، حَتَّى إِذَا مَاتَتْ أَكَلُوهَا.[1]

أَوْ بغيرِ قَصْدٍ؛ كالَّتِي تَخْتَنِقُ فِي وَثَاقِهَا، وَالَّتِي تَخْتَنِقُ بِإِدْخَالِ رَأْسِهَا فِي مَوْضِعٍ لَا تَقْدِرُ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْهُ فَتَخْتَنِقَ حَتَّى تَمُوتَ.

وَالسَّادِسُ: الْمَوْقُوذَةُ، وَهِيَ الَّتِي تُرْمَى أَوْ تُضْرَبُ بِحَجَرٍ أَوْ عَصًا حَتَّى تَمُوتَ مِنْ غَيْرِ تَذْكِيَةٍ، وَالْوَقْذُ شِدَّةُ الضَّرْبِ؛ قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَضْرِبُونَهَا بِالْعَصَى حَتَّى إِذَا مَاتَتْ أَكَلُوهَا.

السَّابِعُ: الْمُتَرَدِّيَةُ، وَهِيَ الَّتِي سَقَطَتْ مِنْ مِنْ مَكَانٍ عَالٍ أَوْ سَقَطَتْ فِي بِئْرٍ فماتتْ؛ ومنه قول النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا».[2]

---

١ - تفسير الطبري (٨/ ٥٦)

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ الطِّبِّ، بَابُ شُرْبِ السُّمِّ وَالدَّوَاءِ بِهِ وَبِمَا يُخَافُ مِنْهُ وَالخَبِيثِ، حديث رقم: ٥٧٧٨

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الثَّامِنُ: النَّطِيحَةُ، وَهِيَ فَعِيْلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ، أي: الْمَنْطُوحَةُ الَّتِي نَطَحَتْهَا بَهِيمَةٌ أُخْرَى حتى مَاتَتْ.

والعِلَّةُ فِي تَحْرِيمِ هذِهِ الأَصْنَافِ الأَرْبَعةِ احتباسُ الدَّمِ؛ فَإِنَّهَا مَاتَتْ وَلَمْ يَسِلْ دَمُهَا.

﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾.

التَّاسِعُ: مَا عَدَا عَلَيْهَا السَّبُعُ وهو كلُ مَا لَهُ نَابٌ وَيَعْدُو عَلَى الْإِنْسَانِ وَالدَّوَابِّ وَيَفْتَرِسُهَا؛ كالأَسَدِ، والنمرِ، والذِئْبِ، والكَلْبِ، وغيرها، إِذَا أَكَلَ بَعْضَهَا فَمَاتَتْ بِذَلِكَ، فَهِيَ حَرَامٌ بِالْإِجْمَاعِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ سَالَ مِنْهَا الدَّمُ.

قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا جَرَحَ السَّبُعُ شَيْئًا فَقَتَلَهُ وَأَكَلَ بَعْضَهُ أَكَلُوا مَا بَقِيَ، فَحَرَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

إلا ما أدركتموه بالذَّبْحِ، وَفِيهِ حَيَاةٌ مُسْتَقِرَّةٌ، مِنَ الْمُنْخَنِقَةِ وَالْمَوْقُوذَةِ وَالْمُتَرَدِّيَةِ وَالنَّطِيحَةِ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ فَكُلُوهُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِلَّا مَا ذَبَحْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ وَفِيهِ رُوحٌ، فَكُلُوهُ، فَهُوَ ذَكِيٌّ.

وَقَالَ عَلِيٌّ: إِذَا أَدْرَكْت ذَكَاةَ الْمَوْقُوذَةِ وَالْمُتَرَدِّيَةِ وَالنَّطِيحَةِ، وَهِيَ تُحَرِّكُ يَدًا أَوْ رِجْلًا فَكُلْهَا.

وَهَذَا مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ؛ أَنَّ الْمُذَكَّاةَ مَتَى تَحَرَّكَتْ بِحَرَكَةٍ تَدُلُّ عَلَى بَقَاءِ الْحَيَاةِ فِيهَا بَعْدَ الذَّبْحِ، فَهِيَ حَلَالٌ.

وَمَذْهَبُ مَالِكٍ: أَنَّهَا إِذَا كانت بِحَيْثُ لَا تُرْجَى حَيَاتُهَا لَوْ تُرِكَتْ بِلَا ذَكَاةٍ، لَا تَصِحُّ ذَكَاتُهَا.

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: سُئل مَالِكٌ عَنِ الشَّاةِ الَّتِي يَخْرِقُ جوفَها السَّبُعُ حَتَّى تَخْرُجَ أَمْعَاؤُهَا؟ فَقَالَ مَالِكٌ: لَا أَرَى أَنْ تُذَكِّي أَيَّ شَيْءٍ يُذَكَّى مِنْهَا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾.

الْعَاشِرُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾، وَالنُّصُبُ أَحْجَارٌ كَانُوا يَنْصِبُونَهَا حَوْلَ الْكَعْبَةِ، وَكَانَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نُصُبًا، يَذْبَحُونَ عَلَيْهَا الْقَرَابِينُ الَّتِي يَتَقَرَّبُونَ بِهَا لِلْأَصْنَامِ.

واختلف العلماء في النُّصُبِ، هل هو جمع أم مفردٌ؟

فقَالَ اللَّيْثُ: النُّصُبُ جَمْعُ النَّصْبَةِ.

وقيل: النُّصُبُ مفردٌ قَالَ الْأَعْشَى:

وَلَا النُّصُبُ الْمَنْصُوبُ لَا تُنْسِكَنَّهُ ***** لِعَاقِبَةٍ واللهَ رَبَّكَ فَاعْبُدَا

وَجَمْعُهُ أَنْصَابٌ قَالَ النَّابِغَةُ:

فلا لعمر الذي مسّحتُ كعبته ***** وما هريق على الأَنْصَابِ من جَسَدٍ

وحرَّمَ اللهُ تعالى مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ؛ لأَنَّهم ما كَانُوا يَذْبَحُونَ عِنْدَهَا إلا لِلْأَصْنَامِ.

وَيُطْلَقُ النُّصُبُ ويرادُ بِهِ الصَّنَمُ؛ كما في قوله تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [الْمَعَارِجِ: ٤٣]؛ أَيْ: كَأَنَّهُمْ فِي إِسْرَاعِهِمْ إِلَى صَنَمٍ يُهَرْوِلُونَ.

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾.

الْحَادِيَ عَشَرَ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ: الِاسْتِقْسَامُ بِالْأَزْلَامِ، وَالِاسْتِقْسَامُ: طَلَبُ القَسمِ مِنْ هَذِهِ الْأَزْلَامِ.

وَالْأَزْلَامُ: جمعُ زَلَمٍ، وَيُقَالُ زُلَمٌ، والزَّلَمُ: القِدْحُ لَا رِيشَ عَلَيْهِ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ فِي الجَاهِلِيَّةِ تَسْتَقْسِمُ بِهَا، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ قِدَاحٍ ثَلَاثَةٍ، عَلَى أَحَدِهَا مَكْتُوبٌ: أَفْعَلْ، وَعَلَى الثَّانِي: لَا تَفْعَلْ، وَالثَّالِثُ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَإِذا أمرتْ ائْتمرُوا لَهَا، وَإِذا نهتْ انتهوا.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وحرم الله تعالى الاستقسامَ بِالْأَزْلَامِ لأنَّهُ نوعٌ من القِمَارِ؛ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾. قَالَ: «سِهَامُ الْعَرَبِ وَكِعَابُ فَارِسٍ وَالرُّومِ كَانُوا يَتَقَامَرُونَ بِهَا».[1]

روى الطبراني في الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان، وابن أبي شيبة بسند صحيح، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّى الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ، ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ لَمْ يَسْكُنِ الدَّرَجَاتِ الْعُلَا، وَلَا أَقُولُ لَكُمُ الْجَنَّةَ: مَنْ تَكَهَّنَ، أَوِ اسْتَقْسَمَ، أَوْ رَدَّهُ مِنْ سَفَرٍ تَطَيُّرٌ».[2]

﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾.

أي: هَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِمَّا حَرَّمَ أَكْلَهُ، وَالِاسْتِقْسَامُ بِالْأَزْلَامِ، فِسْقٌ يَعْنِي: خُرُوجٌ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ، ومخالفةٌ صريحةٌ لشريعتِهِ، وهو خبرٌ يتضمنُ الوعيدَ والتهديدَ لمن تلبس بها أو بشيءٍ منها.

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾.

هذا إخبارٌ من الله تعالى للمؤمنين بتمكينهم، وشدةِ شوكتهم، وقوة دولتهم، بحيث لا يطمع أعداؤهم فيما كانوا يطمعون فيه قبل لك من اجْتِياحِهِمِ واسْتِئْصَالِ شَأْفَتِهِم، وإجبَارِهِم على تركِ دينهم والتخَلّي عَنْ مُعتَقَدِهِم؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي: أَنْ تَرْجِعُوا إِلَى دِينِهِمْ أَبَدًا.

وَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ الكفَّارَ قَد يَئِسُوا فِيهِ مِنَ الإِسْلَامِ يَوْمَ عَرَفَةَ، فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَذَلِكَ بَعْدَ دُخُولِ الْعَرَبِ فِي الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يُرَ إِلَّا المؤمنونَ.

---

١ - تفسير الطبري (٨/ ٧٤)

٢ - رواه الطبراني في الأوسط- حديث رقم: ٢٦٦٣، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى- بَابُ فَضْلِ الْعِلْمِ، حديث رقم: ٣٨٥، وشعب الإيمان- حديث رقم: ١٠٢٥٤، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ١٧٤)، بسند صحيح

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾.

أَيْ: فَلَا تَخَافُوا بَأسَهُم، فلا مطمعَ لهم فيكم، ولا بأس عليكم منهم، وَلَكِنْ خَافُوا رَبَّكُم إِنْ خَالَفْتُمْ أَمْرَهُ وَاجْتَرَأْتُمْ عَلَى مَعْصِيَتِهُ، أنْ يُنْزِلَ بِكُمْ بَأسَهُ، ويُصِيبَكُم عَذَابُهُ.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾.

ثم امتن الله تعالى عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بأعظمِ نعمةٍ، وأجلّ منحةٍ وهي نعمةُ إِكْمَالِ الدِّينِ، وإتمامِ الفضلِ فَلَا يَحْتَاجُ أهل هذهِ الملةِ إِلَى شيءٍ فِي دِينِهم؛ عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، أَنَّ رَجُلًا مِنَ اليَهُودِ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ المؤْمِنِينَ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا، لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ اليَهُودِ نَزَلَتْ، لاَتَّخَذْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ عِيدًا. قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، قَالَ عُمَرُ: «قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ، وَالمكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ».[١]

وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. أَيْ: أَكْمَلْتُ لَكُمْ شَرَائِعَ دِينِكُمْ.

ومما يدلُّ على كَمَالِ الدِّينِ، ما رواه البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ».[٢]

وَلم ينزلْ بعد هذه الآيةِ شيءٌ مِنَ الأحكامِ، فقد مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَهَا إِلَا إِحْدَى وَثَمَانِينَ لَيْلَةً؛ قَالَ السُّدِّيُّ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ يَوْمَ عَرَفَة، فَلَمْ يُنَزَّلْ بَعْدَهَا حَلَالٌ وَلَا حَرَامٌ.

وقوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، بِالْهِدَايَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَهَدْمِ مَنَارِ الْجَاهِلِيَّةِ.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابُ زِيَادَةِ الإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ، حديث رقم: ٤٥، ومسلم- كتاب التفسير، حديث رقم: ٣٠١٧

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ الصُّلْحِ، بَابُ إِذَا اصْطَلَحُوا عَلَى صُلْحِ جَوْرٍ فَالصُّلْحُ مَرْدُودٌ، حديث رقم: ٢٦٩٧، ومسلم- كِتَابُ الْأَقْضِيَةِ، بَابُ نَقْضِ الْأَحْكَامِ الْبَاطِلَةِ، وَرَدِّ مُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، حديث رقم: ١٧١٨

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

أَيْ: اخْتَرْتُهُ لَكُمْ مِنْ بَيْنِ الْأَدْيَانِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.[1]

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الِاضْطِرَارُ: إِفتِعَالٌ مِنَ الضَّرُورَةِ، أَيْ: أُلْجِئَ إِلَى الْوُقُوعِ فِي الضَّرُورَةِ.

وَالْمَخْمَصَةُ: الْمَجَاعَةُ الَّتِي تخمص فِيهَا الْبُطُونُ، وَالْخَمْصُ ضُمُورُ الْبَطْنِ؛ ومنه قولُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا».[2]

أي: ضَامِرَةَ البُطُونِ.

وَالتَّجَانُفُ: التَّمَايُلُ، وَالْجَنَفُ: الْمَيْلُ؛ ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا﴾. [الْبَقَرَة: ١٨٢]؛ أي: مَيلًا عَنِ الحَقّ.

يخبرُ اللهُ تَعَالَى الرَّحِيمُ بعبادِهِ أنَّ مَنِ أَلْجَأَتْهُ الضَّرُورَةُ إِلَى تَنَاوُلِ شَيْءٍ مِنْ تلكَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا تَعَالَى فِي هذهِ الآيَةِ مِنَ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَسَائِرِ الْمُحَرَّمَاتِ، وكان ذلك فِي مَجَاعَةٍ، أو فِي جُوعٍ، غيرَ مَائِلٍ إِلَى آكِلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ أَكْلَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وغَيْرَ مُتَعَمّدٍ لِمَعْصِيَةٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الْآيَةَ: ١٧٣].

قَالَ السُّدِّيُّ: غَيْرَ مُتَعَرِّضٍ لِإِثْمٍ: أَيْ يَبْتَغِي فِيهِ شَهْوَةً، أَوْ يَعْتَدِيَ فِي أَكْلِهِ.

وفي الكلامِ حذفُ اختصارٍ تقديرُهُ: فَأَكَلَهُ. ويكونُ مَعنَى الكَلَامِ: فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ إِلَى مَا حَرَّمْتُ عَلَيْهِ فَأَكَلَهُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

---

١ - سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: الآية/ ٨٥

٢ - رواه أحمد- حديث رقم: ٢٠٥، والترمذي- أَبْوَابُ الزُّهْدِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابٌ فِي التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، حديث رقم: ٢٣٤٤، وابن ماجه- كِتَابُ الزُّهْدِ، بَابُ التَّوَكُّلِ وَالْيَقِينِ، حديث رقم: ٤١٦٤، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بسند صحيح

www.alukah.net

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ لِمَنْ أَكَلَ مَا حَرَّمْتُ عَلَيْهِ أَكْلَهُ فِي مَجَاعَةٍ، غَيْرَ مُتَعَرِّضٍ لِإِثْمٍ، ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِ حيثُ أَبَاحَ لَهُ أَكْلَ الْمَيْتَةِ وَسَائِرِ الْمُحَرَّمَاتِ المذكورةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، حفظًا لنفسهِ مِنَ التَّلفِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٤

مناسبة الآية لما قبلها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنَ الْخَبَائِثِ الضَّارَّةِ، وَكَانَ أهلُ الجاهلية قد حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِم بَعْضَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الْأَنْعَامِ بِأَوْهَامٍ بَاطِلَةٍ; كَالْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، اقتضى ذلك بَيَان مَا يُحِلُّهُ اللهُ مِمَّا حَرَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِم.

سبب نزول الآية:

ورد في سبب نزول هذه الآية عدةُ آثار منها ما رواه الحاكم عَنْ أَبِي رَافِعٍ، قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَتْلِ الْكِلَابِ فَقَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أُحِلَّ لَنَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي أَمَرْتَ بِقَتْلِهَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾.[1]

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، وَزَيْدِ بْنِ الْمُهَلْهِلِ الطَّائِيَّيْنِ سَأَلَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ حَرَّمَ اللَّهُ الْمَيْتَةَ، فَمَاذَا يَحِلُّ لَنَا مِنْهَا؟ فَنَزَلَتْ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ يَعْنِي: الذَّبَائِحَ الْحَلَالَ الطَّيِّبَةَ لَهُمْ.[2]

وَعَنْ عِكْرِمَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ أَبَا رَافِعٍ فِي قَتْلِ الْكِلَابِ، فَقَتَلَ حَتَّى بَلَغَ الْعَوَالِي، فَدَخَلَ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ وَسَعْدُ بْنُ خَيْثَمَةَ وَعُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ، فَقَالُوا: مَاذَا أُحِلَّ لَنَا يَا

١ – رواه الحاكم– كِتَابُ التَّفْسِيرِ، تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، حديث رقم: ٣٢١٢، وصححه

٢ – تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ٣٢) وعزاه لابن أبي حاتم

رَسُولَ اللَّهِ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾.[1]

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ: لَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَتْلِ الْكِلَابِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَاذَا يَحِلُّ لَنَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾.[2]

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾.

يَعْنِي: يَسْأَلُكَ المؤمنون يَا مُحَمَّدُ صلى الله عليه وسلم مَا الَّذِي أُحِلَّ لَهُمْ أَكْلُهُ مِنَ الْمَطَاعِمِ؟ فَقُلْ لَهُمْ: أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ مِنْهَا، وهِيَ الْمُسْتَلَذَّاتُ، ويقابلها الْخَبَائِثُ؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾.[3]

وَيطلقُ الطَّيِّبُ عَلَى الْمُبَاحِ شَرْعًا؛ لِأَنَّ إِبَاحَةَ الشَّرْعِ الشَّيْءَ عَلَامَةٌ عَلَى حُسْنِهِ وَسَلَامَتِهِ مِنَ الْمَضَرَّةِ؛ ومنه قوله تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾.[4]

وَيطلقُ الطَّيِّبُ ويرادُ به الطَّاهِرُ؛ ومنه قوله تَعَالَى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. [الْمَائِدَةِ: ٦]؛ أي: طاهرًا.

والمرادُ هنا المعنى الأول وهو الْمُسْتَلَذُّ؛ لِأَنَّا لَوْ حَمَلْنَاهُ عَلَى الْحَلَالِ لَزِمَ التَّكْرَارُ، فيكون تَقْدِيرُ الْآيَةِ: قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الْحَلَالُ، فَوَجَبَ حَمْلُ الطَّيِّبَاتِ عَلَى الْمُسْتَلَذِّ الْمُشْتَهَى.

فيكون المعنى: أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ التي أَذِنَ لَكُمْ رَبُّكُمْ فِي أَكْلِهَا مِنَ الذَّبَائِحِ.

﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾.

أي: وَأُحِلَّ لَكُمْ أَيْضًا مَعَ ذَلِكَ صَيْدُ مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ حال كَونكم مُكَلِّبِينَ.

---

١ - تفسير الطبري (٨/ ١٠١)

٢ - تفسير الطبري (٨/ ١٠٢)

٣ - سُورَةُ الْأَعْرَافِ: الآية/ ١٥٧

٤ - سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ١٠٠

وَالْجَوَارِحُ قيل: هِي الْكَوَاسِبُ مِنَ الطَّيْرِ وَالسِّبَاعِ، وَاحِدُهَا جَارِحَةٌ، وسُمِّيَتْ جَوَارِحَ؛ لِأَنَّهَا كَوَاسِبُ مِنْ جَرَحَ وَاجْتَرَحَ إِذَا اكْتَسَبَ؛ ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الْأَنْعَامِ: ٦٠]، أَيْ: وَيَعْلَمُ مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ بِالنَّهَارِ.

وقيل: الْجَوَارِحُ هِي التي تَجْرَحُ فرائسها، ولا منافاة بين المعنيين.

وَالْمُكَلِّبَ هُوَ مُعَلِّمُ الْكِلَابِ والْجَوَارِحِ الصَّيدَ لِأَصْحَابِهَا، وَاشْتُقَّ هَذَا الِاسْمُ مِنَ الْكَلْبِ عَلَى سَبِيلِ التَّغْلِيبِ؛ لِأَنَّ التَّأْدِيبَ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ فِي الْكِلَابِ، وَلِأَنَّ الْغَالِبَ مِنْ صَيْدِهِمْ أَنْ يَكُونَ بِالْكِلَابِ.

قَالَ الْحَسَنُ: كُلُّ مَا عُلِّمَ فَصَادَ: مِنْ كَلْبٍ، أَوْ صَقْرٍ، أَوْ فَهِدٍ، أَوْ غَيْرِهِ.[1]

وَظَاهِرُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ﴾، أَنَّهُ خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، فأباحَ الجمهورُ صَيدَ الكَلْبِ الْمُعَلَمِ إِذَا كَانَ الْمُعَلِّمُ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، والصَّائِدُ مُسْلِمًا، وَفَرَّقَ مَالِكٌ: بَيْنَ صَيْدِهِ وَذَبِيحَتِهِ.

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾.

يعني: تُعَلِّمُونَ الْجَوَارِحَ، وَأَنَّثَ الضَّمِيرَ مُرَاعَاةً للفظها.

ولا يَحِلُّ الِاصْطِيَادَ بِالْجَوَارِحِ إِلَا إِذَا كَانَتِ الْجَوَارِحُ مُعَلَّمَةً، وعلامة كونها مُعَلَّمَةً أَنَّهُ إِذَا أُمِرَتِ ائْتَمَرَتْ، وَإِذَا زُجِرَتِ انْزَجَرَتْ.

وَقِيلَ: يَكْفِي أَنَّهَا إِذَا أُمِرَتْ أَطَاعَتْ، فَإِنَّ انْزِجَارَهَا إِذَا زُجِرَتْ لَا يحدثُ غَالِبًا.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾، إشارةٌ إِلَى بيانِ فَضْلِ الْعِلْمِ وَشَرَفِهِ؛ لأَنَّهُ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَعْرِضِ الامتنان.

---

١ - تفسير الطبري (٨/ ١٠٢)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾.

أَيْ: فَكُلُوا مِمَّا تَصِيدُهُ الْجَوَارِحُ لِأَجْلِكُمْ وَتُمْسِكُهُ عَلَيْكُمْ، ولم تَأْكُلْ مِنْهُ، فَإِنْ أَكَلَتْ مِنْهُ لَا يَحِلُّ لكم أَكْلُ مَا فَضُلَ عَنْهَا، لِأَنَّهُ سَيكُونُ مِثْلُ فَرِيسَةِ السَّبُعِ الْمُحَرَّمَةِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، فَمَتَى كَانَتِ الْجَوَارِحُ مُعَلَّمَةً وَأَمْسَكَتْ عَلَى صَاحِبِهَا، وَكَانَ قَدْ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عِنْدَ إِرْسَالِهَا حَلَّ الصَّيْدُ، وَإِنْ قَتَلَتْهُ بِالْإِجْمَاعِ.

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ المعَلَّمَ فَقَتَلَ فَكُلْ، وَإِذَا أَكَلَ فَلاَ تَأْكُلْ، فَإِنَّمَا أَمْسَكَهُ عَلَى نَفْسِهِ» قُلْتُ: أُرْسِلُ كَلْبِي فَأَجِدُ مَعَهُ كَلْبًا آخَرَ؟ قَالَ: «فَلاَ تَأْكُلْ، فَإِنَّمَا سَمَّيْتَ عَلَى كَلْبِكَ وَلَمْ تُسَمِّ عَلَى كَلْبٍ آخَرَ».[1]

وقيل: لَا يُعْتَبَرُ تَرْكُ الْأَكْلِ؛ لِمَا رَوَى أَبُو دَاوُد عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَيْدِ الْكَلْبِ: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ فَكُلْ وَإِنْ أَكَلَ مِنْهُ، وَكُلْ مَا رَدَّتْ عَلَيْكَ يَدَاكَ». وَلَا يصحُّ، لِأَنَّ الْعَادَةَ فِي الْمُعَلَّمِ تَرْكُ الْأَكْلِ، فَاعْتُبِرَ شَرْطًا، كَالِانْزِجَارِ إِذَا زُجِرَ، وَحَدِيثُ أَبِي ثَعْلَبَةَ منكرٌ، وهو مُعَارَضٌ بِحَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، الذي في الصحيحين.

وفرَّقَ بعض العلماءِ بَيْنَ أَكْلِ الْكَلْبِ، وَبَيْنَ أَكْلِ الصُّقُورِ وَنَحْوِهَا، أَمَّا أَكْلُ الْكَلْبِ فَيَحْرُمُ لِحَدِيثِ عَدِيِّ المتقدمِ، أَمَّا أَكْلُ الصُّقُورِ وَنَحْوِهَا فَلَا يَحْرُمُ؛ لِأَنَّهَا لَا تَقْبَلُ التَّعْلِيمَ إِلَّا بِالْأَكْلِ.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الذَّبَائِحِ وَالصَّيْدِ، بَابُ إِذَا وَجَدَ مَعَ الصَّيْدِ كَلْبًا آخَرَ، حديث رقم: ٥٤٨٦، ومسلم- كِتَابُ الصَّيْدِ وَالذَّبَائِحِ وَمَا يُؤْكَلُ مِنَ الْحَيَوَانِ، بَابُ الصَّيْدِ بِالْكِلَابِ الْمُعَلَّمَةِ، حديث رقم: ١٩٢٩

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

أَيْ: وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عِنْدَ إِرْسَالِ الْكَلْبِ وَنَحْوِهِ؛ لحديثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: إِنَّا قَوْمٌ نَتَصَيَّدُ بِهَذِهِ الكِلَابِ، فَقَالَ: «إِذَا أَرْسَلْتَ كِلَابَكَ المعَلَّمَةَ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ، فَكُلْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكَ».[1]

فَإِنْ تَرَكَ التَّسْمِيَةَ عَمْدًا أَوْ سَهْوًا، لَمْ يُبَحْ؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾؛ ولعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.[2]

وَأَمَّا قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عُفِيَ لِأُمَّتِي عَنْ الْخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ»، فإنه يَقْتَضِي نَفْيَ الْإِثْمِ، لَا جَعْلَ الشَّرْطِ الْمَعْدُومِ كَالْمَوْجُودِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الصَّيْدِ وَالذَّبِيحَةِ، أَنَّ الذَّبْحَ وَقَعَ فِي مَحِلِّهِ، فَجَازَ أَنْ يُتَسَامَحَ فِيهِ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أَيْ: وَاتَّقُوا اللهَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَفِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أحاط بكل شي علمًا وأحصى كلَ شيءٍ عَدَدًا، يُحَاسِبُ الْخَلَائِقَ في وقت واحدٍ كما يرزقهم جميعًا في وقت واحدٍ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ وَعِيدًا بِقربِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لوقوع الجزاءِ فيهِ.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الذَّبَائِحِ وَالصَّيْدِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّصَيُّدِ، حديث رقم: ٥٤٨٧، ومسلم- كِتَابُ الصَّيْدِ وَالذَّبَائِحِ وَمَا يُؤْكَلُ مِنَ الْحَيَوَانِ، بَابُ الصَّيْدِ بِالْكِلَابِ الْمُعَلَّمَةِ، حديث رقم: ١٩٢٩

٢ - سورة الأنعام: الآية/ ١٢١

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٥

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا أخبرَ اللهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْسَّابقَةِ أَنَّهُ أَحَلَّ الطَّيِّبَاتِ، أَعَادَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ذكرَ الطَّيِّبَاتِ على سَبيلِ الامْتِنَانِ، وَالْغَرَضُ مِنْ ذِكْرِهِ أَنَّهُ قَالَ: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي فبين أَنَّهُ كَمَا أَكْمَلَ لعِبَادِهِ الدِّينَ، وأَتَمَّ لَهُمُ النِّعْمَةَ فِي كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالدِّينِ، فَكَذَلِكَ أَتَمَّ النِّعْمَةَ فِي كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا، وَمِنْهَا أَنَّهُ أَحَلَّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾.

المرادُ بطَعَامِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ذَبَائِحُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، دُونَ الْخَبَائِثِ مِنْهَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلُوا مِنْ ذَبَائِحِ بَنِي تَغْلِبَ، وَتَزَوَّجُوا مِنْ نِسَائِهِمْ.[١]

وَعَنْ قَتَادَةَ: أَنَّ الْحَسَنَ، كَانَ لَا يَرَى بَأْسًا بِذَبَائِحِ نَصَارَى بَنِي تَغْلِبَ، وَكَانَ يَقُولُ: انْتَحَلُوا دِينًا فَذَاكَ دِينُهُمْ.[٢]

والمباح من طعام أهلِ الْكِتَابِ هو ما ذبحَ مما يحلُّ أكله للمسلمين، أما ما لا يحلُّ كالخنزير فقد تقدمَ حكمه، وأما ما مات بالصعق، أو الضرب أو غير ذلك فلا يحل، ولو حدث ذلك بيد مسلم.

وأما الطَّعَامُ الَّذِي لَا يحتاجُ إلى تَذْكِيَةٍ كَالْفَاكِهَةِ والحبوبِ، وما يعالجه الآدمي كَالخُبْزِ وَالزَّيْتِ فهو مباحٌ من الكتابي وغيره.

---

١ – تفسير الطبري (٨/ ١٣٢)

٢ – تفسير الطبري (٨/ ١٣٢)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وأمَّا الْمَجُوسُ فلَا تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ وَلَا تُنْكَحُ نِسَاؤُهُمْ، وَإِنْ أُخِذَتْ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ، خلافًا لمن أباح ذلك، وَالْمُشْرِكُونَ عَبَدَةُ الْأَوْثَانِ لَا تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ وَلَا تُنْكَحُ نِسَاؤُهُمْ بلا خِلَافٍ.

ويجب على المسلم أن يحتاط لدينه فإن أغلبهم لا يتورعون عن الميتة والنجاسات؛ لذلك روى البخاري ومسلم، عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّا بِأَرْضِ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، أَفَنَأْكُلُ فِي آنِيَتِهِمْ؟ وَبِأَرْضِ صَيْدٍ، أَصِيدُ بِقَوْسِي، وَبِكَلْبِي الَّذِي لَيْسَ بِمُعَلَّمٍ وَبِكَلْبِي المعَلَّمِ، فَمَا يَصْلُحُ لِي؟ قَالَ: «أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَإِنْ وَجَدْتُمْ غَيْرَهَا فَلاَ تَأْكُلُوا فِيهَا، وَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَاغْسِلُوهَا وَكُلُوا فِيهَا، وَمَا صِدْتَ بِقَوْسِكَ فَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ فَكُلْ، وَمَا صِدْتَ بِكَلْبِكَ المعَلَّمِ، فَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ فَكُلْ، وَمَا صِدْتَ بِكَلْبِكَ غَيْرِ مُعَلَّمٍ فَأَدْرَكْتَ ذَكَاتَهُ فَكُلْ».[١]

﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾.

أَيْ: وَلَكُمْ أَنْ تُطْعِمُوهُمْ مِنْ ذَبَائِحِكُمْ كَمَا أَكَلْتُمْ مِنْ ذَبَائِحِهِمْ، مِنْ بَابِ الْمُكَافَأَةِ وَالْمُجَازَاةِ.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

تقدم أن الإحصانَ يطلقُ في كتابِ الله تعالى ويرادُ به معانٍ أربعةٍ منها العفةُ، فَالْمُحْصَنَاتُ هنا يعني الْعَفَائِفَ، فيكون المعنى: وَأَحِلُّ لَكُمْ نِكَاحُ الْحَرَائِرِ الْعَفَائِفِ مِنَ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

والمرادُ بالْمُحْصَنَاتِ هُنَا أيضًا الْعَفَائِفُ الْحَرَائِرُ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾: الْعَفِيفَاتُ الْعَاقِلَاتُ.

أي: وَأَحِلُّ لَكُمْ نِكَاحُ الْحَرَائِرِ الْعَفَائِفِ مِنَ نِسَاءِ أهلِ الْكِتَابِ؛ وإنما قلنا الْحَرَائِر؛ لِأَنَّ اللَّهَ تعالى نهى مَنْ كانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْكِحَ الْحَرَائِرَ الْمُؤْمِنَاتِ، عَنْ نِكَاحِ الْإِمَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ لَمْ

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الذَّبَائِحِ وَالصَّيْدِ، بَابُ صَيْدِ القَوْسِ، حديث رقم: ٥٤٧٨، ومسلم- كِتَابُ الصَّيْدِ وَالذَّبَائِحِ وَمَا يُؤْكَلُ مِنَ الْحَيَوَانِ، بَابُ الصَّيْدِ بِالْكِلَابِ الْمُعَلَّمَةِ، حديث رقم: ١٩٣٠

يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، فكان نِكَاحُ الْإِمَاءِ الكتابياتِ أولى بالتركِ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾: الْحَرَائِرُ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: يَذْهَبُ إِلَى أَنَّهُ لَا يَحِلُّ نِكَاحُ إِمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢١]، ولا نسخ فيهما، فإنَّ هذه الآية في نكاح نساء أهل الكتاب، وآية البقرة في نكاح الوثنياتِ.

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَا يَرَى التَّزْوِيجَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ، وَيَقُولُ: لَا أَعْلَمَ شِرْكًا أَعْظَمَ مِنْ أَنْ تَقُولَ: إِنَّ رَبَّهَا عِيسَى، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾.

والراجح قول جمهور العلماء وإن كانت النصرانية تقُولَ: إِنَّ رَبَّهَا عِيسَى؛ لأن المراد الْمُشْرِكَاتِ الوثنيات كما قدمنا، وقد فَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى بين أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[١].

﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

الْأَجْرُ هُو الْعِوَضُ الَّذِي يَبْذُلُهُ الزَّوْجُ لِلْمَرْأَةِ لِلِاسْتِمْتَاعِ بِهَا، وَهُوَ الْمَهْرُ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾. يَعْنِي مُهُورَهُنَّ.

﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾.

وَكَمَا شَرَطَ اللَّهُ تَعَالَى العفافَ نساء أهل الكتاب، شَرَطَ كَذَلِكَ العفةَ فِي الرِّجَالِ فيجبُ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ أَيْضًا عَفِيفًا عن الزنَا.

١ - سُورَةُ الْبَيِّنَةُ: الآية/ ١

﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾.

وكما نهى الله تعالى عن السفاح وهو الإعلان بالزنا، نهى الله تعالى أن يتخذ الرجل صديقةً يُخَادِنُهَا عَلَى الْفَاحِشَةِ، والمخادنةُ أن يكون الزانيان قد وقفَ كل واحدٍ نفسه على صاحبه.

قَالَ الشَّعْبِيُّ: الزِّنَا ضَرْبَانِ: السِّفَاحُ وَهُوَ الزِّنَا عَلَى سَبِيلِ الْإِعْلَانِ، وَاتِّخَاذُ الْخِدْنِ وَهُوَ الزِّنَا فِي السِّرِّ.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

أي: وَمَنْ يَجْحَدْ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِالتَّصْدِيقِ بِهِ مِنْ أركانِ الْإِيمَانِ، فَقَدْ بَطَلَ ثَوَابُ عَمَلِهِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْهَالِكِينَ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٦

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ أَوْ بِذَاتِ الجَيْشِ انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي، فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى التِمَاسِهِ، وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، فَقَالُوا: أَلاَ تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ؟ أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسِ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ، فَقَالَ: حَبَسْتِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسَ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ وَجَعَلَ يَطْعُنُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي، فَلاَ يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى فَخِذِي، «فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ فَتَيَمَّمُوا»، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الحُضَيْرِ: مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: فَبَعَثْنَا البَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ، فَأَصَبْنَا العِقْدَ تَحْتَهُ.[1]

وفي رواية: ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَيْقَظَ وَحَضَرَتِ الصُّبْحُ، فَالْتُمِسَ المَاءُ فَلَمْ يُوجَدْ فَنَزَلَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾.[2]

---

١ – رواه البخاري– كِتَابُ التَّيَمُّمِ، وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾، حديث رقم: ٣٣٤، ومسلم– كِتَابُ الْحَيْضِ، بَابُ التَّيَمُّمِ، حديث رقم: ٣٦٧

٢ – رواه البخاري– سورة المائدة، باب قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، حديث رقم: ٤٦٠٨

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولا منافاة بين القولِ بأنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي غَزْوَةِ الْمُرَيْسِيعِ، وأنَّ سُورَةَ الْمَائِدَةِ هي آخرُ سُورِ القرآنِ نزولًا، لأنَّ الحكمَ لأغلبِ السُّورةِ.

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا: أَنَّ اللهَ تَعَالَى افْتَتَحَ السورةَ بِالْأَمْرِ بِالإِيفَاءِ بالْعُقُودِ، وَمِنْهَا أَحْكَامُ الشَّرْعِ، وَلَمَّا ذَكَرَ حُكْمَ الشَّرْعِ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَنَاكِحِ تَحْلِيلًا وَتَحْرِيمًا، نَاسَبَ أن يبينَ أَحْكَامَ بِالطَّهَارَةِ؛ لأنها آكَدُ شُرُوطِ الصَّلَاةِ، التي هي أَفْضَلَ الطَّاعَاتِ بعدَ الإيمانِ، وأعظم أركان الإسلام العملية، وَلَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى إِتْمَامَ النِّعْمَةِ، ذَكَرَ هُنَا الرُّخْصَةَ فِي التَّيَمُّمِ عندَ فقدِ الماءِ فكانَ ذلك مِنْ جملةِ إِتْمَامِ النِّعْمَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾.

أَيْ: إِذَا أَرَدْتُمُ الْقِيَامَ إِلَى فِعْلِ الصَّلَاةِ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. [النَّحْلِ: ٩٨] أَيْ: إِذَا أَرَدْتَ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ.

وهذا القَولُ أولَى مِنْ قَولِ مَنْ قَيَّدَ القيامَ بالحدثِ فقَالَ: مَعْنَاهُ وَأَنْتُمْ مُحْدِثون.

وَأولَى مِنْ قَولِ مَنْ فَسَّرَ القيامَ بالقيامِ مِنَ النَّوْمِ؛ لأنَّ الْقِيَامَ إِلَى فِعْلِ الصَّلَاةِ أَعَمُّ من ذلك.

وَقِيلَ: كَانَ الْأَمْرُ بِالْوُضُوءِ لِكُلِّ صَلَاةٍ وَاجِبًا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ نُسِخَ، واستدلوا بما رواه مُسْلِمٌ بسنده عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلَّى الصَّلَوَاتِ يَوْمَ الْفَتْحِ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ، وَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ» فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ صَنَعْتَ الْيَوْمَ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ تَصْنَعُهُ، قَالَ: «عَمْدًا صَنَعْتُهُ يَا عُمَرُ».[1]

واستدلوا أيضًا بما رواه أحمد وأبو داود بسند حسن، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ حَبَّانَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: قُلْتُ: أَرَأَيْتَ تَوَضُّؤَ ابْنِ عُمَرَ لِكُلِّ صَلَاةٍ طَاهِرًا، وَغَيْرَ طَاهِرٍ، عَمَّ ذَاكَ؟ فَقَالَ: حَدَّثَتْنِيهِ أَسْمَاءُ بِنْتُ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَنْظَلَةَ بْنِ أَبِي عَامِرٍ،

١ - رواه مسلم- كِتَابُ الطَّهَارَةِ، بَابُ جَوَازِ الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ، حديث رقم: ٢٧

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حَدَّثَهَا «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِرَ بِالْوُضُوءِ لِكُلِّ صَلَاةٍ، طَاهِرًا وَغَيْرَ طَاهِرٍ، فَلَمَّا شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، أُمِرَ بِالسِّوَاكِ لِكُلِّ صَلَاةٍ»، فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَرَى أَنَّ بِهِ قُوَّةً، فَكَانَ لَا يَدَعُ الْوُضُوءَ لِكُلِّ صَلَاةٍ.[1]

وقيل: إِنَّمَا كَانَ هَذَا مِنْ خَصَائِصِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لما رواه البخاري عَنْ عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ» قُلْتُ: كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ: يُجْزِئُ أَحَدَنَا الوُضُوءُ مَا لَمْ يُحْدِثْ.[2]

وفي رواية قَالَ: «وَقَدْ كُنَّا نُصَلِّي الصَّلَوَاتِ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ».[3]

وَعَنْ أَنَسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَوَضَّأُ لِكُلِّ صَلاَةٍ طَاهِرًا أَوْ غَيْرَ طَاهِرٍ، قَالَ: قُلْتُ لأَنَسٍ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ أَنْتُمْ؟ قَالَ: كُنَّا نَتَوَضَّأُ وُضُوءًا وَاحِدًا.[4]

والراجح أنَّ الأمرَ بِالْوُضُوءِ عامٌّ لكلِ الْقِيَامِ إِلَى الصَّلَاةِ، ويكونُ واجبًا فِي حَقِّ الْمُحْدِثِ، ومستحبًا فِي حَقِّ الْمُتطَهِّرِ.

١ – رواه أحمد– حديث رقم: ٢١٩٦٠، وأبو داود– كِتَاب الطَّهَارَةِ، بَابُ السِّوَاكِ، حديث رقم: ٤٨، بسند حسن

٢ – رواه البخاري– كتاب الوضوء، بَاب: الْوُضُوءِ مِنْ غَيْرِ حَدَثٍ، حديث رقم: ٢١١

٣ – رواه أحمد– حديث رقم: ١٣٧٣٤، والنسائي– كِتَابُ الطَّهَارَةِ، الْوُضُوءُ لِكُلِّ صَلَاةٍ، حديث رقم: ١٣١، بسند صحيح

٤ – رواه الترمذي– أَبْوَابُ الطَّهَارَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ الوُضُوءِ لِكُلِّ صَلَاةٍ، حديث رقم: ٦٠، بسند ضعيف

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ.............﴾.

تقدم أن معنى قَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾، أَيْ: إِذَا أَرَدْتُمُ الْقِيَامَ إِلَى فِعْلِ الصَّلَاةِ، وقد استدل العلماء بهذا على وجوب النية لأنَّه لا يتصور عمل بلا نية؛ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ».[1]

قَالَ الْبُخَارِيُّ: فَدَخَلَ فِيهِ الإِيمَانُ، وَالوُضُوءُ، وَالصَّلاَةُ، وَالزَّكَاةُ، وَالحَجُّ، وَالصَّوْمُ، وَالأَحْكَامُ.

وَقَالَ ابنُ مَهْدِيّ أيضًا: حديث النية يدخل في ثلاثين بابًا من العلم.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يدخل في سبعين بابًا.[2]

وفي الآية دليلٌ على أن النيةَ شرطٌ فِي صِحَّةِ الْفِعْلِ، وليست ركنًا؛ لأنها ذكرت قبل البدء بأعمالِ الوضوءِ.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾.

الْوَجْهُ فِي اللُّغَةِ مَأْخُوذٌ مِنَ الْمُوَاجَهَةِ، وَحَدُّهُ مِنْ مَنْبَتِ شَعْرِ الرَّأْسِ الْمُعْتَادِ غَالِبًا إِلَى أَسْفَلِ الذَّقْنِ طُولًا، وَمِنْ الْأُذُنِ إِلَى الْأُذُنِ عَرْضًا.

وَالْمُلْتَحِي إِذَا كَانَ شَعْرُ اللِّحْيَةِ خَفِيفًا بِحَيْثُ تظهرُ مِنْهُ الْبَشَرَةُ فَلَا بُدَّ مِنْ غسلِ الْبَشَرَةِ، وَإِنْ كَانَ شَعْرُ اللِّحْيَةِ كَثِيفًا فَقَدِ فَوَجَبَ غَسْلُ ظَاهِرِهَا.

وَفِي الْمُسْتَرْسِلِ مِنَ اللِّحْيَةِ عَنْ مَحَلِّ الْفَرْضِ قَوْلَانِ، أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يَجِبُ إِفَاضَةُ الْمَاءِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ تَقَعُ بِهِ الْمُوَاجَهَةُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ مِنَ الْوَجْهِ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ الْعَرَبِ فِي الْغُلَامِ إِذَا نَبَتَتْ لِحْيَتُهُ: طَلَعَ وَجْهُهُ.

والثاني: لا يجبُ غَسْلُه؛ لأنَّهُ شعرٌ نازلٌ عن محلِ الفرضِ، أشبهَ الذؤابةَ في الرأسِ.

---

١ - رواه البخاري- كتاب بَدْءُ الْوَحْيِ، حديث رقم: ١، ومسلم- كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، حديث رقم: ١٩٠٧

٢ - الأشباه والنظائر السبكي (١ / ٦٥)

وَمِنَ الْوَجْهِ الفَمُ وَالأَنْفُ لِدُخُولِهِمَا فِي حَدِّهِ، فتجبُ المضمضةُ والاستنثارُ على الصحيحِ؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا تَوَضَّأْتَ فَمَضْمِضْ».[١]

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا تَوَضَّأْتَ فَاسْتَنْثِرْ، وَإِذَا اسْتَجْمَرْتَ فَأَوْتِرْ».[٢]

﴿وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾.

حرفُ (إِلَى) يفيدُ انتهاءِ الْغَايَةِ، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي دُخُولِ الْمَرَافِقِ فِي غَسْلِ اليدين فِي الْوُضُوءِ على قولين: فَقِيلَ: نَعَمْ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ؛ لِأَنَّ مَا بَعْدَ (إِلَى) إِذَا كَانَ مِنْ نَوْعِ ما قبلها دَخَلَ فيهِ، وَ: (إِلَى) تُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى (مَعَ)؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾.[٣] [النساء: ٢] فيكون التقديرُ: وَاغْسِلُوا أَيْدِيَكُمْ مَعَ الْمَرَافِقِ.

وَقِيلَ: لَا يَدْخُلُ الْمِرْفَقَانِ فِي الْغَسْلِ.

والراجح أَنَّ الْمَرَافِقَ تَدْخُلُ فِي الْغَسْلِ لما ورد عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا تَوَضَّأَ أَدَارَ الْمَاءَ عَلَى مِرْفَقَيْهِ».[٤]

﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ.....﴾.

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي المرادِ بقوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾، على قولين:

الأول: أَنَّ المراد بمَسْحِ الرَّأْسِ فِي الْوُضُوءِ تَعْمِيمُهُ وقالوا: (الْبَاءُ) في قوله: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾. لِلْإِلْصَاقِ؛ كما في قوله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾، وهو الصحيح.

---

١ – رواه أبو داود– كتاب الطهارة، باب في الاستنثار، حديث رقم: ١٢٥، وصححه الألباني

٢ – رواه النسائي– كِتَابُ الطَّهَارَةِ، الْأَمْرُ بِالِاسْتِنْثَارِ، حديث رقم: ٨٩، وابن حبان– كِتَابُ الطَّهَارَةِ، بَابُ الِاسْتِطَابَةِ، ذِكْرُ الْأَمْرِ لِمَنْ أَرَادَ الِاسْتِجْمَارَ أَنْ يَجْعَلَهُ وِتْرًا، حديث رقم: ١٤٣٦، والطبراني في الكبير– حديث رقم: ٦٣٠٨، بسند صحيح

٣ – سورة النساء: الآية/ ٢

٤ – رواه البيهقي– كِتَابُ الطَّهَارَةِ، جُمَّاعُ أَبْوَابِ سُنَّةُ الْوُضُوءِ وَفَرْضِهِ، بَابُ التَّكْرَارِ فِي غَسْلِ الْيَدَيْنِ، حديث رقم: ٢٥٦، والدارقطني– كِتَابُ الطَّهَارَةِ، بَابُ وُضُوءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم: ٢٧٢

والثاني: أنَّ المرادَ مَسْحُ بعضِ الرَّأْسِ، وقالوا (الْبَاءُ) هنا لِلتَّبْعِيضِ، وفيه نظر.

وَهَذَا مِنَ الْمُجْمَلِ الذي بَيَّنَتْهُ السُّنَّةُ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: «أَتَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْرَجْنَا لَهُ مَاءً فِي تَوْرٍ مِنْ صُفْرٍ فَتَوَضَّأَ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا، وَيَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ، وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ، فَأَقْبَلَ بِهِ وَأَدْبَرَ، وَغَسَلَ رِجْلَيْهِ».[1]

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى المَازِنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَجُلًا، قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ، وَهُوَ جَدُّ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُرِيَنِي، كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَضَّأُ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ: "نَعَمْ، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ فَغَسَلَ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ مَضْمَضَ وَاسْتَنْثَرَ ثَلاَثًا، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلاَثًا، ثُمَّ غَسَلَ يَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ إِلَى المِرْفَقَيْنِ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ بِيَدَيْهِ، فَأَقْبَلَ بِهِمَا وَأَدْبَرَ، بَدَأَ بِمُقَدَّمِ رَأْسِهِ حَتَّى ذَهَبَ بِهِمَا إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ رَدَّهُمَا إِلَى المَكَانِ الَّذِي بَدَأَ مِنْهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ".[2]

وَعَنْ عَبْدِ خَيْرٍ، قَالَ: "رَأَيْتُ عَلِيًّا أَتَى بِكُرْسِيٍّ فَقَعَدَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَتَى بِتَوْرٍ مِنْ مَاءٍ، فَغَسَلَ يَدَيْهِ ثَلَاثًا، وَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ بِمَاءٍ وَاحِدٍ ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا، وَذِرَاعَيْهِ ثَلَاثًا ثَلَاثًا، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي التَّوْرِ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ كُلَّهُ، فَلَا أَدْرِي أَمَرَّ بِيَدَيْهِ مِنْ قِبَلِ الْقَفَا، أَوْ مِنْ قِبَلِ الْمُقَدَّمِ ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ ثَلَاثًا ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى طَهُورِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَهَذَا طَهُورُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".[3]

وعَنْ مُعَاوِيَةَ: «أَنَّهُ أَرَاهُمْ وُضُوءَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا بَلَغَ مَسْحَ رَأْسِهِ، وَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى مُقَدَّمِ رَأْسِهِ ثُمَّ مَرَّ بِهِمَا حَتَّى بَلَغَ الْقَفَا، ثُمَّ رَدَّهُمَا حَتَّى بَلَغَ الْمَكَانَ الَّذِي مِنْهُ بَدَأَ».[4]

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الوُضُوءِ، بَابُ الغُسْلِ وَالوُضُوءِ فِي المِخْضَبِ وَالقَدَحِ وَالخَشَبِ وَالحِجَارَةِ، حديث رقم: ١٩٧

٢ - رواه البخاري- كتاب الوضوء، بَاب: مَسْحِ الرَّأْسِ كُلِّهِ، حديث رقم: ١٨٣، ومسلم- كتاب الطهارة، باب: في وضوء النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم: ٢٣٥

٣ - رواه البزار- حديث رقم: ٧٩٣

٤ - رواه الطبراني في الكبير- حديث رقم: ٨٨٧

www.alukah.net

وَاخْتلَفَ الذين قالوا بجوازِ مَسْحِ بعضِ الرَّأْسِ فِي الْقَدْرِ الْمُجْزِئِ، فقالَ الشَّافِعِيُّ: لَا يَتَقَدَّرُ ذَلِكَ بحدٍّ، أَقَلُّ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْمَسْحِ كَافٍ. وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: الرُّبُعُ، وَقِيلَ: الثُّلُثُ، وَقِيلَ: الثُّلُثَانِ.

ولم يرِدْ عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حديثٍ صحيحٍ أنَّه مَسَحَ بعضَ رأسِهِ وهو حاسرٌ، وإنما وردَ أنه مَسَحَ بِنَاصِيَتِهِ وَعَلَى الْعِمَامَةِ؛ فعَنْ الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ، قَالَ: تَخَلَّفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَخَلَّفْتُ مَعَهُ فَلَمَّا قَضَى حَاجَتَهُ قَالَ: «أَمَعَكَ مَاءٌ؟» فَأَتَيْتُهُ بِمِطْهَرَةٍ، «فَغَسَلَ كَفَّيْهِ وَوَجْهَهُ، ثُمَّ ذَهَبَ يَحْسِرُ عَنْ ذِرَاعَيْهِ فَضَاقَ كُمُّ الْجُبَّةِ، فَأَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ تَحْتِ الْجُبَّةِ، وَأَلْقَى الْجُبَّةَ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، وَغَسَلَ ذِرَاعَيْهِ، وَمَسَحَ بِنَاصِيَتِهِ وَعَلَى الْعِمَامَةِ وَعَلَى خُفَّيْهِ».[1]

فإِنَّمَا اقْتَصَرَ عَلَى مَسْحِ النَّاصِيَةِ لِأَنَّهُ كَمَّلَ مَسْحَ بَقِيَّةِ الرَّأْسِ عَلَى الْعِمَامَةِ.

﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ.....﴾.

قولُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾، وردَ في لفظِ: (أَرْجُلَكُمْ)، قراءتانِ متواترتانِ، الأولى: قَرَاءَةُ نَافِعٍ، وَابْنِ عَامِرٍ، وَالْكِسَائِيِّ، وَحَفْصٍ عَنْ عَاصِمٍ، وَأَبِي جَعْفَرٍ، وَيَعْقُوبَ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾، وتقدير الكلام: وَاغْسِلُوا أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ.

والثانية: قَرَاءَةُ ابْنِ كَثِيرٍ، وَأَبِي عَمْرٍو، وَحَمْزَةَ، وَشُعْبَةَ عَنْ عَاصِمٍ، وَخَلَفٍ، بِالْخَفْضِ عَلَى الْمُجَاوَرَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِم: (جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ).

قال ابن الجزري:

أَرْجُلِكُمْ نَصْبُ ظُبيً عَنْ كَمْ أَضَا ***** رُدْ..............................

وكلُ واحدةٍ من القِرَاءَتَينِ تفيدُ وُجُوبِ غَسْلِ الرِّجْلَيْنِ.

---

١ – رواه مسلم– كِتَابُ الطَّهَارَةِ، بَابُ الْمَسْحِ عَلَى النَّاصِيَةِ وَالْعِمَامَةِ، حديث رقم: ٢٧٤

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أما قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ بِالنَّصْبِ فدلالتها على الْغَسْلِ ظَاهِرَةٌ، وأمَّا قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ بالْخَفْضِ، فَالمرادُ بالْمَسْحِ هُوَ الْغَسْلُ، بخلاف من حمله على ظاهره، فَإِنَّ لَفْظَ الْمَسْحِ لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ، يُطْلَقُ عَلَى الْمَسْحِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْغَسْلِ؛ قَالَ أَبُو زَيْدٍ الْأَنْصَارِيّ: الْمَسْحُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ يَكُونُ غَسْلًا وَيَكُونُ مَسْحًا، وَمِنْهُ يُقَالُ: لِلرَّجُلِ إِذَا تَوَضَّأَ فَغَسَلَ أَعْضَاءَهُ: قَدْ تَمَسَّحَ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ: هِيَ مَحْمُولَةٌ عَلَى مَسْحِ الْقَدَمَيْنِ إِذَا كَانَ عَلَيْهِمَا الْخُفَّانِ.

ومما يدلُّ عَلَى أنَّ الْوَاجِبَ عَلَى القِرَاءَتَينِ غَسْلُ الرِّجْلَيْنِ، ما ثبتَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: تَخَلَّفَ عَنَّا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفْرَةٍ سَافَرْنَاهَا فَأَدْرَكَنَا – وَقَدْ أَرْهَقَتْنَا الصَّلاَةُ – وَنَحْنُ نَتَوَضَّأُ، فَجَعَلْنَا نَمْسَحُ عَلَى أَرْجُلِنَا، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا.[١]

وَلَوْ كَانَ فَرْض الرِّجْلَيْنِ الْمَسْحُ، لَمَا توعّد النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى تَرْكِ غَسْلِ الرِّجْلَيْنِ؛ لِأَنَّ الْمَسْحَ لَا يَسْتَوْعِبُ جَمِيعَ الرِّجْلِ.

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى المازِنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَجُلًا، قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ، وَهُوَ جَدُّ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُرِيَنِي، كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَضَّأُ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ: "نَعَمْ، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ فَغَسَلَ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ مَضْمَضَ وَاسْتَنْثَرَ ثَلاثًا، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلاَثًا، ثُمَّ غَسَلَ يَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ إِلَى المِرْفَقَيْنِ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ بِيَدَيْهِ، فَأَقْبَلَ بِهِمَا وَأَدْبَرَ، بَدَأَ بِمُقَدَّمِ رَأْسِهِ حَتَّى ذَهَبَ بِهِمَا إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ رَدَّهُمَا إِلَى المَكَانِ الَّذِي بَدَأَ مِنْهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ".[٢]

وَعَنْ أَبِي حَيَّةَ وَهُوَ ابْنُ قَيْسٍ، قَالَ: رَأَيْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «تَوَضَّأَ فَغَسَلَ كَفَّيْهِ حَتَّى أَنْقَاهُمَا، ثُمَّ تَمَضْمَضَ ثَلَاثًا وَاسْتَنْشَقَ ثَلَاثًا، وَغَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا، وَغَسَلَ ذِرَاعَيْهِ ثَلَاثًا ثَلَاثًا، ثُمَّ مَسَحَ

---

١ – رواه البخاري– كتاب الوضوء، بَاب: غَسْلِ الرِّجْلَيْنِ، وَلَا يَمْسَحُ عَلَى الْقَدَمَيْنِ، حديث رقم: ١٦١، ومسلم– كِتَابُ الطَّهَارَةِ، بَابُ وُجُوبِ غَسْلِ الرِّجْلَيْنِ بِكَمَالِهِمَا، حديث رقم: ٢٤١

٢ – رواه البخاري– كتاب الوضوء، بَاب: مَسْحِ الرَّأْسِ كُلِّهِ، حديث رقم: ١٨٣، ومسلم– كتاب الطهارة، باب: في وضوء النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم: ٢٣٥

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بِرَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَلَ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، ثُمَّ قَامَ فَأَخَذَ فَضْلَ طَهُورِهِ فَشَرِبَ وَهُوَ قَائِمٌ». ثُمَّ قَالَ: «أَحْبَبْتُ أَنْ أُرِيَكُمْ كَيْفَ طُهُورُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».[1]

وأما ما ورد عن بعض السلف من جواز المسح على القدمين لهذه الآية فالعبرة بالمرفوع من قول رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفعلِه.

﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ.....﴾.

تَقدمَ أنَّ الإمامَ الشَّافِعِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: هذه الآيةُ مَحْمُولَةٌ عَلَى مَسْحِ الْقَدَمَيْنِ إِذَا كَانَ عَلَيْهِمَا الْخُفَّانِ. وَقَدْ ثَبَتَ الْمَسْحُ عَلَى الْخُفَّيْنِ قَبلَ نزول هذه الآية بالسُّنَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلًا وَفِعْلًا؛ فعَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُنَا، أَنْ لَا نَنْزِعَ خِفَافَنَا، ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، إِلَّا مِنْ جَنَابَةٍ، لَكِنْ مِنْ غَائِطٍ، وَبَوْلٍ، وَنَوْمٍ».[2]

وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلَّى الصَّلَوَاتِ يَوْمَ الْفَتْحِ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ، وَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ» فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ صَنَعْتَ الْيَوْمَ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ تَصْنَعُهُ، قَالَ: «عَمْدًا صَنَعْتُهُ يَا عُمَرُ».[3]

عَنْ مُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَقَالَ: «يَا مُغِيرَةُ خُذِ الإِدَاوَةَ»، فَأَخَذْتُهَا، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تَوَارَى عَنِّي،

---

١ – رواه أحمد– حديث رقم: ١٠٤٦، والترمذي– أَبْوَابُ الطَّهَارَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابٌ فِي وُضُوءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ كَانَ، حديث رقم: ٤٨، والنسائي– كِتَابُ الطَّهَارَةِ، عَدَدُ غَسْلِ الْيَدَيْنِ، حديث رقم: ٩٦، بسند صحيح

٢ – رواه أحمد– حديث رقم: ١٨٠٩١، والترمذي– أَبْوَابُ الطَّهَارَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ المَسْحِ عَلَى الخُفَّيْنِ لِلْمُسَافِرِ وَالمُقِيمِ، حديث رقم: ٩٦، والنسائي– كِتَابُ الطَّهَارَةِ، بَابُ التَّوْقِيتِ فِي الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ لِلْمُسَافِرِ، حديث رقم: ١٢٦، وابن ماجه– كِتَابُ الطَّهَارَةِ وَسُنَنِهَا، بَابُ الْوُضُوءِ مِنَ النَّوْمِ، حديث رقم: ٤٧٨، بسند حسن

٣ – رواه مسلم– كِتَابُ الطَّهَارَةِ، بَابُ جَوَازِ الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ، حديث رقم: ٢٧٧

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فَقَضَى حَاجَتَهُ، وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ شَأْمِيَّةٌ، فَذَهَبَ لِيُخْرِجَ يَدَهُ مِنْ كُمِّهَا فَضَاقَتْ، فَأَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ أَسْفَلِهَا، فَصَبَبْتُ عَلَيْهِ، فَتَوَضَّأَ وُضُوءَهُ لِلصَّلاَةِ، وَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ، ثُمَّ صَلَّى.[1]

وَعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى الْجَوْرَبَيْنِ وَالنَّعْلَيْنِ».[2]

وقد توهم قومٌ أنَّ الْمَسْحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ كان رُخْصَةً ثم نُسِخَ بقولِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾، فعَنْ هَمَّامِ بْنِ الحَارِثِ، قَالَ: بَالَ جَرِيرٌ، ثُمَّ تَوَضَّأَ، وَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ، فَقِيلَ: تَفْعَلُ هَذَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَالَ، ثُمَّ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ». قَالَ الْأَعْمَشُ: قَالَ إِبْرَاهِيمُ: «كَانَ يُعْجِبُهُمْ هَذَا الْحَدِيثُ لِأَنَّ إِسْلَامَ جَرِيرٍ، كَانَ بَعْدَ نُزُولِ الْمَائِدَةِ».[3]

وَعَنْ أَبِي زُرْعَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ جَرِيرٍ، أَنَّ جَرِيرًا، بَالَ، ثُمَّ «تَوَضَّأَ فَمَسَحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ» وَقَالَ: مَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَمْسَحَ وَقَدْ «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْسَحُ»، قَالُوا: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ نُزُولِ الْمَائِدَةِ، قَالَ: مَا أَسْلَمْتُ إِلَّا بَعْدَ نُزُولِ الْمَائِدَةِ.[4]

قال الخطابي: وقد روى قوم من الشيعة عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال إنما كان المسح على الخفين قبل نزول المائدة ثم نهى عنه فصارت الإباحة منسوخة، هذا أمر لا يصح عن علي

١ – رواه البخاري– كِتَابُ الصَّلاَةِ، بَابُ الصَّلاَةِ فِي الجُبَّةِ الشَّامِيَّةِ، حديث رقم: ٣٦٣، ومسلم– كِتَابُ الطَّهَارَةِ، بَابُ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ، حديث رقم: ٢٧٤

٢ – رواه أحمد– حديث رقم: ١٨٢٠٦، وأبو داود– كِتَاب الطَّهَارَةِ، بَابُ الْمَسْحِ عَلَى الْجَوْرَبَيْنِ، حديث رقم: ١٥٩، والترمذي– أَبْوَابُ الطَّهَارَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابٌ فِي المسحِ عَلَى الجَوْرَبَيْنِ وَالنَّعْلَيْنِ، حديث رقم: ٩٩، وابن ماجه– كِتَابُ الطَّهَارَةِ وَسُنَنِهَا، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمَسْحِ عَلَى الْجَوْرَبَيْنِ وَالنَّعْلَيْنِ، حديث رقم: ٥٥٩، بسند صحيح

٣ – رواه البخاري– كِتَابُ الصَّلاَةِ، بَابُ الصَّلاَةِ فِي الخِفَافِ، حديث رقم: ٣٨٧، ومسلم– كِتَابِ الطَّهَارَةِ، بَابُ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ، حديث رقم: ٢٧٢

٤ – رواه أبو داود– كِتَاب الطَّهَارَةِ، بَابُ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ، حديث رقم: ١٥٤، بسند صحيح

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد ثبت عنه أنه قال لو كان الدين بالقياس أو بالرأى لكان باطن الخف، أولى بالمسح من ظاهره، إلا أنى رأيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمسح ظاهر خفيه.[1]

وَالْكَعْبَانِ هُمَا الْعَظْمَانِ النَّاتِئَانِ على جَانِبِي السَّاقِ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ: لَمْ أَعْلَمْ مُخَالِفًا فِي أَنَّ الْكَعْبَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرَهُمَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فِي الْوُضُوءِ هُمَا النَّاتِئَانِ، وَهُمَا مَجْمَعُ مَفْصِلِ السَّاقِ وَالْقَدَمِ.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾.

يَعْنِي: وَإِنْ كُنْتُمْ أَصَابَتْكُمْ جَنَابَةٌ قَبْلَ أَنْ تَقُومُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ فَقُمْتُمْ إِلَيْهَا فَتَطَهَّرُوا بِالِاغْتِسَالِ مِنْهَا قَبْلَ دُخُولِكُمْ فِي صَلَاتِكُمُ الَّتِي قُمْتُمْ إِلَيْهَا، والمرادُ بالتَّطْهِيرِ هُنَا الِاغْتِسَالُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلا جُنُباً إِلَّا عابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾.[2]

وَأَصْلُ ﴿فَاطَّهَّرُوا﴾: فَتَطَهَّرُوا، فَأُدْغِمَتْ التَّاءُ فِي الطَّاءِ، وَزِيدَتْ هَمْزَةُ الْوَصْلِ.

ووَحَّدَ لفظُ: (الْجُنُب) وَهُوَ خَبَرٌ عَنِ الْجَمِيعِ؛ لِأَنَّهُ اسْمٌ خَرَجَ مَخْرَجَ الْفِعْلِ؛ كَمَا قِيلَ: رَجَلٌ عَدْلٌ وَقَوْمٌ عَدْلٌ.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾.

يَعْنِي: وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى من جِرَاحٍ يُخْشَى عَلَيْهَا مِنَ استِعْمَالِ الْمَاءِ زيادةَ المرضِ أو تأخيرَ البرء فتيَمَّمُوا، فإِذَا كَانَ المريضُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يستعمِلَ الْمَاءَ لجُرْحٍ أَوْ كَسْرٍ أَوْ عِلَّةٍ لَا تَقْدُرُ مَعَهَا عَلَى الِاغْتِسَالِ مِنَ الْجَنَابَةِ فَيَتَيَمَّمْ لَا يَتْرُكُ الصَّلَاةَ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: وَالْمَرَضُ: أَنْ يُصِيبَ الرَّجُلَ الْجُرْحُ أَوِ الْقَرْحُ أَوِ الْجُدَرِيُّ، فَيَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ بَرْدِ الْمَاءِ وَأَذَاهُ، يَتَيَمَّمُ بِالصَّعِيدِ كَمَا يَتَيَمَّمُ الْمُسَافِرُ الَّذِي لَا يَجِدُ الْمَاءَ.

---

١ – معالم السنن (١/ ٥٩)

٢ – سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ٤٣

وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْمَرَضُ: هُوَ الْجِرَاحُ وَالْجِرَاحَةُ الَّتِي يُتَخَوَّفُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ إِنْ أَصَابَهُ ضَرَّ صَاحِبَهُ، فَذَلِكَ يَتَيَمَّمُ صَعِيدًا طَيِّبًا.

﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

أي: وَإِنْ كُنْتُمْ مُسَافِرِينَ وَأَصَابَتْكُمْ جَنَابَةٌ وَأَنْتُمْ أَصِحَّاءُ، فَتَيَمَّمُوا، وخصَّ السفرَ بالذكرِ هنا لأنه مظنةُ فقد الماء.

﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾.

تقدَّم الْكَلَامُ عَلَيْهِ عندَ تَفْسِيرِ الآيَةِ الثالثة والأربعين من سورةِ النِّسَاءِ.

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾.

الْحَرَجُ: الضِّيقُ وَالشِّدَّةُ، أَيْ: مَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يشقَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ الَّذِي شَرَعه لَكُمْ؛ لِذلك رَخَّصَ لكم التَّيَمُّمَ.

﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾.

بيانٌ للعلة من الأمر بالاغتسال عند الجنابة، وهي طهارة حسية، ويترتب عليها طهارة معنوية من الآثام والذنوب.

﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: ويُرِيدُ أن يُتِمَّ عليكم نِعْمَةَ الْإِسْلَامِ باستكمال شرائعه وأحكامه، لتشكروا الله تعالى على ما أولاكم من نعمه وعلى ما حباكم من فضله.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٧

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تَعَالَى فِي الآية السابقة الطهارة الصغرى والكبرى، والتيمم، وفَصَّلَ فرائضَ الوضوءِ، وذلك التشريع من النعم التي تستوجب الشكر، وذَيَّلَ الآية بقوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، ذَكَّرَ عباده في الآية بما أنعم عليهم من صنوف النعم، وما يجب عليهم من الشكر عليها، والوفاء بما عاهدوا عليه فإنه من تمام شكر تلك النعم.

يُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بنعمه التي أنعم بها عَلَيْهِمْ، وأجلها وأعظمها نعمة الهداية لِهَذَا الدِّينَ الْعَظِيمَ، وما شرعه لهم من الشرائع التي لا قوام لحياتهم الدنيوية إلا بها، ولا نجاة لهم في الآخرة إلا بقبولها، وهذا أولى من القول بِأَنَّهُ خِطَابٌ لِلْيَهُودِ فإنهم لم يتقدم لهم ذكرٌ هنا، وَأولى من القول بأنه الْمِيثَاقُ الذي أَخَذَهُ الله تعالى عَلَى بَنِي آدَمَ؛ لقوله: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

إِنَّمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾. وَلَمْ يَقُلْ: اذْكُرُوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ جِنْسُ النِّعَمِ، لا أَعْدَادُهَا؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.[1]

﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

الْمِيثَاقُ: العَهْدُ، مِفعالٌ مِنَ الْوِثَاقِ، وَأَصْلُهُ قَيْدٌ يُشَدّ بِهِ الْأَسِيرُ والدَّابَّة، والمرادُ به هنا الْبَيْعَةُ الَّتِي كَانَ المؤمنونَ يُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهَا عِنْدَ إِسْلَامِهِمْ، كما قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: «وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسول اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ العَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ» أَيْ: حِينَ تَعَاهَدْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ.

وَوَاثَقَكُمْ بِهِ، أَيْ: عَاهَدَكُم بِهِ.

---

١ - سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: الْآيَةُ/ ٣٤

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أَيْ: وَاذْكُرُوا عَهْدَ اللهِ الَّذِي عَاهَدَكُمْ بِهِ حِينَ بَايَعْتُمْ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي جميعِ أَحْوَالِكُم، ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. أَيْ: حِينَ قُلْتُمْ لَهُ سَمِعْنَا مَا أَمَرْتَنَا بِهِ، وَأَطَعْنَاكَ فِيهِ.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي المَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لاَ نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ».[1]

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ تُسَولُ لَهُ نَفْسُهُ بنقضِ عَهْدِ اللهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى الضَّمَائِرِ، وَعَالِمٌ بِمَا تُخْفِيهِ الصُّدُورُ، لا يعزب عنه شَيْءٌ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

١ – رواه البخاري– كِتَابُ الأَحْكَامِ، بَابٌ: كَيْفَ يُبَايِعُ الإِمَامُ النَّاسَ، حديث رقم: ٧١٩٩

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٨

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا أمرَ اللهُ تَعَالَى المؤمنين في الآية السابقة أنْ يذكروا نعمة الله تعالى عليهم وأن يذكروا مثياق الله تعالى الذي أخذه عليهم رسوله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمرهم هنا أن يقوموا لله تعال بما يجب عليهم من الوفاء بعهده أبلغ قيام، وأن يحفظوا عهده غاية الحفظ.

معنى هَذِهِ الْآيَةِ قريبٌ مِنْ معنى آيَةِ سُورَةِ النِّسَاءِ وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾. [النِّسَاءِ: ١٣٥]، وهنا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾؛ لأنَّ الكلام في معرض ذكر الوفاء بعهدِ الله وميثاقه، وفي سُورَةِ النِّسَاءِ قال: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾؛ لأن الكلام في معرضِ الكلامِ عن الْحُقُوقِ والحكم بين النَّاسِ بِالْقِسْطِ، وتقدم الكلام عن معنى هذه الجملة في سُورَةِ النِّسَاءِ.

وَلَمْ يُذْكَرْ هُنَا مَا أَمَرَنَا أَنْ نكونَ قَوَّامِينَ لِلَّهِ بِهِ، لِيشمَلَ جَمِيعَ مَا أَخَذَ اللهُ عَلَيْنَا الْمِيثَاقَ بِهِ مِنَ التَّكَالِيفِ الشَّرعِيةِ.

﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا﴾.

أي: وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ قَوْمٍ بسبَبِ مَا بينكُم مِنَ العَدَاوَةِ لهم عَلَى عَدَمِ العَدْلِ فِيهم إذا حكمتم عليهم، فإنَّ الْعَدْلَ واجب مَعَ كُلِّ أَحَدٍ قريبًا كان أو بعيدًا.

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

أَيْ: الْعَدْلُ أَقْرَبُ إِلَى اتِّقَاءِ عِقَابِ اللهِ وَسُخْطِهِ مِنْ تَرْكِهِ؛ فإنَّ الْمَعَاصِي مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ سَخَطِ اللهِ تَعَالَى.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

لَمَّا كَانَ الشَّنَآنُ مَحَلُّهُ الْقَلْبُ وَهُوَ الذي يحمل عادةً عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ أَمَرَ بِالتَّقْوَى، وَأَتَى بِصِفَةِ تَخْتَصُّ بِمَا لَطُفَ إِدْرَاكُهُ (خبير) لتناسِبَ ما يخفيه العبادُ في قلوبهم مما يحملهم عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ. والكلامُ فيه ترقي من الأدنى إلى الأعلى فَنَهَى تعالى أَنْ يَحْمِلَ الْبُغْضُ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْعَدْلِ أمرًا صريحًا، ثُمَّ بيَّنَ العِلَّةَ مِنَ الْأَمْرِ بِالْعَدْلِ وَهِي أَنَّهُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٩، ١٠

مُنَاسَبَةُ الْآيَتينِ لِمَا قَبْلَهُمَا:

لَمَّا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالتَّقْوى ذَكَرَ فِي هَاتَينِ الْآيَتينِ مَا وَعَدَ بِهِ الْمُتَّقِينَ من الفضلِ والمثوبةِ تَرْغِيبًا لهم فِي الاتصاف بالتقوى، وَعُطِفَ ذلك بذكرِ حَالِ الَّذِين كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ تَرْهِيبًا؛ لمنافاةِ أحوالِهِم لأَحْوالِ الْمُتَّقِينَ.

يخبر الله تعالى عن وعده الذي لا يتخلف لأهل الإيمان ببشارتين بهما تتحقق السعادة في الدنيا والآخرة، وهما الْمَغْفِرَةُ وَالأَجْرُ العَظِيمُ.

قيل: حُذِفَ المفعولُ الثاني ل (وَعَدَ) وتقديره: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَعْدًا حَسَنًا)، ثُمَّ بَيَّنَ سبحانه وتعالى ذلك الوعد فقال: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وَهَذَا التَّعْبِيرُ أَبْلَغُ مِنْ أنْ يقال: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)، لما تشتمل عليه الآيةُ مِنْ تَأْكِيدٍ، وَتَقْرِيرٍ لِلْوَعْدِ بخبرٍ بعدَ خبرٍ، فإنَّ قوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ يدلُّ على الثبوت والاستقرارِ.

وقيل: اجْرِي (وَعَدَ) مُجْرَى (قَالَ)؛ لِأَنَّ الوَعْدَ ضَرْبٌ مِنَ الْقَوْلِ، وَالْوَعْدُ مِنْ جُمْلَةِ الْقَوْلِ فيكون تقدير الكلام: (قَالَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)، وتكون جملةُ: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، في محل المفعول، والقول الأول أولى.

وَالْمَغْفِرَةُ: سَتْرُ الذنوبِ أَوْ مَحْوُهَا ليأمنَ صاحبها العقابَ، وَالْأَجْرُ الْعَظِيمُ: هُوَ الْجَزَاءُ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، والمرادُ بِهِ الجَنَّةُ.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

أيْ: وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرُسُلِهِ، وَكَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ المنزلة على رسلِهِ عليهم السلام، أُولَئِكَ لهم عذاب دائمٌ في الْجَحِيمِ، لا يفارقهم ولا يفارقونه، يلازمونه ملازمةَ الصاحبِ لصاحبِهِ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ١١

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَّرَ اللهُ تَعَالَى المؤمنين بما أنعم عليهم من الهداية للإسلام، وإكمال الدين وإتمام التشريع، ناسب أن يذكرهم بنعمة الأمن من كيد أعدائهم، وكفِّ شرهم عنهم.

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

اختلف العلماءُ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فقالَ وَمُجَاهِدٌ وعكْرِمَةُ وغيرُهُمَا نَزَلَتْ فِي كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَأَصْحَابِهِ، حِينَ أَرَادُوا أَنْ يَغْدُرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ روى ابْنُ إِسْحَاقَ, ومن طريقه ابنُ جريرٍ عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَا: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ لِيَسْتَعِينَهُمْ عَلَى دِيَةِ الْعَامِرِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ قَتَلَهُمَا عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ؛ فَلَمَّا جَاءَهُمْ خَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا مُحَمَّدًا أَقْرَبَ مِنْهُ الْآنَ, فَمُرُوا رَجُلًا يَظْهَرُ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ فَيَطْرَحُ عَلَيْهِ صَخْرَةً فَيُرِيحُنَا مِنْهُ. فَقَامَ عَمْرُو بْنُ جَحَّاشِ بْنِ كَعْبٍ. فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخَبَرُ، وَانْصَرَفَ عَنْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ ذِكْرُهُ فِيهِمْ وَفِيمَا أَرَادَ هُوَ وَقَوْمُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ...﴾، الْآيَة.[١]

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ...﴾: وَذَلِكَ أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْيَهُودِ صَنَعُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ طَعَامًا لِيَقْتُلُوهُ إِذَا أَتَى الطَّعَامُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ بِشَأْنِهِمْ، فَلَمْ يَأْتِ الطَّعَامُ وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَبَوْهُ".[٢]

١ - تفسير الطبري (٨/ ٢٢٨)

٢ - تفسير الطبري (٨/ ٢٣١)

وقيل: سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ: ما رواه البخاري ومسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوَةً قِبَلَ نَجْدٍ، فَأَدْرَكَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَعَلَّقَ سَيْفَهُ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا قَالَ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْوَادِي يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ رَجُلًا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَأَخَذَ السَّيْفَ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي، فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَالسَّيْفُ صَلْتًا فِي يَدِهِ، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ قُلْتُ: اللهُ، ثُمَّ قَالَ فِي الثَّانِيَةِ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ قُلْتُ: اللهُ، قَالَ: فَشَامَ السَّيْفَ فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ" ثُمَّ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.[1]

وفي رواية عند الطبري: وَتَأَوَّلَ: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ..﴾ الْآيَةُ.[2]

واخْتَارَ ابنُ جريرٍ القولَ الأولَ.

يأمر الله تعالى المؤمنين أن يذكروا ما أنعم الله تعالى عليهم من صنوف النعم ومنها أنه كَفَّ عَنْهُمْ أَيْدِيَ أعدائهم حين هَمُّوا أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيهِمْ أَيْدِيَهُمْ بالسُّوءِ.

﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾.

كناية عن إرادة القتل؛ كما قَالَ تَعَالَى على لسانِ ابن آدم المقتول: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾.[3]

﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾.

أي: مَنَعَ أَعْدَاءَكُمْ مِنْ إيصَالِ الشَّرِّ إِلَيْكِمْ.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ مَنْ عَلَّقَ سَيْفَهُ بِالشَّجَرِ فِي السَّفَرِ عِنْدَ القَائِلَةِ، حديث رقم: ٢٩١٠، ومسلم- كتاب الْفَضَائِلِ، بَابُ تَوَكُّلِهِ عَلَى اللهِ تَعَالَى، وَعِصْمَةِ اللهِ تَعَالَى لَهُ مِنَ النَّاسِ، حديث رقم: ٨٤٣

٢ - تفسير الطبري (٨/ ٢٣٣)

٣ - سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٢٨

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وَاتَّقُوا اللَّهَ بشكرِ نعمه عليكم، فإِنَّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ، وَعَصَمَهُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ١٢، ١٣

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَّرَ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بنعَمِهِ عَلَيْهِمُ وَأَمَرَهم أَنْ يذكروا مِيثَاقَهُ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾. [الْمَائِدَةِ: ٧]، نَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ لهم ما أخذَهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ من المِيثَاقِ وَكيفَ نَقْضُوا مِيثَاقَهُمْ، وما تَرَتَّبَ عَلَى ذلكَ مِنَ العِقَابِ، تَحْذِيرًا لنا مما فعلوه، مِنْ أَنْ يَكُونَ مِيثَاقُنَا كَمِيثَاقِهِمْ، فتتبدل نِعَمُ اللهِ تَعَالَى عليهم نقمًا كما بدل بَنُو إِسْرَائِيلَ نعمةَ اللهِ كفرًا بنقضهم مِيثَاقَهُ وأحلوا قومهم دارَ البوارِ.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

أَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا وأن يلتزموا بشرعِهِ والإيمان برسله وتوقيرهم ووعدهم على ذلك أن يكفر عنهم سيئاتهم وأن يدخلهم الجنة؛ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.[1]

﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾.

النَّقِيبُ كَبِيرُ الْقَوْمِ، الْقَائِمُ بِأُمُورِهِمِ الَّذِي يُنَقِّبُ عَنْهَا وَعَنْ مَصَالِحِهِمْ فِيهَا، وَقِيلَ لهُ نَقِيبٌ؛ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ مَنَاقِبَ الْقَوْمِ، وَيَعْلَمُ دَخِيلَةَ أَمْرِهِم، وهُو أرفعُ رتبةً مِنَ الْعَرِيفِ.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآية/ ٤٠

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وَالْبَعْثُ هنا معناه التعيينُ والْإِقَامَةُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى على لسانِ الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.[1]

فأَقَامَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى عَدَدِ الْأَسْبَاطِ، فَجَعَلَ لِكُلِّ سِبْطٍ نَقِيبًا.

وذكرُ النقباء ورد في الآية مبهمًا فلا فائدة في تعيينهم؛ ولا سبيل إلى العلم بأعيانهم إلا عن طريق كتب أهل الكتاب، وقد أخبرنا الله تعالى أنها قد حرفت فلا حاجة بنا إلى البحث عن أسمائهم.

وفي قوله: ﴿وَبَعَثْنَا﴾، بعد قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ﴾. الْتِفَاتٌ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ.

﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾.

المعيةُ نوعانِ: معية عامة للخلق جميعًا بعلمه سبحانه وتعالى؛ دَلَّ عليها قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾.[2]

ومعيةٌ خَاصَّةٌ، وهي معية النصر والحفظ والتأييد وهي المقصودةُ هنا، وَدَلَّ عليها قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.[3]

أَيْ: مَعَكُمْ بِحِفْظِي وتأييدي وَنَصْرِي.

﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾.

أَيْ: قَسَمٌ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ في أوقاتها بأركانها وشروطهَا، وَأَعْطَيْتُمُ الزَّكَاةَ مَنْ أَمَرْتُكُمْ بهم، وصَدَقْتُمُ رُسُلِي فِيمَا يَأْتُونَكُمْ بِهِ مِنَ الْوَحْيِ، وَمَا يأمرونكم به مِنَ الشَّرَائِعِ.

---

١ – سُورَةُ الْبَقَرَة: الآية/ ٢٤٦

٢ – سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ: الآية/ ٧

٣ – سُورَةُ النَّحْلِ: الآية/ ١٣٨

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾.

أَصْلُ التَّعْزِيرِ: الْمَنْعُ وَالرَّدُّ؛ قَالَ الزَّجَّاجُ: الْعَزْرُ فِي اللُّغَةِ الرَّدُّ.

وَيُطْلَقُ التَّعْزِيرُ عَلَى التَّأديبِ بالضَّرْبِ وَغيرِهِ، يُقَالُ: عَزَّرْتُ فُلَانًا: إِذَا أَدَّبْتَهُ وَرَدَدْتَهُ عَنِ الْقَبِيحِ.

والمرادُ به هنا: النَّصْرُ؛ لِأَنَّ مَنْ نَصَرَ إِنْسَانًا فَقَدْ رَدَّ عَنْهُ أَعْدَاءَهُ. وتقديرُ الكلامِ: لَئِنْ نَصَرْتُمُوهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِم، وَآزَرْتُمُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ.

﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

أي: وأنْفَقْتم فِي سَبِيلِ اللهِ، وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

أَيْ: لَأَسْتُرَنَّ ذُنُوبَكُمْ ولَأَمْحُوَنَّهَا عَنْكُمْ، فلا أؤخذكم بها.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

جزاءَ إيمانكم بالله وطاعتكم لرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

الضَّلَالُ: السَّيرُ عَلَى غَيْرِ هُدًى، وَسَوَاءَ السَّبِيلِ: وَسَطَ الطَّرِيقِ.

أَيْ: فَمَنْ جَحَدَ مِنْكُمْ شَيْئًا مِمَّا أَمَرْتُهُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُهُ عَنْهُ بَعْدَ أَخْذِي الْمِيثَاقَ عَلَيْهِ بِالْوَفَاءِ، فَقَدْ حَادَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِي هُوَ دِينُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.

النَّقضُ: الهَدْمُ بعدَ البناءِ.

وَاللَّعْنُ: الطَّرْدُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أَيْ: فَبِسَبَبِ فِعْلٍ فَعَلُوه، وجُرْمٌ اقترَفُوه نَقَضُوا بِهِ مِيثَاقَهُمْ الَّذِي وَاثَقْنَاهُمْ بِهِ، وَأَخَذْنَاهُ عَلَيْهِمْ، وَمِنْهُ الْإِيمَانُ بِمَنْ نُرْسِلُهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الرُّسُلِ، اسْتَحَقُّوا الطَّرْدَ مِنْ رَحْمَتِنَا، وقَالَ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾. بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ ولم يقلْ: فَبِمَا نَقَضُوا، لِلدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِمْرَارِهِمْ في نقضِ المواثيقِ، ونبذِ العهودِ.

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.

القَسَاوَةُ والقَسْوَةُ: الصَّلَابَةُ وَالشِّدَّةُ، وهي ضدُّ اللينِ والرقةِ.

أَيْ: وَبِسَبَبِ نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ، جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ شَدِيدَةَ الصَّلَابَةِ، بالغةَ القَسْوَةِ لا تُؤَثِّرُ فِيهَا مَوْعِظَةٌ، وَلَا تَستَجِيبُ لحُجَّةٍ.

وَقَرَأَ حَمْزَةُ، وَالْكسَائِيّ، وَخَلَفُ: ﴿قَسِيَّةً﴾، بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ عَلَى وَزْنِ (فَعِيلَةً)، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿قَاسِيَةً﴾.

وَقِيلَ: مَعْنَى: ﴿قَسِيَّةً﴾، رَدِيئَةً فَاسِدَةً، مِنْ قَوْلِهِمْ: دِرْهَمٌ قَسِيٌّ، أَيْ: فَاسِدٌ مَغْشُوشٌ، والْمَعْنَى: يُخَالِطُ إِيمَانُ قُلُوبِهِم كُفْرٌ، كَالدَّرَاهِمِ الْقَسِيَّةِ الَّتِي يُخَالِطُ فِضَّتَهَا غِشٌّ مِنْ نُحَاسٍ أَوْ رَصَاصٍ.

وَقِيلَ: الْمَعْنَى عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ عَائِدٌ إِلَى الْقَسْوَةِ بِمَعْنَى الصَّلَابَةِ وَالشِّدَّةِ؛ لِأَنَّ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ الْخَالِصَيْنِ فِيهِمَا لِينٌ، فَإِذَا غُشَّا بِإِدْخَالِ بَعْضِ الْمَعَادِنِ فِيهِمَا كَالنُّحَاسِ أَفَادَهُمَا ذَلِكَ قَسْوَةً وَصَلَابَةً، بيد أنَّ ﴿قَسِيَّةً﴾، أَبْلَغُ فِي الْوَصْفِ مِنْ ﴿قَاسِيَةً﴾.

اللهم انفعنا وارفعنا بالقرآن.

قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.

التَّحْرِيفُ: الْمَيْلُ بِالشَّيْءِ إِلَى حَرْفِهِ وجانبهِ.

وَالْكَلِمُ جَمْعُ كَلِمَةٍ، وَتُطْلَقُ عَلَى اللَّفْظِ الْمُفْرَدِ، وَعَلَى الْجُمْلَةِ الْمُرَكَّبَةِ ذَاتِ الْمَعْنَى التَّامِّ الْمُفِيدِ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَتَحْرِيفُ الْكَلِمِ يَكُونُ بِتَحْرِيفِ الْأَلْفَاظِ، وَالْحَذْفِ وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ، وَبِتَحْرِيفِ الْمَعَانِي بِحَمْلِ الْأَلْفَاظِ عَلَى غَيْرِ مَا وُضِعَتْ لَهُ، ولَيُّ الكلامِ تمويهًا وتلبيسًا على الناسِ، وتكلمنا عن صور تحريفهم لكلامِ اللهِ، عند قوله تَعالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾.[1]

﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

النسيانُ هنا مَعْنَاهَ التَّرْكُ؛ أَيْ: وَتَرَكُوا الْعَمَلَ بِنَصِيبٍ مِمَّا أَمَرَهُم اللهُ بِهِ رَغْبَةً عَنْهُ، ومنه قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]؛ أَيْ: تَرَكُوا طَاعَةَ اللهِ فتَرَكَهُمُ اللهُ مِنْ ثَوَابِهِ.

قَالَ الْحَسَنُ: تَرَكُوا عُرَى دِينِهِمْ وَوَظَائِفَ اللهِ الَّتِي لَا يَقْبَلُ الْعَمَلَ إِلَّا بِهَا.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾.

الْخَائِنَةُ: بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ، أَيْ: الْخِيَانَةُ، مِثْلَ قَوْلِهِمْ: قَائِلَةٌ بِمَعْنَى قَيْلُولَةٍ؛ وَمنه قَولُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الْوَاقِعَةِ: ٢] أَيْ: لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَذِبٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ [الْغَاشِيَةِ: ١١] أَيْ: لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغْوًا.

وَقِيلَ: خَائِنَة نَعْتٌ لِمَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: فِرْقَةٌ خَائِنَةٌ.

وَالِاطِّلَاعُ افْتِعَالٌ مِنَ الطُّلُوعِ لِقَصْدِ الْإِشْرَافِ عَلَى الشَّيءِ.

أَيْ: وَلَا يَزَالُونَ يَخُونُونَكَ يَا مُحَمَّدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتَكْشِفُ خِيَانَتَهُمْ، وَتُشَاهِدُ غَدْرَهُم.

وَمِنْ خِيَانَتِهِمْ نَقْضُهُمُ الْعَهْدَ الذي كانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمُظَاهَرَتُهُمُ الْمُشْرِكِينَ عَلَيهِ يَوْمَ الْأَحْزَابِ وَمِنْ ذَلِكَ الهَمُّ بِقَتْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ جُبِلُوا عَلَى الْوَفَاءِ، فَلَمْ يَخُونُوا، وَلَمْ يَغْدِرُوا، وهَذَا مِنْ إِنْصَافِ الْقُرْآنِ لَهُم عَلَى كُفْرِهِم بِاللهِ تَعَالَى.

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

---

١ – سورة البقرة: الآية/ ٧٩

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وَالْعَفو هو ترك المؤاخذة، ويَقْتَضِي إِسْقَاط اللوم والذم.

والصفح: الإِعْرَضُ وَالتَّجَاوزُ عَنْ الذَّنبِ، من قَوْلك: صفحتُ الورقةَ إِذا تجاوزتها.

والمعنى: اعْفُ يَا مُحَمَّدُ عَنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ هَمُّوا بِمَا هَمُّوا بِهِ مِنْ بَسْطِ أَيْدِيهِمْ إِلَيْكَ وَإِلَى أَصْحَابِكَ بِالسُّوءِ ووقعت الخيانة منهم، وَاصْفَحْ عَنْ جُرْمِهِمْ بِتَرْكِ التَّعَرُّضِ لهُ، وهذا إِحْسَانٌ منك إليهم وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

www.alukah.net

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ١٤

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

قلنا: لَمَّا ذَكَّرَ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بنعَمِهِ عَلَيْهِمُ، وَأَمَرَهم أَنْ يذكروا مِيثَاقَهُ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ، نَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ لهم ما أخذَهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، ولما ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى حَالَ الْيَهُودِ ناسبَ أن يَذْكُرَ حَالَ النَّصَارَى وَكيفَ نَقْضُوا مِيثَاقَهُمْ، وما تَرَتَّبَ عَلَى ذلكَ مِنَ العِقَابِ، تَحْذِيرًا لنا مما فعلوه.

يخبرُ الله تعالى أنه أخذ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ عَلَى هؤلاء الَّذِينَ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ أتباعٌ للْمَسِيحِ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنْ يُؤمِنُوا بالرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا بُعِثَ وهم أحياءٌ وأَنْ ينصروه حتى يبلغ دين الله تعالى، وَأن يقْتَفُوا أثَرَهُ.

وقولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ ابْتَدَعُوا النَّصْرَانِيَّةَ وَتَسَمَّوْا بِهَا، ولم يسمهم بها الله تعالى، ومن ذلك أيضًا قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾.[1]

وَنَصَارَى نسبةٌ لبَلْدَةٍ نَاصِرَةٍ فِي فِلَسْطِينَ، كانَ ينسبُ إليها عِيسَى عليه السلامُ فيقال: عِيسَى النَّاصِرِيُّ؛ لِأَنَّهُ ظَهَرَ مِنْ مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ.

وهذا أولى من القول بأنهم قالوا ذلك: ﴿إِنَّا نَصَارَى﴾؛ لقولِ الْحَوَارِيِّينَ: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٥٢]؛ لِأَنَّ الله أثنى على الْحَوَارِيِّينَ، وإنما وقع الشركُ والضلالُ ممن جاء بعدهم.

وما أكثر ما ابتدعه النَّصَارَى فِي دِينِ اللهِ تَعَالَى؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الْحَدِيدِ: ٢٧]، وإنما دِينُ عِيسَى ومُوسَى وَسَائِرِ الأَنبياءِ هو الإِسْلَامُ كَمَا

١ – سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٨٢

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾. [آل عمران: ١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.[١]

﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

أَيْ: تركوا نصيبًا مما أُمِرُوا بِهِ، ومِمَّا تَرَكُوهُ ولَمْ يَعْمَلُوا بِهِ، الْإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

الْإِغْرَاءُ: التَّحْرِيضُ والتَّحْرِيشُ والحَثُّ عَلَى الفِعْلِ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: فَأَغْرَيْنَا الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ بِهِمْ كَائِنَتَيْنِ بَيْنَهُمْ، وتَعْلِيقُ (أَغْرَيْنَا) بِالظَّرْفِ قَرِينَةٌ على أَنَّ (أَغْرَيْنا) ضُمِّنَ معنى: أَلْقَيْنَا.

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿بَيْنَهُمُ﴾. يُعُودُ عَلَى النَّصَارَى. قَالَهُ الرَّبِيعُ؛ لأَنَّهُم اخْتَلَفُوا فِي الْمَسِيحِ فافْتَرَقُوا فِرقًا شَتَّى، وَكُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ تُكفِّرُ الْأُخْرَى وتُعَادِيهَا.

وَقِيلَ: الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، أَيْ: بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ: فَإِنَّهُمْ أَعْدَاءٌ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيُكَفِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

أي: وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ نَقْضِهِمْ الْمَوَاثِيقَ، وَنَكْثِهِمْ العُهُودَ، وَتَحْرِيفِهم كلامَهُ تعالى، وهو وعيدٌ شديدٌ لهم.

---

١ - سُورةُ آلِ عِمْرَانَ: الآية/ ٨٥

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ١٥، ١٦

مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى حَالَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وفَضَحَ نَقْضَهُمُ لْعَهْدِهِ وَتَرْكَهَمْ لأَمْرِهِ، دَعَاهُمْ للْإِيمَانِ برَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان عدمُ الإيمانِ به سببًا من أسبابِ نَقْضِهِم للْعَهْدِ، بسببِ كتمانهم لصِفَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يدعو الله تعالى أهل الكتاب إلى التوبة من كفرهم والرجوع عن غيهم، وترك السير على خطا آبائهم في نقض العهود، ويخبرهم عز وجل بما منَّ به عليهم وعلى الناس من بعثة خاتم رسله مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّ الله تعالى أرسله للناس كافة، ليفتح به أعينًا عميًا وآذنًا صمًا، ويقيم به الملة العوجاء، ويُبَيِّنَ لَهُمْ كَثِيرًا مِمَّا اختلفوا فيه مِنَ الْكِتَابِ.

ومن ذلك البشارة به في الكتبِ السابقة؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾.[١]

ومن ذلك الدفاع عن أنبياءِ اللهِ ورسلِهِ عليهم السلامُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.[٢]

ومن ذلك ما كانوا يكتمونه من الأحكام والشرائع؛ ومنها الرَّجْمُ؛ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَنْ كَفَرَ بِالرَّجْمِ فَقَدْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَهْلَ

١ - سُورَةُ الْأَعْرَافِ: الآية/ ١٥٧

٢ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآية/ ١٠٢

الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾. فَكَانَ الرَّجْمُ مِمَّا أَخْفَوْا.[1]

﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾.

أي: وَيُعْرِضُ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَهُ فَلَا يُبَيِّنُهُ، والعفو: السَّتْرُ؛ يُقَالُ: عَفَا الرَّسْمُ، إِذَا لَمْ يَظْهَرْ. قال الشاعر:

وتَـرَى مِنهـا رُسُـومًا قـد عَفَـتْ ***** مِثْـلَ خَـطِّ الَّـلامِ في وَحْـي الزُّبُـرْ

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾.

قَالَ اللهُ تَعَالَى لأَهْلِ الْكِتَابِ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾، يَعْنِي بِذلك النُّورِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأَنَّ اللَّهَ أَنَارَ بِهِ سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَظْهَرَ بِهِ دينَ الْإِسْلَامِ، وَمَحَقَ بِهِ الكفرَ وَالشِّرْكَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾.[2]

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾. بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾؛ فإِنَّ مَجِيءَ الرَّسُولِ مُشْتَمِلٌ عَلَى مَجِيءِ الْهُدَى.

وَالكِتَابُ الْمُبِينُ هُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقيلَ له: (مُبِينٌ)؛ لأَنَّهُ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا يحتاجونَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفُوا الحَقَّ مِنَ البَاطِلِ، ويميزوا بين الهدى والضلالِ.

---

١ - رواه الحاكم- كِتَابُ الْحُدُودِ، حديث رقم: ٨٠٦٩، والنسائي في السنن الكبرى- كِتَابُ الرَّجْمِ، تَثْبِيتُ الرَّجْمِ، حديث رقم: ٧١٢٤، وابن حبان-كِتَابُ الْحُدُودِ، باب الزنى وحدّه، ذِكْرُ إِخْفَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ آيَةَ الرَّجْمِ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ مَا أَنْزَلَ، حديث رقم: ٤٤٣٠، بسند صحيح

٢ - سُورَةُ الْأَحْزَابِ: الآية/ ٤٥، ٤٦

www.alukah.net

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

أي: يُوفِّقُ اللهُ تَعَالَى ويُرْشِدُ وَيُسَدِّدُ بِهَذَا الْكِتَابِ، مَنِ اتَّبَعَ رِضَا اللَّهِ، يَهْدِيهِ طُرُقَ السَّلَامَةِ الْمُوصِلَةِ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَهِيَ الْجَنَّةُ.

وَقَالَ الْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿السَّلَامِ﴾. اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، والمرادُ يَهْدِي اللَّهُ عز وجلَّ بهذا القرآن إلى دِينِ الْإِسْلَامِ من سعى لطلب مرضاته تعالى.

﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾.

أَيْ وَيُخْرِجُهُمْ اللهُ تَعَالَى مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ إِلَى نُورِ الْإِسْلَامِ بتوفيقه وإرادته؛ كما قَالَ تَعَالَى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.[1]

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

يَعْنِي: وَيُرْشِدُهُمْ وَيُوفقُهُمْ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ، وَهُوَ السَّبيلُ الموصِّلُ إلى مَرْضَاتِهِ وجنَّتِهِ وَهُوَ الإِسْلَامُ.

---

١ - سورةُ الْبَقَرَةِ: الآية/ ٢٥٧

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ١٧

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذكرَ اللهُ تَعَالَى أنّهُ أرسل رسوله مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليبينَ لأَهْلِ الْكِتَابِ ما كانوا يُخْفُونَه مِنَ الْكِتَابِ، وَلِيُخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُّمَاتِ إِلَى النُّورِ بأمرِ الله تعالى أخبر هنا عن أعظم ضلال وقعوا فيه وهو اعتقاد ألوهية المسيح عليه السلام.

لَمَّا سلكَ النصارى سبلَ الضلالِ وتشعبتْ بهم الأهواءُ، فمنهم من زعم أن الله هو الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، ومنهم من زعم أنَّ المسيحَ ابنُ الله، ومنهم من زعم أن الله ثالث ثلاثة إلى غير ذلك من العقائد الباطلة، والتصور الفاسد عن الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، بيَّنَ اللهُ تعالى ضَلَالَهم بيانًا لا لبسَ فيه ولا خفاءَ، فبدأ بفرقةٍ من فرقهم اعتقدوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، حين علموا بما جرى على يديه من خوارق العادات، ووقد نصر قُسْطَنْطِين ملك الروم هذه الفرقة من فرق النصارى فكانت لها الغلبة على فرق النصارى، واضطهد من خالفهم، وظلَّ هذا المذهب هو السائد بين النصارى مدةً من الزمن، فقد عُقدَ مجمَّعُ نِيقِيَّةَ بأمرِ الْمَلِكِ قُسْطَنْطِين، سنة: ٣٢٥م، وَاجْتَمَعَ فِي مَدِينَةِ نِيقِيَّةَ أَلْفَانِ وَثَمَانِيَةٌ وَأَرْبَعُونَ أُسْقُفًّا، مُخْتَلِفِي الْأَرَاءِ، مُخْتَلِفِي الْأَدْيَانِ.

فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الْمَسِيحُ وَمَرْيَمُ إِلَهَانِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهُمُ الْمَرْيَمَانِيَّةُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الْمَسِيحُ مِنَ الْأَبِ بِمَنْزِلَةِ شُعْلَةِ نَارٍ، تَعَلَّقَتْ مِنْ شُعْلَةِ نَارٍ، فَلَمْ تُنْقُصْ مِنَ الْأُولَى لِإِيقَادِ الثَّانِيَةِ مِنْهَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ الْمَسِيحَ إِنْسَانٌ خُلِقَ مِنَ اللَّاهُوتِ لِذَلِكَ سُمِّيَ ابْنُ اللَّهِ.

وَيَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ جَوْهَرٌ وَاحِدٌ وَأُقْنُومٌ وَاحِدٌ، وَيُسَمُّونَهُ بِثَلَاثَةِ أَسْمَاءٍ، وَهَذِهِ مَقَالَةُ بُولُس وَأَشْيَاعِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَقُولُ: ثَلَاثَةُ آلِهَةٍ، وَهَذِهِ مَقَالَةُ مَرْقِيُونَ وَأَشْيَاعِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: رَبُّنَا هُوَ الْمَسِيحُ، وَهِيَ مَقَالَةُ الثَّلَاثِمِائَةِ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ أُسْقُفًّا.

فَلَمَّا سَمِعَ قُسْطَنْطِينُ الْمَلِكُ مَقَالَاتِهِمْ عَجِبَ مِنْ ذَلِكَ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَنَاظَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ لِيُنْظَرَ مَنْ مَعَهُ الْحَقُّ فَيَتْبَعَهُ، فَاتَّفَقَ مِنْهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ أُسْقُفًّا عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ وَرَأْيٍ وَاحِدٍ.

وَنَاظَرُوا بَقِيَّةَ الْأَسَاقِفَةِ الْمُخْتَلِفِينَ، فَفَلَجُوا عَلَيْهِمْ فِي الْمُنَاظَرَةِ، فَصَنَعَ الْمَلِكُ لِلثَّلَاثِمِائَةِ وَالثَّمَانِيَةَ عَشَرَ أُسْقُفًّا مَجْلِسًا عَظِيمًا، وَجَلَسَ فِي وَسَطِهِ، وَأَخَذَ خَاتَمَهُ وَسَيْفَهُ، وَقَضِيبَهُ فَدَفَعَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: قَدْ سَلَّطْتُكُمُ الْيَوْمَ عَلَى الْمَمْلَكَةِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ.[1]

وليس هذا هو الْحُلُولُ وَالِاتِّحَادِ، كما قال الفخر الرازي وغيره، فقد قال في تفسير هذا الآية: وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: أَنَّ أُقْنُومَ الْكَلِمَةِ اتَّحَدَ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأُقْنُومُ الْكَلِمَةِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ ذَاتًا أَوْ صِفَةً، فَإِنْ كَانَ ذَاتًا فَذَاتُ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ حَلَّتْ فِي عِيسَى وَاتَّحَدَتْ بِعِيسَى فَيَكُونُ عِيسَى هُوَ الْإِلَهُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ.[2]

فليس المرادُ بذلك الحلولُ والاتحادُ، لأَنَّهُ لَازِمُ مَذْهَبِهِمْ كَمَا قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ وَالرَّازِيُّ.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، بيانٌ واضحٌ غاية الوضوح، وحكم قاطع بأنهم لا حظَّ لهم من الهداية، ولا نصيب لهم في جنة الله تعالى، وفيه ردُّ على الجهال المتملقين الذين يتورعون عن وصف النصارى بالكفر، بعدما حكم الله تعالى عليهم به.

---

١ - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (٢/ ٥٥٤)، بتصرف.

٢ - تفسير الرازي (١١/ ٣٢٨)

ولا شك أنَّ اعتقاد النصارى على اختلاف مللهم وتباين نحلهم من أقبح الكفر، وأشنعه، لذلك أقسم الله تعالى على كفرهم وضلالهم؛ فاللام في قوله تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾. هي الموطئة للقسم والتقدير: (أُقْسِمُ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ).

ولما كان الكفر معناه التغطية، استحقوا هذا الوصفَ لأنهم كفروا نعمةَ اللهِ تعالى عليهم حين جَحَدُوا أَنْ يَكُونَ الْمُنْعِمُ هُوَ بِهَا، وَنَسبوهَا لغَيْرِهِ مِمَّنْ ادَّعَوْا لَهُ الْأُلُوهِيَّةَ وعَبَدُوه من دونِ اللهِ.

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

أَيْ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤلاءِ النَّصَارَى الَّذِينَ ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، واتخذوا لهم معبودًا سِوى اللهِ ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾. أَيْ: مَنْ يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى إِنْ أَرَادَ إِهَلَاكَ الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ، وَ﴿يَمْلِكُ﴾ هنا، بِمَعْنَى يَقْدِرُ؛ ومنه قولُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْلَكَكُمْ لِإِرْبِهِ». أي: أقدركم.[١]

ومنه قولهم في المثل: (مَلكْت فأسْجِحْ)؛ أي: قدرت فأحسن العفو.

وَهَذَا مِنْ أَظْهَرِ الحُجَجِ على ضَلَالِ النَّصارَى، فلَوْ كَانَ الْمَسِيحُ إِلَهًا لَقَدرَ عَلَى دَفْعِ مَا يَنْزِلُ بِهِ أَوْ بِغَيْرِهِ، وَقَدْ مَاتَتْ أُمَّهُ وَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ دَفْعِ الْمَوْتِ عَنْهَا، ولَمَّا كانا مخلوقَيْنِ جَرَى عَليهِ وعلى أمِّهِ ما يجري على الخلقِ.

والسؤالُ هنا للْإِنْكَارِ، وَالتَّنْكِيرُ فِي ﴿شَيْئًا﴾ للتَّحْقِيرِ وهي تفيدُ الإطلاق؛ لأنها نكرة في سياق الإثبات، والمعنى: فَمَنْ ذا الذي يَقْدِرُ عَلَى أَيْ شَيْءٍ أَرَادَهُ اللَّهُ أَنْ يُحَوِّلَ دُونَ وُقُوعِهِ، ولو كَانَ إِهْلَاكَ الخَلْقِ جَمِيعًا؟

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الصَّوْمِ، بَابُ الْمُبَاشَرَةِ لِلصَّائِمِ، حديث رقم: ١٩٢٧، ومسلم- كِتَاب الصِّيَامِ، بَابُ بَيَانِ أَنَّ الْقُبْلَةَ فِي الصَّوْمِ لَيْسَتْ مُحَرَّمَةً عَلَى مَنْ لَمْ تُحَرِّكْ شَهْوَتَهُ، حديث رقم: ١١٠٦

ثم بين الله تعالى كمال غناه عن خلقه، ردًّا على النصارى واليهودِ وغيرهم فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، الكلُّ خلقه وتحت قهره وسلطانه، والكلُّ مفتقرٌ إليه، مَاالسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَقَالَ تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وَلَمْ يَقُلْ: (وَمَا بَيْنَهُنَّ)، وهنَّ سبعُ سمواتٍ وسبعُ أراضين؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ النَّوْعَيْنِ؛ أي: وَمَا بَيْنَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

رَدٌّ عَلَى النَّصَارَى الذين اعتقدوا ألوهية عيسى لأنَّه وُلِدَ مِنْ غيرِ أَبٍ، فيخلقُ من العدم كما خلق آدم عليه السلام، ويخلق من ذكر بلا أنثى كما خلق حواء عليها السلام، ويخلق من أنثى بلا ذكر كما خلق عيسى عليه السلام، ويخلق من أنثى وذكر كما خلق سائر الخلق.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

والله تعالى لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَرَادَهُ، وَلَا يفوتُهُ شَيْءٌ طَلَبَهُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ١٨

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رواهُ ابْنُ إِسْحَاقَ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا, قَالَ: أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُعْمَانُ بْنُ أَضَاءَ، وَبَحْرِيُّ بْنُ عَمْرٍو, وَشَأْسُ بْنُ عَدِيٍّ, فَكَلَّمُوهُ فَكَلَّمَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَحَذَّرَهُمْ نِقْمَتَهُ, فَقَالُوا: مَا تُخَوِّفُنَا يَا مُحَمَّدُ, نَحْنُ وَاللَّهِ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ, كَقَوْلِ النَّصَارَى, فَأَنْزَلَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ فِيهِمْ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾. إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

يخبرُ اللهُ تَعَالَى عَنْ كَذِبِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَافْتِرَائِهِمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى، بادعائهم أنهم أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، كما كذبوا عليه تعالى ونسبوا له الصَّاحِبَةَ والولدَ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

قال ابن عطية: في الكلام لفٌ وإيجازٌ يحال المستمع على تفريقه بذهنه، وذلك أن ظاهر اللفظ يقتضي أن جميع الْيَهُودِ وَالنَّصارى يقولون عن جميعهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، وليس الأمر كذلك، بل كل فرقة تقول خاصة: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، والبنوة في قولهم هذا بنوة الحنان والرأفة.[1]

وسببُ ذلك الكذب والافتراء عند الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَنَّهُ قد شاع في كتبهم استعمال لفظ الابن بمعنى الحبيب، فاغترَّ اليهود والنصارى بهذا المعنى المجازي - على كفرهم بالله تعالى - حتى ظنوا أنهم على درجة من القرب لم يصل إليها أحدٌ غيرهم؛ ففي سِفْرِ الْخُرُوجِ (٤: ٢٢): "هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البكر".

وَفِي سِفْرِ التَّثْنِيَةِ (١٤: ١) قال موسى: "أَنْتُمْ أَوْلَادٌ لِلرَّبِّ".

١ - تفسير ابن عطية (٢/ ١٧٢)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفِي إنجيل متى (٥: ٩) "طُوبَى لِصَانِعِي السَّلَامِ; لِأَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ يُدْعَوْنَ"، وفِي رِسَالَةِ بُولَس إِلَى أَهْلِ رُومِيَّةَ (٨: ١٤): " لِأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَنْقَادُونَ بِرُوحِ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمْ أَبْنَاءُ اللهِ).

وعلى هذا القول يكون عَطْفُ: ﴿وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ عَلَى ﴿أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾؛ لِلتَّفْسِيرِ وَالْإِيضَاحِ؛ ولأَنَّهُمْ قَصَدُوا أَنَّهُمْ أَبْنَاءٌ مَحْبُوبُونَ، إِذْ قَدْ يَكُونُ الِابْنُ مَغْضُوبًا عَلَيْهِ.

والراجح أنَّ العطف في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، للمغايرة، وأنهم على زعمهم أبناءُ اللهِ على الحقيقة، وإن لم يكونوا كعيسى عليه السلام في اعتقادهم، بدلالة قوله تعالى ردًّا عليهم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾.

ثم ردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾. ردَّ عليهم مرة أخرى فقال: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾، أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: لِهَؤُلَاءِ الْمُفْتَرِينَ المغرُورِين رَبِّهِمْ: فَلِأَيِّ شَيْءٍ يُعَذِّبُكُمْ رَبُّكُمْ بِذُنُوبِكُمْ إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَبْنَاؤُهُ وَأَحِبَّاؤُهُ؟ فإنكم تقرون أن الله سيعذبكم؛ فكيف تكونون أَبْنَاءَهُ وَأَحِبَّاءَهُ، والْحَبِيبُ لَا يُعَذِّبُ حَبِيبَهُ؟

﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾.

يُحَاسِبُكُمْ كَسَائِرِ خَلْقِهِ، وليس بينكم وبينه نسب كما تزعمون، ولا محبة كما تدعون.

﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أَيْ: لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ؛ لِعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ؛ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ مِمَنْ مَاتَ على الإيمانِ رحمةً منه وفضلًا، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ مِمَنْ مَاتَ على الكفرِ والعصيانِ حكمةً منه وعدلًا، ولا يسئل عما يفعل

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

أَي: جَمِيعُ الخَلْقِ عَبِيدٌ لَهُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، يَفْعَلُ فيهم مَا يَشَاءُ لَا رَادَّ لأَمْرِهِ ولَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

أَي: وَإِلَيْهِ مَرْجِعُ الخَلْقِ جميعًا، فَيَحْكُمُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ١٩

ما زال الكلام في سياق إقامة الحجة على أهل الكتاب ببعثة رسولِ اللهِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ، قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَيِّنُ لَكُمْ، أي: وَيُرْشِدُكُمْ إِلَى الدِينِ الحقِّ، وإلى ما يحبه الله ويرضاه لعباده، وذلك لانحرافهم عن منهج الله تعالى.

﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

أي: عَلَى انْقِطَاعٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَالْفَتْرَةُ هُنَا: الِانْقِطَاعُ؛ يقال: فَتَرَ الشَّيْءُ يَفْتُرُ فُتُورًا إِذَا سَكَنَتْ حِدَّتُهُ ولان بعد شدتِهِ، وضَعُفَ بعد قوتِهِ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]؛ أَيْ لَا يَضْعُفُونَ وَلَا يَنقطعُونَ.

وقَالَ الرازي: وَسُمِّيَتِ الْمُدَّةُ الَّتِي بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ فَتْرَةً لِفُتُورِ الدَّوَاعِي فِي الْعَمَلِ بِتِلْكَ الشرائع.[١]

وَالصحيحُ أَنها سُمِّيَتِ فَتْرَةً لانْقِطَاعِ الوَحْيِ بانْقِطَاعِ بعثةِ الرُّسُلِ؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

ودلَّ على ذلك ما ثبت عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ».[٢]

١ – تفسير الرازي (١١/ ٣٣٠)

٢ – رواه مسلم– كتاب الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، بَابُ الصِّفَاتِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ، حديث رقم: ٢٨٦٥

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وكان بين بعثة النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورفْعِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَمْسُمِائَةٍ وَإحدى وسبعينَ سَنَةً، ولم يكن بين رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيٌّ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، وَالأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ».[١]

﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ﴾.

(أَنْ) هنا نافية، أَيْ: لِئَلَّا تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ رَسُولٍ يُبَشِّرُنَا بالجَنَّةِ آمن بالله تعالى وأطاع رسله، وَيُنْذِرُنَا النَّارَ لمن كفر بالله تعالى وعصى رسله.

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾.

أَيْ: فَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ يُبَشِّرُكُم بالجَنَّةِ والرضوانِ حال الطاعةِ والإيمانِ، وَيُنْذِرُكُمْ النَّارَ وسخطَ الجبارِ حالَ الكفرِ والعصيانِ.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أَيْ: لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَرَادَهُ وَلَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ طَلَبَهُ، ومن ذلك: إثابةُ من أطاعه، وعقابُ من عصاه.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦]، حديث رقم: ٣٤٤٢، ومسلم- كتاب الْفَضَائِلِ، بَابُ فَضَائِلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حديث رقم: ٢٣٦٥

www.alukah.net

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٢٠- ٢٢

مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا أن الله تعالى لما أَخَذَ المِيثاقَ على بَنِي إِسْرائِيلَ بالإيمان به وطاعته وطاعة رسله عليهم السلام، وأنهم نقضوا هذا الميثاق، ونبذوه وراءهم ظهريًّا، وأهانوا رسل الله وكذبوهم، وقد أمروا بتعزيرهم وتوقيرهم والإيمان بهم، ذكر الله تعالى هنا قصةً شاهدة على نقضهم عهدَ اللهِ، وسوءِ أدبهم معه ومع أعظم أنبياء بني إسرائيل موسى عليه السلام، وفي ذلك تسليةٌ لرسولِ اللهِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبيانٌ لعلةِ كفرهم به مع معرفتهم له، ويقينهم برسالته، فكما تمرَّدَ أَسلافُهُم على نبِي اللهِ موسى عليه السلام، تمرد هؤلاء على رسولِ اللهِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما أرسل الله تعالى رسوله محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حين فترة من الرسل، وانقطاع من الوحي ودروس من العلم؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾. [الْمَائِدَةِ: ١٩]، وكان المتبادر إلى الأذهان أن يكون أهل الكتاب لاسيما اليهود أول من يؤمن به؛ لما تواتر عندهم من البشارات به، ولما يعرفونه من صفاته الخَلْقِيةِ والخُلُقِية، ومن صفة أرض مبعثه، لكنهم حسدوه فآثروا الكفر على الإيمان، ولجوا في العناد والطغيان، وأسرفوا في الإعراض والعصيان، فبين الله تعالى لرسوله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن هذا دأبهم وديدنهم، وقد فعلوا أكثر من هذا مع نبيهم موسى عليه السلام.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أي: اذكر يا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ الكلامُ معطوفًا على قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ [المائدة: ١٢]، لتعلقِ الكلامِ به كما بيَّنَا؛ وتقديره: وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ فنقضوه، وآية ذلك ما أجابوا به رسولهم موسى حين أمرهم بدخول الأرض المقدسة.

﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: اذْكُرُوا آلَاءَهُ التي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيكُم، و﴿نِعْمَةَ﴾ اسمُ جنسٍ تَشْمَلُ كُلَ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى بِهَا عَلَيهِم، قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، "أَيَادِيَ اللَّهِ عِنْدَكُمْ وَأَيَّامَهُ".[١]

ثم عدد الله تعالى عليهم بعضًا منها فقال: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾، وبدأ بأعظم نعمه عليهم وهي نعمة أرسال الرسلِ يرشدون الضالَ منهم، ويعلمون الجاهل، ويبصرونهم من العمى، ويبينون لهم محابَ الله ومساخطه، ولم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء.

﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾.

أَيْ أعطاكم من الدنيا، ووسع عليكم في المعاش، حتى ملككم الدور، وأفاض عليكم من الأموال، وجعلكم أصحاب خدم، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي أَصْحَابَ خَدَمٍ وَحَشَمٍ.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هَلِ الْمُلْكُ إِلَّا مَرْكَبٌ وَخَادِمٌ وَدَارٌ؟

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيُّ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَسَأَلَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: أَلَسْنَا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ: «أَلَكَ امْرَأَةٌ تَأْوِي إِلَيْهَا؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «أَلَكَ مَسْكَنٌ تَسْكُنُهُ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَنْتَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ»، قَالَ: فَإِنَّ لِي خَادِمًا، قَالَ: «فَأَنْتَ مِنَ الْمُلُوكِ».[٢]

---

١ - تفسير الطبري (٨/ ٢٧٧)

٢ - رواه مسلم- كِتَابُ الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، حديث رقم: ٢٩٧٩

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ السُّدِّيُّ: وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا أحرارًا تملكون أمرَ أنفسكم بعد ما كُنْتُمْ فِي أَيْدِي الْقِبْطِ يَسْتَعْبِدُونَكُمْ.

﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

يعني من صنوف النعم؛ كالمن والسلوى وتظليل الغمام، وانبجاس عيون الماء من الحجر، وغيرها من النعم، التي آثرهم الله بها على أهل زمانهم.

قال مُجَاهِدٌ: يَعْنِي أَهْلَ ذَلِكَ الزَّمَانِ، الْمَنَّ وَالسَّلْوَى وَالْحَجَرَ وَالْغَمَامَ.

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

ثم أمرهم بدخول الأرض المقدسة وهي بيت المقدس، وأخبرهم الله تعالى هو الذي أمرهم بدخولها، و(كَتَبَ) تأتي في القرآن على خمسةِ أوجهٍ: منها الأمر؛ كما في هذه الآية: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: التي أَمَرَكُم بدخولها.

قَضَى وَقَدَّرَ؛ كما في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [الْمُجَادَلَةِ:٢١]، أي: قَضَى.

وتأتي بمعنى فَرَضَ؛ كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ﴾ [الْبَقَرَةِ: ٢١٦]، أي: فُرِضَ وَوَجَب، وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، أي: فرضنا عليهم.

وتأتي بمعنى جعل؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الْمَائِدَةِ: ٨٣]، أي: اجعلنا مع الشاهدين.

وتأتي بمعنى الكتابة المعروفة الكتب المعروف، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ أي: اكتبوا مبلغ الدَّين.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

أي: لا ترجعوا عن طاعة ربكم بمخالفتكم أمره، وأمر رسوله، ويحتمل أن يكون المراد لا ترجعوا مرتدين على أعقابكم، بسبب خوفكم من قتلا من فيها مِنَ الوثَنِيِّينَ، وَقَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ قِتَالَهُمْ، فتخسروا دنياكم بالعيش أذلةً، وتخسروا آخرتكم بما تستحقونه من العذاب.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾.

لما أمرهم موسى عليه السلام بالجهاد نكصوا على أعقابهم، وظهر جبنهم، وحبهم للدنيا، وآثروا العيش أذلةً على الجهاد في سبيل الله تعالى؛ لما في الجهادِ من بذل النفوس، وسفك الدماء؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. [الْبَقَرَةِ: ٩٦]، مع ما يتصفون به من العناد والاستكبار على أمر الله وأمر رسوله.

ثم بحثوا لهم عن ذريعة يتذرعون بها لتبرير العصيان، وتسويغ المخالفة، فقالوا: ﴿يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، ورووا في كتبهم روايات لا تستقيم شرعًا ولا تقبل عقلًا، وبالغوا في وصف أهل هذه المدينة، ليلتمس خلفهم لسلفهم العذر في الجبن والخور ومعصية الله ورسوله عليه السلام، والعجيب أن بعض المفسرين اغتروا بتلك الروايات فنقلوها في كتبهم، مع أنها يستحي من ذكرها كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله، فضلًا عن تصديقها.

وقولهم: ﴿يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، لا يلزم منه أبدًا أن تكون خلقتهم عظيمة، إنما يقال هذا الوصف للقويّ الجريءِ الذي لا يهابُ أحدًا، وَالْجَبَّارُ: مُشْتَقٌّ مِنَ الْجَبْرِ، وَهُوَ الْإِلْزَامُ لِأَنَّه يَجْبُرُ النَّاسَ عَلَى مَا يُرِيدُ، وبنوا إسرائيل لضَعْفِ قُلوبِهم، وخَوَرِهم، وشدَّةِ جبْنِهم، يتضاءلون أمام كل من قاتلهم، كما قال الله تعالى عنهم في معرض الحديث عن جيش طالوت: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾.[1]

١ - سورة البقرة: الآية/ ٢٤٩

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

امتنعوا عن مقاتلة أعدائهم غاية الامتناع حتى أكدوا ذلك الامتناع بـ (لن) التي تفيد النفي في الحال والاستقبال، وعلقوا ذلك على شرط محال، وهو خروج أهل تلك البلاد منها بغير قتال، أو بقتال غيرهم؛ لذلك قالوا: ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا﴾، التي تفيد الشك، وما قالوا (فإذا خرجوا)، لعلمهم أنهم لن يخرجوا بغير قتال؛ فكان هذا تعليقًا على محال؛ كقول الله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾.[1]

١ – سُورَةُ الْأَعْرَافِ: الآية/ ٤٠

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٢٣

لما عصى بنو إسرائيل أمر الله تعالى وأمر رسوله موسى عليه السلام، ونكلوا عن قتال أعدائهم، ذكر الله تعالى مقولة رجلين منهم وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾، وفي الكلام إيجازٌ بالحذف تقديره: (من الذين يخافون عقاب الله)؛ لأن الخوف مذمومٌ إلا إذا كان من الله تعالى، وقد ذكرهم الله تعالى في معرض الثناء، وفي الكلام تعريض ببني إسرائيل الذين لا يرجون لله وقارًا، ولا يخافون منه عقابًا.

ووصفهم الله تعالى بوصف آخر فقال: ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾، وقَصْرُ الحكمِ عليهما يدلُّ على أنها نعمةٌ خاصةٌ، خصهما الله تعالى بها، وهي نعمة الهداية والإيمان، ونعمة الاستقامة والرشاد، وفيها أيضًا تعريضٌ ببني إسرائيل، أنهم ليسوا كذلك؛ كما قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾.[1]

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ وغيرهم: إِنَّهُمَا (يُوشَعُ بْنُ نُونٍ) وَ (كَالِبُ بْنُ يُوفِنَا)، ونقول لا فائدة في تعيين ما أبهمه الله تعالى لا سيما إذا كان لا سبيل إلى العلم به إلا عن طريق أهل الكتاب.

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾.

أي: امتثلوا أمر الله تعالى، وادخلوا على أعدائكم من باب مدينتهم، فإذا دخلتموه قذف الله تعالى في قلوبهم الرعب منكم وكانت لكم الغلبة عليهم، فقد ضمن الله تعالى النصر لمن نصر دينه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الْحَجّ:٤٠]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.[2]

١ - سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٤١

٢ - سورة الْمُجَادَلَةِ: الآية/ ٢١

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ثم أرشدا قومهما إلى التوكل على الله تعالى، وهو صدق اعتماد القلب على الله مع الاخذ بالأسباب، فهو يتضمن أمرين: الثقة في موعود الله تعالى والأخذ بالأسباب، والخلل في واحد منهما يفضي إلى الهلاك، ولا يتحقق النصر إلا بتحقيق التوكل على الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.[1]

وفي قولهما: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، تذكيرٌ لهم بوعد اللهِ تعالى بالنصر لمن أطاعه، ونصر دينه، والشَّكُّ فِي صِدْقِ الله تعالى، وصدق رسولهِ عليه السلام مُبْطِلٌ لِلْإِيمَانِ.

١ – سورة آل عمران: الآية/ ١٦٠

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٢٤

لما قال الرجلان لهم ما قالا، توجه بنو إسرائيل بالخطاب لموسى لعدم اكتراثهم بما قال الرجلان، ولقطع كل رجاءٍ عند موسى في استجابتهم له، وأكدوا كلامهم إمعانًا في العصيان، ومبالغة في الغي والطغيان، فقالوا: ﴿يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾، فأساؤوا الأدب في مخاطبتهم لنبيهم باسمه، وفي امتناعهم عن طاعة الله وطاعة رسوله، وفي المبالغة في تأكيد العصيان.

ثم بلغ بهم سوء الأدب منتهاه حين أساؤوا الأدب مع الله تعالى فقالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾.

وقول اليهود: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾، دليل على فساد اعتقادهم، ويشاركهم النصارى في هذا الاعتقاد الفاسد، أن الله تعالى كالبشر يجري عليه ما يجري على البشر، ويصيبه ما يصيبهم، فإنهم يعنون بالمقاتلة ما يتبادر إلى الذهن، وفي التوراة من ذلك شيء كثير، ومن ذلك ما ورد في سفر التكوين الإصحاح/ ٣٢: (فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسانٌ حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُقَّ فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال أطلقني لأنه طلع الفجر، فقال لا أطلقك إن لم تباركني).

فانظر إلى حال قوم موسى مع نبيهم، وانظر إلى الصحابة الكرام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ، يَقُولُ: شَهِدْتُ مِنَ المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ مَشْهَدًا، لَأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى المُشْرِكِينَ، فَقَالَ: لاَ نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ، وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ

عَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ «فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ». [١]

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: "لَمَّا سَارَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى بَدْرٍ خَرَجَ فَاسْتَشَارَ النَّاسَ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ اسْتَشَارَهُمْ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ عُمَرُ، فَسَكَتَ"، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: إِنَّمَا يُرِيدُكُمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ لَا نَكُونُ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾، وَلَكِنْ وَاللهِ لَوْ ضَرَبْتَ أَكْبَادَهَا حَتَّى تَبْلُغَ بَرْكَ الْغِمَادِ لَكُنَّا مَعَكَ. [٢]

ولما استشار رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه حين سار إلى بدرٍ، قَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: وَاَللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ أَجَلْ، قَالَ: فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا، عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَكَ، فو الّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ. لَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ. فَسُرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِ سَعْدٍ. [٣]

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ المَغَازِي، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ. إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٠]، حديث رقم: ٣٩٥٢

٢ - رواه أحمد- حديث رقم: ١٢٠٢٢، والنسائي في الكبرى- كِتَابُ الْمَنَاقِبِ، ذِكْرُ خَيْرِ دُورِ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، حديث رقم: ٨٢٩٠، وابن حبان- بَابُ الْخُرُوجِ، وَكَيْفِيَّةِ الْجِهَادِ، ذِكْرُ الِاسْتِحْبَابِ لِلْإِمَامِ، أَنْ يَسْتَشِيرَ الْمُسْلِمِينَ وَيَسْتَثْبِتَ آرَاءَهُمْ، عِنْدَ مُلَاقَاةِ الْأَعْدَاءِ، حديث رقم: ٤٧٢١، بسند صحيح

٣ - سيرة ابن هشام (١/ ٦١٥)

وقولهم: ﴿إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾، ليس إخبارًا عن حالهم، وإنما قالوا إمعانًا في العصيان، ومبالغة في الاستهزاء، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.[1]

١ – سورة التوبة: الآية/ ٤٦

www.alukah.net

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٢٥، ٢٦

لما بالغ بنو إسرائيل في العصيان، وأساؤوا الأدب مع الله تعالى ومع رسوله موسى عليه السلام، تبرأ إلى الله تعالى من عصيانهم، وغضب عليهم، وتوجه إلى الله تعالى بالشكوى والدعاء عليهم.

أي: لا أقدر على حملِ أحدٍ طاعتك، إلا نفسي وأخي، ويحتمل أن كون المراد: لا أقدر على حمل طاعتك، إلا نفسي وأخي لا يقدر على حملِ أحدٍ طاعتك إلا نفسه.

﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

الْفَرْقُ: هو الْفَصْلُ بَيْنَ الأشياء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: يفصمون ما بينهما من عرى المودة ووشائج القربى، فيفصلون هذا عن هذا.

ومنه قَوْلُ الشَّاعِرِ:

يَا رَبِّ فَـــافْرُقْ بَيْنَـــهُ وَبَيْـــنِي ***** أَشَـدَّ مَـا فَرَّقْـتَ بَـيْنَ اثنـين

وهذا هو المعنى المراد هنا؛ أي: افصلنا عنهم فلا تؤاخذنا بما فعلوا، ولا تعذبنا بمعصيتهم.

وما قال: فافرق بيننا وبينهم، وإنما قال: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، ليسجل عليهم الفسوق والمروق من الدين بما قالوا.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾.

التِّيه: المفَازَة لا يهتدى فِيهَا، يقال: تَاهَ فِي الأَرض، أَي ذَهَبَ مُتحَيِّرًا وضَلَّ.

قال النابغة:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

هَـــا أن تَا عِـــذْرَةٌ إِلاّ تَكُـــنْ نَفَعَـــتْ ***** فَـــإن صَـــاحِبَهَا قَـــدْ تَاهَ فِي البَلَـــدِ

يعني: إن لم تقبل عُذْري فإنّي أضلّ فِي الْبَلدة الَّتِي أنا فِيهَا لشدةِ خوفي من وعيدك.

أي: قَالَ: فَإِنَّ الأرضَ المقدسةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وعلى هذا يكون الوقف على لفظ: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ تامًّا، ثم حكم الله تعالى عليهم بالتيه فقال: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾، فكانوا سيارة لا قرار لهم، يسيرون يومهم وليلتهم ثم يصبحون حيث أمسوا، وظلظا على ذلك أربعين سنة فماتوا جميعًا في التيه ولم يدخلها منهم أحدٌ.

والقول الثاني: فَإِنَّ الأرضَ المقدسةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً، يَتِيهُونَ خلالها فِي الأَرْضِ، فلما انقضت أُذن لهم في دخولها، دخلها يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، بِمَنْ بَقِيَ منهم ومِنَ الْجِيلِ الثَّانِي مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ويمكن الجمع بين القولين فيقال: حرمها الله تعالى أبدًا على أولئك الذين امتنعوا عن الدخول حتى ماتوا جميعًا في التيه، ثم أذن الله لمن أتى بعدهم في دخولها، وماتَ فِي التِّيهِ مُوسَى، فَلَمَّا مَضَتِ الْأَرْبَعُونَ سَنَةً دعاهم يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، إلى الجهاد ودخول الأرض المقدسة فافْتَتَحَهَا؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لاَ يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا؟ وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلاَ أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلاَ أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلاَدَهَا، فَغَزَا فَدَنَا مِنَ القَرْيَةِ صَلاَةَ العَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الغَنَائِمَ، فَجَاءَتْ يَعْنِي النَّارَ لِتَأْكُلَهَا، فَلَمْ تَطْعَمْهَا فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الغُلُولُ، فَلْيُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الغُلُولُ، فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَوَضَعُوهَا، فَجَاءَتِ النَّارُ، فَأَكَلَتْهَا ثُمَّ أَحَلَّ اللَّهُ لَنَا الغَنَائِمَ رَأَى ضَعْفَنَا، وَعَجْزَنَا فَأَحَلَّهَا لَنَا".[١]

١ - رواه البخاري- كِتَابُ فَرْضِ الخُمُسِ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُحِلَّتْ لَكُمُ الغَنَائِمُ»، حديث رقم: ٣١٢٤، ومسلم- كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ تَحْلِيلِ الْغَنَائِمِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ خَاصَّةً، حديث رقم: ١٧٤٧

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

أَيْ: لَا تَتَأَسَّفْ عَلَيْهِمْ، ولا تحزنْ، وَالْأَسَى: الْحُزْنُ، ووضع الظاهر موضع الضمر للتشنيع عليهم بوصف الفسق.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٢٧- ٣١

مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لما قصَّ الله تعالى علينا ما فعله بنو إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام، من المبالغة في الإعراض، والإسراف في العصيان، وبيَّنَ أن هذا دأبهم وديدنهم، وأنه سببُ عدم إيمانهم برسول الله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع أنه بعث مقومًا لما اعوج من دينهم، ومجددًا لما اندرس من عقيدتهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾. [الْمَائِدَةِ: ١٩]، فبالغوا في الإعراض، وشطوا في النأي عن سواء الصراط، حسدًا لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بيَّنَ في هذه الآيات أن لهم سلفًا يقتدون به في الحسدِ؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. [النِّسَاءِ: ٥٤]، ويقتفون آثاره في الإسراف في العصيان؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾. [الْمَائِدَةِ: ٣٢]، فذكر قصة ابني آدم وفيها مثال على الحسد، والإسراف في البغي.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾.

يقول الله تعالى لرسوله محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: اقصص على هؤلاء اليهود ذلك الخبر العظيم، عما جرى بين ابني آدم؛ ليعتبروا بما فيها من العبر، وليحذروا من مغبة البغي والحسد.

وقد ذكر المفسرون أنَّ ابنَيْ آدَمَ هما قابيل وهابيل، وهذا مما أبهمه القرآن فلا فائدة في تعيينه.

وهما من صلب آدم عليه السلام بخلاف ما قاله الحسن البصري: كَانَا رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ - ضَرَبَ اللَّهُ بِهِمَا الْمَثَلَ فِي إِبَانَةِ حَسَدِ الْيَهُودِ - وَكَانَ بَيْنَهُمَا خُصُومَةٌ، فَتَقَرَّبَا بِقُرْبَانَيْنِ وَلَمْ تَكُنِ الْقَرَابِينُ إِلَّا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ. وإنَّما كانا ابنَيْ آدمَ لِصُلْبِهِ؛ لما ثبت عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تُقْتَلُ نَفسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ».[1]

وقد كان القتل معروفًا قبل بني إسرائيل، وعرفت كذلك سنة الدفن.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ خَلْقِ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَذُرِّيَّتِهِ، حديث رقم: ٣٣٣٥، ومسلم- كِتَابُ الْقَسَامَةِ وَالْمُحَارِبِينَ وَالْقِصَاصِ وَالدِّيَاتِ، بَابُ بَيَانِ إِثْمِ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ، حديث رقم: ١٦٧٧

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾.

قوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ لبيان أن قصص القرآن ليس كغيره من القصص، فهو حقٌّ لا باطل فيه، وصدقٌ لا يخالطه كذبٌ؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الْكَهْفِ:١٣]، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.[١]

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾.

يخبرنا الله تعالى أَنَّ ابْنَيْ آدمَ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ, وَقِيلَ كَانَ أحدُهما رَاعِيًا لِلْغَنَمِ واسمه هَابِيلُ، وَكَانَ الآخرُ فَلَّاحًا صاحِبَ زرعٍ واسمه قَابِيلُ، فَقَرَّبَ هَابِيلُ مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ قُرْبَانًا، وَقَرَّبَ قَابِيلُ مِنْ ثِمَارِ حَرْثِهِ قُرْبَانًا، وكان الأولُ صالحًا تقيًّا، وكان الآخرُ فاجرًا شقيًّا كما دلَّ عليه سياق الآيات، فتقبل الله تعالى قربان الصالح التقي، ولم يتقبل من الآخر لعصيانه، كما سيأتي بيان ذلك.

وقَدْ ذَكَرَ المفسِّرُونُ هُنا أَنَّهُ كَانَ يُولَد لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي كُلِّ بَطْنٍ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، فَكَانَ يُزَوِّجُ أُنْثَى هَذَا الْبَطْنِ لِذِكْرِ الْبَطْنِ الْآخَرِ، وَكَانَتْ أُخْتُ هَابِيلَ دَميمةً، وَأُخْتُ قَابِيلَ وَضِيئَةً، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْثِرَ بِهَا عَلَى أَخِيهِ، فَأَبَى آدمُ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يُقَرِّبَا قُرْبَانًا، فَمَنْ تُقُبِّلَ مِنْهُ فَهِيَ لَهُ، فَقَرَّبَا فَتُقُبِّل مِنْ هَابِيلَ وَلَمْ يتَقَبَّل مِنْ قَابِيلَ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمَا مَا قَصَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ.

ولم يذكر الله تعالى أن علة تقريب القربان المنافسة على الزواج من امرأة، ولم يرد شيءٌ من ذلك عن المعصومِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يصحْ في ذلك أَثَرٌ، فلا فائدةَ في ذكرِه، وإنما كانت علة القتل الحسدُ مع ما اجتمعَ عنده من الفجورِ والعصيانِ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: إِنَّ ابْنَيْ آدَمَ اللَّذَيْنِ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ، كَانَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَ حَرْثٍ، وَالْآخَرُ صَاحِبَ غَنَمٍ، وَأَنَّهُمَا أُمِرَا أَنْ يُقَرِّبَا قُرْبَانًا؛ وَإِنَّ صَاحِبَ الْغَنَمِ قَرَّبَ أَكْرَمَ غَنَمِهِ وَأَسْمَنَهَا وَأَحْسَنَهَا طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ, وَإِنَّ صَاحِبَ الْحَرْثِ قَرَّبَ شَرَّ حَرْثِهِ

١ - سُورَةُ يُوسُفَ: الآية/ ١١١

www.alukah.net

الْكُوزَنَ وَالزُّوَانِ غَيْرَ طَيِّبَةٍ بِهَا نَفْسُهُ؛ وَإِنَّ اللهَ تَقَبَّلَ قُرْبَانَ صَاحِبِ الْغَنَمِ وَلَمْ يَتَقَبَّلْ قُرْبَانَ صَاحِبِ الْحَرْثِ. وَكَانَ مِنْ قِصَّتِهِمَا مَا قَصَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَقَالَ: أَيْمُ اللَّهِ، إِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ لَأَشَدَّ الرَّجُلَيْنِ، وَلَكِنْ مَنَعَهُ التَّحَرُّجُ أَنْ يَبْسُطَ يَدَهُ إِلَى أَخِيهِ.[1]

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

لما قال قابيل لأخيه لأقتلنك ذكره بالله تعالى، وخوفه عقابه إن هو أقدم على ذلك بأبلغ عبارة وذكر له أمورًا أربعةً تمنعه من مقاتلته ولو على سبيل المدافعة لعله أن يرتدع عن غيِّهِ، ويثوب إلى رشده؛ أولها الامتناع عن مقاتلته وإخباره بذلك؛ قال: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾، وتقدم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قولُهُ: كَانَ هَابِيلُ أَشَدَّ الرَّجُلَيْنِ, وَلَكِنْ مَنَعَهُ التَّحَرُّجُ أَنْ يَبْسُطَ يَدَهُ إِلَى أَخِيهِ.

وهذا الذي فعله من الامتناع عن المدافعة والمقاتلة مباحٌ شرعًا، ويجبُ عند الفتن؛ فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ أَنْتَ، وَقَتْلًا يُصِيبُ النَّاسَ حَتَّى تُغْرَقَ حِجَارَةُ الزَّيْتِ بِالدَّمِ؟» قُلْتُ: مَا خَارَ اللَّهُ لِي وَرَسُولُهُ، قَالَ: «الْحَقْ بِمَنْ أَنْتَ مِنْهُ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا آخُذُ بِسَيْفِي، فَأَضْرِبَ بِهِ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، قَالَ: «شَارَكْتَ الْقَوْمَ إِذًا، وَلَكِنِ ادْخُلْ بَيْتَكَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنْ دُخِلَ بَيْتِي؟ قَالَ: «إِنْ خَشِيتَ أَنْ يَبْهَرَكَ شُعَاعُ السَّيْفِ، فَأَلْقِ طَرَفَ رِدَائِكَ عَلَى وَجْهِكَ، فَيَبُوءَ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ، فَيَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».[2]

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ عِنْدَ فِتْنَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ،

١ - تفسير الطبري (٨/ ٣١٨)

٢ - رواه أحمد- حديث رقم: ٢١٤٤٥، وأبو داود- كِتَاب الْفِتَنِ وَالْمَلَاحِمِ، بَابٌ فِي النَّهْيِ عَنِ السَّعْيِ فِي الْفِتْنَةِ، حديث رقم: ٤٢٦١، وابن ماجه- كِتَابُ الْفِتَنِ، بَابُ التَّثَبُّتِ فِي الْفِتْنَةِ، حديث رقم: ٣٩٥٨، بسند صحيح

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وَالقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الماشِي، وَالماشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي» قَالَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلَ عَلَيَّ بَيْتِي وَبَسَطَ يَدَهُ إِلَيَّ لِيَقْتُلَنِي؟ قَالَ: «كُنْ كَابْنِ آدَمَ».[١]

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ».[٢]

ومما يدل على جواز دفع الصائل، وردِّ المعتدي في غير الفتن، ما ثبت عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ».[٣]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟ قَالَ: «فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ: «قَاتِلْهُ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: «فَأَنْتَ شَهِيدٌ»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: «هُوَ فِي النَّارِ».[٤]

والأمر الثاني الذي ذَكَرَهُ له ليردعه عن القتل قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، وفي هذا تعريض به، أي: ليس هذا الذي تريده شأن من يخافُ الله فاتق الله. فهو خبرٌ في صورة أمر.

---

١ – رواه أحمد– حديث رقم: ١٤٤٦، وأبو داود– كِتَاب الْفِتَنِ وَالْمَلَاحِمِ، بَابٌ فِي النَّهْيِ عَنِ السَّعْيِ فِي الْفِتْنَةِ، حديث رقم: ٢٤٥٧، والترمذي– أَبْوَابُ الْفِتَنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ مَا جَاءَ أَنَّهُ تَكُونُ فِتْنَةٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، حديث رقم: ٢١٩٤، بسند صحيح

٢ – رواه البخاري– كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابُ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، حديث رقم: ٣١، ومسلم– كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، حديث رقم: ٢٨٨٨

٣ – رواه البخاري– كِتَاب المظَالِمِ وَالغَصْبِ، بَابُ مَنْ قَاتَلَ دُونَ مَالِهِ، حديث رقم: ٢٤٨٠، ومسلم– كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَنْ قَصَدَ أَخْذَ مَالِ غَيْرِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، كَانَ الْقَاصِدُ مُهْدَرَ الدَّمِ فِي حَقِّهِ، وَإِنْ قُتِلَ كَانَ فِي النَّارِ، وَأَنَّ مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، حديث رقم: ١٤١

٤ – رواه مسلم– كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَنْ قَصَدَ أَخْذَ مَالِ غَيْرِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، كَانَ الْقَاصِدُ مُهْدَرَ الدَّمِ فِي حَقِّهِ، وَإِنْ قُتِلَ كَانَ فِي النَّارِ، وَأَنَّ مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، حديث رقم: ١٤٠

قوله تَعَالَى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

الأمر الثالث الذي ذَكَرَهُ له ليردعه عن القتل قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾؛ أي: إنما أكف يدي عنك لترجع إلى الله بإثم قتلي، وإثمك الذي من أجله لم يتقبل قربانك، قال ابن مسعود وابن عباس: (إِثْمَ قَتْلِي إِلَى إِثْمِكَ الَّذِي فِي عُنُقِكَ).[1]

﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾؛ أي: فَتَكُونَ بِقَتْلِكَ إِيَّايَ مِنْ أَهلِ النَّارِ الذين يلازمونها ملازمة الصاحب لصاحبه، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خَوَّفَهُ النَّارَ فَلَمْ يَنْتَهِ وَلَمْ يَنْزَجِرْ.

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: وَذَلِكَ الجزاءُ في النار جَزَاءُ الظَّالِمِينَ، وهذا هو الأمر الرابع الذي ذكره له ليردعه عن قتله؛ أي: هذا الذي تفعله ظلمٌ سترى مغبته يوم القيامة، واعتداء ستجد وباله إذا قدمت على الله تعالى.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾.

التطويع: الانقياد، وذكر هذا اللفظ هنا لبيان حالة قابيل حين عزم على قتل أخيه، وأنه تردد في قتله، وأنه كان في صراع نفسي قبل قتله، تدفعه نوازع الشر للقتل، ويكفه الخوف من الإثم والعقاب، فلما أراد قتله وأقدم عليه طاوعته نفسه الأمارة بالسوءِ، وزينت له القتل.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

خسر نفسه بإهلاكها، وخسر آخرته فليس له في الآخرة إلا النار.

---

١ - تفسير الطبري (٨/ ٣٣١)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ».[1]

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾.

لما قتل ابن آدم أخاه ظل متحيرًا لا يدري ما يفعل بجثته، ولا يعلم سنة الدفن حتى رأى غرابًا يدفن غرابًا ميتًا؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَعَثَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ غُرَابًا حَيًّا إِلَى غُرَابٍ مَيِّتٍ، فَجَعَلَ الْغُرَابُ الْحَيُّ يُوَارِي سَوْأَةَ الْغُرَابِ الْمَيِّتِ، فَقَالَ ابْنُ آدَمَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ: ﴿يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ الْآيَةُ.[2]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بَعَثَ اللَّهُ غُرَابَيْنِ فَاقْتَتَلَا حَتَّى قَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ ثُمَّ حَفَرَ فَدَفَنَهُ. وَكَانَ ابْنُ آدَمَ هَذَا أَوَّلَ مَنْ قُتِلَ.[3]

وَقَالَ قَتَادَةُ: قَتَلَ غُرَابٌ غُرَابًا فَجَعَلَ يَحْثُو عَلَيْهِ، فَقَالَ ابْنُ آدَمَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ حِينَ رَآهُ: ﴿يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.[4]

والبعث هنا معناه: الإثارة والدفع نحو عمل شيء ما.

و(يَبْحَثُ) أي: يُفَتِّشُ التُّرَابَ بِمِنْقَارِهِ وَيُثِيرُهُ.

﴿قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾.

﴿يَا وَيْلَتَا﴾، كلمة تحسر وتلهف وتستعمل عند وقوع المصيبة العظيمة، ومعناها: يَا وَيْلَتَا هذا أوانك فاحضري، وَأَصْلُهَا يَا لَوَيْلَتِي، جعل الألف عوضًا عن الياء، نحو: يَا عَجَبَا، ويا أسفا.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ خَلْقِ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَذُرِّيَّتِهِ، حديث رقم: ٣٣٣٥، ومسلم- كِتَابُ الْقَسَامَةِ وَالْمُحَارِبِينَ وَالْقِصَاصِ وَالدِّيَاتِ، بَابُ بَيَانِ إِثْمِ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ، حديث رقم: ١٦٧٧

٢ - تفسير الطبري (٨/ ٣٤١)

٣ - تفسير القرطبي (٦/ ١٤١)

٤ - تفسير الطبري (٨/ ٣٤٣)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَالِاسْتِفْهَامُ فِي قوله: ﴿أَعَجَزْتُ﴾ إِنْكَارِيٌّ، وقوله: ﴿مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾، احتقارًا لنفسه وازدراءًا لها.

والسوءة: ما يسوء الإنسان رؤيته، والمراد هنا جسد ابن آدم قتيلًا.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

النَّدَمُ: هو الأَسَفُ عَلَى ما صَدَرَ منه مِن القبيح.

ولم يكن ندمه ناشئًا عن الخوف من عقاب الله تعالى؛ لما تقدم عن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ». تقدم تخريجه

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٣٢

قدمنا أن مناسبة هذه الآيات لما قبلها تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن إعراض اليهود عن الإيمان به واتباعه مع معرفتهم به ويقينهم برسالته، وفي هذه الآية زيادة بيان لحال هؤلاء اليهود المغضوب عليهم، فمع أن الله تعالى كتب عليهم: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾، فهم أشد الناس جرأة على قتل الأنبياء، فكأنه يقول له: فلا تأس يا محمد لكفرهم بك، وصدهم الناس عن الإيمان بك، قد قتلوا من قتلوا من الأنبياء مع ما بيناه لهم من تغليظ شأن القتل وسوء عاقبة القاتل.

وخص بنو إسرائيل بالذكر هنا، وإن كان القتل محرمًا على من قبلهم من الأمم، وتغليظ شأنه ثابت في كل الشرائع؛ لأن سياق الكلام لبيان مخازي بني إسرائيل، وهتك أستارهم، وليس في الكلام دلالة على أن تغليظ شأن القتل لم يكن معروفًا لمن قبلهم.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾.

أي بسببِ حادثةِ قَتْلِ ابْنِ آدمَ أَخَاهُ ظُلْمًا، ومن جرائها ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أي: فرضنا عليهم فيما شرعنا لهم من أحكام، ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾، أي: من قتل نفسًا واحدة ظلمًا، لا على وجه القصاص، ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: بغير فساد كان منها في الأرض؛ مثل قطع الطريق، وترويع الآمنين، وغصب الأموال، وهتك الأعراض، ومحاربة دين الله تعالى ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَحِلُّ دَمُ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ».[1]

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

يعني: فيما يستحقه من العقاب الدنيوي، وهو القصاص، والعذاب الأخروي وهو الطرد من رحمة الله تعالى، وغضب الله تعالى عليه، والخلود من نار جهنم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]؛ ولأن ابن آدم بنيان الله فمن قتله فقد هدم بنيان الله.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

يعني: ومن أحياها بدفع أسباب الهلاك عنها، كمداواة جريح أشرف على الموت، أو انتشال غريق، أو إطفاء حريق، أو إحياء موؤدة، أو انقاذ إنسانٍ من مهلكة، فكأنما دفع أسباب الهلاك عن الناس جميعًا.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

أي: بالدلائل القاطعات، والبراهين الساطعات، على صحة رسالتهم، وصدق دعواهم.

والبينات نوعان:

الكتب المنزلة من الله تعالى عليهم بالوحي؛ ودلَّ عليها قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.[2]

---

١ – رواه البخاري– كِتَابُ الدِّيَاتِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالعَيْنَ بِالعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] حديث رقم: ٦٨٧٨، ومسلم–كِتَابُ الْقَسَامَةِ وَالْمُحَارِبِينَ وَالْقِصَاصِ وَالدِّيَاتِ، بَابُ مَا يُبَاحُ بِهِ دَمُ الْمُسْلِمِ، حديث رقم: ١٦٧٦

٢ – سورة البقرة: الاية/ ١٣٦

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والمعجزات الحسية التي يؤيد الله تعالى بها المرسلين؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ».[1]

﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

أي: ثم إنَّ كثيرا منهم بعد رؤية تلك البينات، ومع توفر دواعي الإيمان والاستجابة للرسل، بسبب ما عاينوه من دلائل النبوة وبراهين الرسالة، مع ذلك قطعوا شوطًا بعيدًا في الإعراض عن الدين، وتجاوزوا الحد في مخالفة المرسلين، حتى جاهروا بالعصيان، وصرحوا بالكفر.

وَ (ثُمَّ) لِلترتيبِ مع التَّرَاخِي؛ لبيانِ أَنَّ الْإِسْرَافَ فِي الْأَرْضِ إنما وقع بَعْدَ معاينةِ تِلْكَ الْبَيِّنَاتِ، وهو يدل على أنَّ الْإِسْرَافَ فِي الْأَرْضِ من سجاياهم، وعلى تمكن العصيان من نفوسهم. والإِسْرَافُ هُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، وَذُكِرَ (فِي الْأَرْضِ) لبيان أن ضرر الإسراف لم يكن قاصرًا عليهم بل تعدى حتى عمَّ الأرضَ.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾، من إنصاف القرآن، وأنهم ليسوا على درجة واحدة فمنهم الصالحون وأكثرهم الفاسقون؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١١٣]، وَكما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٩٩]، وهؤلاء كانوا قبل بعثةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ فَضَائِلِ القُرْآنِ، بَابٌ: كَيْفَ نَزَلَ الوَحْيُ، وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ، حديث رقم: ٤٩٨١، ومسلم- كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، وَنَسْخِ الْمِلَلِ بِمِلَّتِهِ، حديث رقم: ١٥٢

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٣٣، ٣٤

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا، أنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ خطرَ القتلِ، وتَغْلِيظَ الْإِثْمِ المترتب عليه ثم استثنى من ذلك إذا كان القتل قصاصًا أو بسبب الفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، ولما ورد ذكر الفسادَ في الأرض مجملًا ناسب أن يبينه مفصلًا مع ما يترتب عليه من أحكام.

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

اختلفَ العلماءُ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، فقيل: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَة فِي قَوْمٍ مِنْ عُرَيْنَةَ وَعُكْلٍ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ, وَحَارَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ؛ ودلَّ على ذلك ما ثبت عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «أَنَّ نَفرًا مِنْ عُكْلٍ قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتُوا إِبِلَ الصَّدَقَةِ، فَيَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا، فَفَعَلُوا فَقَتَلُوا رَاعِيَهَا وَاسْتَاقُوهَا، فَبَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طَلَبِهِمْ»، قَالَ: «فَأُتِيَ بِهِمْ، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَّرَ أَعْيُنَهُمْ، وَلَمْ يَحْسِمْهُمْ وَتَرَكَهُمْ حَتَّى مَاتُوا»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة: ٣٣] الْآيَةَ.[1]

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الحُدُودِ، بَابُ المحَارِبِينَ مِنْ أَهْلِ الكُفْرِ وَالرِّدَّةِ، حديث رقم: ٦٨٠٢، ومسلم- كِتَابُ الْقَسَامَةِ وَالْمُحَارِبِينَ وَالْقِصَاصِ وَالدِّيَاتِ، بَابُ حُكْمِ الْمُحَارِبِينَ وَالْمُرْتَدِينَ، حديث رقم: ١٦٧١، والنسائي- كِتَابُ تَحْرِيمِ الدَّمِ، ذِكْرُ اخْتِلَافِ طَلْحَةَ بْنِ مُصَرِّفٍ وَمُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ عَلَى يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، حديث رقم: ٤٠٤٢، واللفظ له، بسند صحيح

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ نَاسًا أَغَارُوا عَلَى إِبِلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَاقُوهَا، وَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَقَتَلُوا رَاعِيَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُؤْمِنًا، فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ، فَأُخِذُوا» فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ"، قَالَ: وَنَزَلَتْ فِيهِمْ آيَةُ الْمُحَارَبَةِ".[١]

وَقِيلَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَة فِي الْمُشْرِكِينَ؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]، نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْمُشْرِكِينَ، فَمَنْ تَابَ مِنْهُمْ قَبْلَ أَنْ يُقْدَرَ عَلَيْهِ، لَمْ يَمْنَعْهُ ذَلِكَ أَنْ يُقَامَ فِيهِ الْحَدُّ الَّذِي أَصَابَهُ".[٢]

وعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: «نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ».[٣]

ومما استدل به من قال إنها نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ عُرَيْنَةَ وَعُكْلٍ، صنيع البخاري في صحيحه، فقد ذكر حديث أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتقدم بعد ترجمة الباب بهذه الآية فقال: باب ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ........﴾. ثم ذكر الحديث.

ومما استدل به من من أنكر أن تكون نزلت في أهل الشرك، قَوْله تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ﴾ وَقَالَ فِي الْمُحَارِبِينَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، قالوا: فَشَرَطَ فِي زَوَالِ الْحَدِّ عَنْ الْمُحَارِبِينَ وُجُودَ التَّوْبَةِ مِنْهُمْ قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ وَأَسْقَطَ عُقُوبَةَ الْكُفْرِ بِالتَّوْبَةِ قَبْلَ الْقُدْرَةِ وَبَعْدَهَا.[٤]

وسواء أكان سبب نزول هذه الآية هذا أو ذاك، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

---

١ - رواه أبو داود- كِتَاب الْحُدُودِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُحَارَبَةِ، حديث رقم: ٤٣٦٩، والنسائي- كِتَابُ تَحْرِيمِ الدَّمِ، ذِكْرُ اخْتِلَافِ طَلْحَةَ بْنِ مُصَرِّفٍ وَمُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ عَلَى يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، حديث رقم: ٤٠٤١، بسند صحيح

٢ - رواه أبو داود- كِتَاب الْحُدُودِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُحَارَبَةِ، حديث رقم: ٤٣٧٢، والنسائي- كِتَابُ تَحْرِيمِ الدَّمِ، ذِكْرُ اخْتِلَافِ طَلْحَةَ بْنِ مُصَرِّفٍ وَمُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ عَلَى يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، حديث رقم: ٤٠٤٦، بسند حسن

٣ - تفسير الطبري (٨/ ٣٦١)

٤ - أحكام القرآن للجصاص (٤/ ٥٢)

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ.........﴾.

فائدة تأكيد الحصر هنا بـ (إنَّما) لتأكيد العقوبة، وأن مَنْ هذا شأنه فهو أحق الناس بهذا العقاب؛ لأن بعض الناس لضعف إدراكهم، وفساد عقولهم يستعظمون مثل هذا العقاب، ويشنعون على الإسلام، بتلك الحدود التي شرعها الله تعالى، ويصفونه بأنه دين قسوة وغلظة، فأكَّد اللهُ تعالى تلك العقوبة لهؤلاء المحاربين بهذا الحصر، وأنَّ هذه العقوبة لا بديل لها، فلا يقبل منه في حالة القتل الدية، ولَا جزاء لتلك الجريمة إلا ذلك العقاب الذي ذكره الله تعالى.

والجزاءُ: المكافأة بالإساءة كما في هذه الآية، والإحسان؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾.[1]

والمحاربة لله تعالى تكون بمحاربة دينه، ومحاربة أوليائه، وعلى هذا يكون في الكلام إيجاز بالحذف تقديره: (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ دينَ اللَّهَ ويحاربون أولياءَهُ)، والمراد بمحاربة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته مقاتلته، ومقاتلة أصحابه، والاعتداء على سلطانه، والمراد بالَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً كُلُّ مَنْ اتصف بشيءٍ من هَذِهِ الصِّفَاتِ المذكورة، سَوَاءٌ كَانَ كَافِرًا أَوْ مُسْلِمًا، ومنهم قطاع الطريق الذين يخيفون الناس ويغتصبون حقوقهم.

وقوله: ﴿يُحَارِبُونَ﴾، من الْمُحَارَبَة وهي: مُفَاعَلَةٌ مِنَ الْحَرْبِ، وَهِيَ ضِدُّ السِّلْمِ، وَأَصْلُ كَلِمَةِ الْحَرْبِ: التَّعَدِّي وَسَلْبُ الْمَالِ؛ يُقَال حَرَبَه إذا أخَذَ مَالَه، والمراد به هنا قطع الطريق، وسمي محاربة لله ورسوله تعظيمًا لخطره، وتبشيعًا له في النفوس، وتشنيعًا على تلبس بشيء من تلك الجرائم.

عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾ قَالَ: (الزِّنَا وَالسَّرِقَةُ، وَقَتْلُ النَّاسِ، وَإِهْلَاكُ الْحَرْثِ وَالنَّسْلِ).

---

١ – سُورَةُ آل عمران: الآية/ ١٤٥

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾.

السَّعْيُ: هو الحركةُ السَّرِيعةُ المستمرةُ، والفَسَادُ: نَقِيضُ الصَّلَاحِ؛ وَكُلُّ شيءٍ خرجَ عَنْ وَضْعِهِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ نَافِعًا، يُقَالُ: قَدْ فَسَدَ؛ أَيْ: يَسْعَوْنَ فِيهَا سَعْيَ مُفْسِدِينَ، ويحتمل: يَسعَوْن فِي الأَرْض للْفَسَاد، وعلى الوجه الأول يكون ﴿فَسَادًا﴾، مصدر واقع موقع الحال، وعلى الوجه الثاني يكون ﴿فَسَادًا﴾، مفعول لأجله؛ أي: يحاربون ويسعون لأجل الإفساد.

اللهم آمنا في أوطاننا، وول أمورنا خيارنا، ولا تول أمورنا شرارنا.

وذكر الله تعالى القتل والصلب وتقطيع الأيدي والأرجل بالتشديد للمبالغة، وأنه لا يجوز التهاون معهم في العقوبة، تنكيلًا بهم وردعًا لغيرهم.

واختلفَ العلماءُ في حدِّ الحرابةِ على قولين:

الأول: أنَّ إِمَامَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ بِالْخِيَارِ: إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ، وَإِنْ شَاءَ صُلَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ قَطَعَ يَدَهُ وَرِجْلَهُ؛ لِأَنَّ ﴿أَوْ﴾ تَقْتَضِي التَّخْيِيرَ، وبه قال ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَمُجَاهِدٌ، وَعَطَاءٌ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وهو مذهب مالكٍ، وَأَبِي الزِّنَادِ، وَأَبِي ثَوْرٍ، وَدَاوُدَ بنِ عليٍّ، وقال أبو حنيفة: إِنْ قَتَلَ قُتِلَ، وَإِنْ أَخَذَ الْمَالَ قُطِعَ، وَإِنْ قَتَلَ وَأَخَذَ الْمَالَ، فَالْإِمَامُ مُخَيَّرٌ بَيْنَ قَتْلِهِ وَصَلْبِهِ، وَبَيْنَ قَتْلِهِ وَقَطْعِهِ، وَبَيْنَ أَنْ يَجْمَعَ لَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ وُجِدَ مِنْهُ مَا يُوجِبُ الْقَتْلَ وَالْقَطْعَ، فَكَانَ لِلْإِمَامِ فِعْلُهُمَا، كَمَا لَوْ قَتَلَ وَقَطَعَ فِي غَيْرِ قَطْعِ طَرِيقٍ.

والثاني: التفصيل وهو الراجح، وبه قال ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وغيره، وهو قول الشافعي وأحمد؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قُطَّاعِ الطَّرِيقِ: إِذَا قَتَلُوا وَأَخَذُوا الْمَالَ قُتِّلُوا وَصُلِّبُوا، وَإِذَا قَتَلُوا وَلَمْ يَأْخُذُوا الْمَالَ قُتِّلُوا وَلَمْ يُصَلَّبُوا، وَإِذَا أَخَذُوا الْمَالَ وَلَمْ يَقْتُلُوا قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ، وَإِذَا أَخَافُوا السَّبِيلَ وَلَمْ يَأْخُذُوا مَالا نُفُوا مِنَ الأَرْضِ.[1]

١ - مسند الشافعي (ص٣٣٦)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَقَاطِعُ الطَّرِيقِ لَا يَخْلُو مِنْ أَحْوَالٍ خَمْسٍ:

الْأُولَى: إِذَا قَتَلَ وَأَخَذَ الْمَالَ، فَإِنَّهُ يُقْتَلُ وَيُصْلَبُ، وَقَتْلُهُ مُتَحَتِّمٌ لَا يَدْخُلُهُ عَفْوٌ بإجماع العلماء.

الثَّانية: إِذَا قَتَلَ وَلَمْ يَأْخُذْ الْمَالَ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ وَلَا يُصْلَبُ.

الثَّالِثَةُ: أَخَذَ الْمَالَ وَلَمْ يَقْتُلْ، فَإِنَّهُ تُقْطَعُ يَدُهُ الْيُمْنَى وَرِجْلُهُ الْيُسْرَى.

الرَّابِعَةُ: إِذَا أَخَافَ السَّبِيلَ، وَلَمْ يَقْتُلْ، وَلَمْ يَأْخُذْ مَالًا، فَإِنَّهُ يُنْفَى مِنَ الْأَرْضِ.

الْخَامِسَةُ: إِذَا تَابَ قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ، سَقَطَتْ عَنْهُ حُدُودُ اللهِ تَعَالَى، وَأُخِذَ بِحُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ؛ مِنْ الْأَنْفُسِ، وَالْجِرَاحِ، وَالْأَمْوَالِ، إِلَّا أَنْ يُعْفَى لَهُ عَنْهَا، بغير خِلَافٍ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ.

اللهم إنا نعوذ بك من الخزي والخذلان.

﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أَيْ: ذلك العقاب الَّذِي ذَكَرَهُ الله تعالى مِنْ القَتْلِ، وَالصَّلْبِ، وَقَطْعِ الأَيْدِي وَالأَرْجُلِ مِنْ خِلَافٍ، وَالنَّفْيِ من الأرضِ لمن ارتكب جُرْمَ الحرابةِ هو لهم خِزْيٌ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ومهانةٌ بين الناسِ، وعارٌ وشنارٌ على مَنْ هذا حاله، وَالْخِزْيُ: الذُّلُّ وَالْإِهَانَةُ، مع ما يدخرُ لهم فِي الآخِرَةِ من العَذَابِ العَظِيمِ، إِذَا لَمْ يَتُوبُوا إلى اللهِ مِنْ جَرَائِمِهِم.

﴿إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾.

ولما ذكر الله تعالى جزاء المحاربين من العقوبات، وما يترتب عليها من الخزي والعارِ والعذاب العظيم في الآخرة، استثنى من ذلك الذين تابوا قبل القدرة عليهم، فَإِنْ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْدَرَ عَلَيْهِمْ، سَقَطَتْ عَنْهُمْ حُدُودُ اللهِ تَعَالَى، وَأُخِذُوا بِحُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ؛ مِنْ الْأَنْفُسِ، وَالْجِرَاحِ، وَالْأَمْوَالِ، إِلَّا أَنْ يُعْفَى لَهُمْ عَنْهَا، لَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ في هذا. وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَبُو حنيفة وأحمد، وَعَلَى هَذَا يَسْقُطُ عَنْهُمْ تَحَتُّمُ الْقَتْلِ وَالصَّلْبِ، وَالْقَطْعِ وَالنَّفْيِ، وَيَبْقَى عَلَيْهِمِ الْقِصَاصُ فِي النَّفْسِ وَالْجِرَاحِ، وَغَرَامَةُ الْمَالِ وَالدِّيَةُ لِمَا لَا قِصَاصَ فِيهِ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: مَنْ حَارَبَ فَهُوَ مُحَارِبٌ. قَالَ سَعِيدٌ: فَإِنْ أَصَابَ دَمًا قُتِلَ، وَإِنْ أَصَابَ دَمًا وَمَالًا صُلِبَ، فَإِنَّ الصَّلْبَ أَشَدُّ، وَإِذَا أَصَابَ مَالًا وَلَمْ يُصِبْ دَمًا قُطِعَتْ يَدُهُ وَرِجْلُهُ لِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾، فَإِنْ تَابَ فَتَوْبَتُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ، وَيُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ.[1]

وَعَنْ عَامِرٍ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: كَانَ حَارِثَةُ بْنُ بَدْرٍ التَّمِيمِيُّ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ قَدْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ وَحَارَبَ، فَكَلَّمَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَابْنَ جَعْفَرٍ وَابْنَ عَبَّاسٍ وَغَيْرَهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ، فَكَلَّمُوا عَلِيًّا فَلَمْ يُؤَمِّنْهُ، فَأَتَى سَعِيدَ بْنَ قَيْسٍ الْهَمْدَانِيَّ فَكَلَّمَهُ، فَانْطَلَقَ سَعِيدٌ إِلَى عَلِيٍّ وَخَلَفَهُ فِي مَنْزِلِهِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، كَيْفَ تَقُولُ فِيمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَسَعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا؟ فَقَرَأَ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، حَتَّى قَرَأَ الْآيَةَ كُلَّهَا، فَقَالَ سَعِيدٌ، أَفَرَأَيْتُ مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ عَلِيٌّ: أَقُولُ كَمَا قَالَ وَيُقْبَلُ مِنْهُ، قَالَ: فَإِنَّ حَارِثَةَ بْنَ بَدْرٍ قَدْ تَابَ قَبْلَ أَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ فَأَدْخَلَهُ عَلَيْهِ فَأَمَّنَهُ وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا.[2]

وَعَنه أَنَّ عُثْمَانَ اسْتَخْلَفَ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَلَمَّا صَلَّى الْفَجْرَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ مُرَادٍ فَقَالَ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ التَّائِبِ، أَنَا فُلَانٌ ابْنُ فُلَانٍ، مِمَّنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ، جِئْتُ تَائِبًا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيَّ، فَقَالَ أَبُو مُوسَى: جَاءَ تَائِبًا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِ، فَلَا يُعْرَضُ إِلَّا بِخَيْرٍ.[3]

قال ابن جرير: حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ سَهْلٍ، قَالَ: ثنا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ, قَالَ: قُلْتُ لِمَالِكٍ: أَرَأَيْتَ هَذَا الْمُحَارِبَ الَّذِي قَدْ أَخَافَ السَّبِيلَ وَأَصَابَ الدَّمَ وَالْمَالَ, فَلَحِقَ بِدَارِ الْحَرْبِ أَوْ تَمَنَّعَ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ جَاءَ تَائِبًا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْدَرَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ. قَالَ: قُلْتُ: فَلَا يُتَّبَعُ بِشَيْءٍ مِنْ أَحْدَاثِهِ؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أَنْ يُوجَدَ مَعَهُ مَالٌ بِعَيْنِهِ فَيَرُدُّ إِلَى صَاحِبِهِ، أَوْ يَطْلُبُهُ وَلِيُّ مَنْ

---

١ – رواه البيهقي في السنن الكبرى– كِتَابُ السَّرِقَةِ، جُمَّاعُ أَبْوَابِ مَا لَا قَطْعَ فِيهِ، بَابُ الْمُحَارِبِ يَتُوبُ، حديث رقم: ١٧٣١٩

٢ – رواه ابن أبي شيبة في مصنفه– حديث رقم: ٣٢٧٨٩

٣ – رواه البيهقي في السنن الكبرى– كتابُ السرقةِ، بابُ المحارِبِ يَتوبُ، حديث رقم: ١٧٣٩٨

قَتَلَ بِدَمٍ فِي حَرْبِهِ يَثْبُتُ بِبَيِّنَةٍ أَوِ اعْتِرَافٍ فَيُقَادُ بِهِ؛ وَأَمَّا الدِّمَاءُ الَّتِي أَصَابَهَا وَلَمْ يَطْلُبْهَا أَوْلِيَاؤُهَا فَلَا يَتْبَعُهُ الْإِمَامُ بِشَيْءٍ. قَالَ عَلِيٌّ: قَالَ الْوَلِيدُ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِأَبِي عَمْرٍو، فَقَالَ: تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ إِذَا كَانَ مُحَارِبًا لِلْعَامَّةِ وَالْأَئِمَّةِ قَدْ آذَاهُمْ بِحَرْبِهِ فَشَهَرَ سِلَاحَهُ وَأَصَابَ الدِّمَاءَ وَالْأَمْوَالَ، فَكَانَتْ لَهُ مَنَعَةٌ أَوْ فِئَةٌ يَلْجَأُ إِلَيْهِمْ، أَوْ لَحِقَ بِدَارِ الْحَرْبِ فَارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ، أَوْ كَانَ مُقِيمًا عَلَيْهِ ثُمَّ جَاءَ تَائِبًا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْدَرَ عَلَيْهِ، قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ وَلَمْ يُتْبَعْ بِشَيْءٍ مِنْهُ".[١]

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: فَاعْلَمُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ اللَّهَ لا يؤاخذُ مَنْ تَابَ مِنْهم بِذُنُوبِهِ وأنه قد أسقط عَنْهُم كُلَّ عُقُوبَةٍ وَجَبَتْ عليها حَقًّا لِلَّهِ، وبقيت حقوق العبادِ فَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُم وَإِنْ شَاءَ اسْتَوْفَاهَا منهم.

١ - تفسير الطبري (٨/ ٣٩٦)

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٣٥

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى حالَ اليهودِ وبيَّنَ جرأَتَهُم على محارم الله تعالى، وزهدهم في الطاعات التي تقربهم إليه تعالى، وإعراضهم عن الجهاد في سبيله، أمر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بتقواه، وأن يتقربوا إليه بالطاعات، وأن يجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم لينالوا رضاه، وتتحقق لهم العزة في الدنيا والفلاح والآخرة، ويفارقوا سبيل المغضوب عليهم ويتميزوا عنهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.

الْوَسِيلَةُ: مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى الْمَقْصُودِ، يُقَالُ: تَوَسَّلْتُ إِلَيْهِ أَيْ تَقَرَّبْتُ، وتَوَسَّلَ فُلَانٌ إِلَى رَبِّهِ بِوَسِيلَةٍ إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِعَمَلٍ. قَالَ لَبِيدٌ:

أَرَى النَّاسَ لَا يَدْرُونَ مَا قَدْرُ أَمْرِهِمْ ***** أَلَا كُلُّ ذِي لُبٍّ إِلَى اللهِ وَاسِلُ

أَيْ: مُتَوَسِّلٌ.

وَالْجَمْعُ: الْوَسَائِلُ. قال الشاعر:

إِذَا غَفَلَ الْوَاشُونَ عُدْنَا لِوَصْلِنَا ***** وَعَادَ التَّصَافِي بَيْنَنَا وَالْوَسَائِلُ

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأن يجعلوا بينهم وبين أسباب سخطه تعالى وقاية، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، بِابْتِغَاءِ الْوَسِيلَةِ إِلَيْهِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾. أَيِ الْقُرْبَةَ. وَعَنْ حُذَيْفَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ قَارِئًا يَقْرَأُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾. قَالَ: الْقُرْبَةَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَيْ تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ وَالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ.

وَقَالَ الرَّاغِبُ: الْوَسِيلَةُ التَّوَصُّلُ إِلَى الشَّيْءِ بِرَغْبَةٍ، وَهِيَ أَخَصُّ مِنَ الْوَصِيلَةِ; لِتَضَمُّنِهَا مَعْنَى الرَّغْبَةِ، وحقيقةُ الوَسِيلَةِ إلى الله تعالى: مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحرّي مكارم الشّريعة، وهي كالقربة.[1]

وقُدِّمَ الجارُّ والمجرور لِلْحصْرِ، أَيْ: لَا تَتَوَسَّلُوا إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا تَتَوَسَّلُوا إِلَى غَيْرِهِ.

﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أَيْ: وَجَاهِدُوا أَنْفُسَكُمْ بفعل الطاعات، واجتناب المحرمات، وَجَاهِدُوا في سبيل إعلاء دين الله الذين يصدون عن سبيله، لَعَلَّكُمْ تفوزون بالعز والتمكين في الدنيا، والسعادة الأبدية في جنة الخلد.

١ – المفردات في غريب القرآن (ص: ٨٧١)

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٣٦، ٣٧

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى المؤمنين في الآية السابقة بالتقوى، وأرشدهم إلى معاقد الخير بالتماس ما يقربهم إِلَيْهِ من الطاعات التي هي سبب الفوز والفلاح في الدنيا الآخرة، بيَّنَ هنا حال الكفار يوم القيامة، وأنهم لا يقبل منهم فداءٌ ولو بذلوا ما في الأرض جميعًا ومثله معه، فكانت بمثابة التعليل للآية السابقة، كما سيأتي بيانه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾.

هذا خبر من الله تعالى عن حال الكفار يوم القيامة، وأنهم لو كانوا يملكون كنوز الأرض، وصنوف الأموال، لبذلوها ليفتدوا من العذاب الكائن لهم يوم القيامة، وهو خبر الغرض منه ارشاد أهل الإيمان لسبل النجاة ببيان عاقبة الكفار، وتقدير الكلام: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وتقربوا إلى بصنوف الطاعات لعلكم تفلحون يوم القيامة بدخول الجنة، والنجاة من النار، فإن الكفار لن يغني عنهم من عذاب الله تعالى شيء ولو ملكوا الدنيا بما فيها.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.[1]

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ

١ – سورة الزمر: الآية/ ٤٧

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ - أَحْسِبُهُ قَالَ: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ - فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ".[1]

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أَيْ: وَلَهُمْ عَذَابٌ مؤلِمٌ مُوجِعٌ.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

يخبر تعالى عنْ إِرَادَةِ الكفارِ الْخُرُوجَ مِنَ النَّارِ وَأَنَّهُمْ قَصَدُوا ذَلِكَ وحاولوا مرارًا حتى أنهكهم التعب، فكان نوعًا من العذاب زائدًا عما هم فيهم من عذاب النار؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾.[2]

ولا تعارض بين هذه الآية والأحاديث التي تدل على خروج أقوامٍ من النَّارِ وهي أحاديث صحيحة متواترة كحديث: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ».[3]

والجمع بينهما أن الآية خاصة بالكفار، وأنهم لا مطمع لهم في الخروج من النار، والأحاديث الواردة عن أهل الإيمان، وأنهم لا يخلدون في النار، ودل على ذلك ما ثبت عن يَزِيد الْفَقِيرِ، قَالَ: كُنْتُ قَدْ شَغَفَنِي رَأْيٌ مِنْ رَأْيِ الْخَوَارِجِ، فَخَرَجْنَا فِي عِصَابَةٍ ذَوِي عَدَدٍ نُرِيدُ أَنْ نَحُجَّ، ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَى النَّاسِ، قَالَ: فَمَرَرْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ، فَإِذَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَالِسٌ إِلَى سَارِيَةٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الْجَهَنَّمِيِّينَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ:

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ خَلْقِ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَذُرِّيَّتِهِ، حديث رقم: ٣٣٣٤، مسلم- كِتَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ بَابُ طَلَبِ الْكَافِرِ الْفِدَاءَ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا، حديث رقم: ٢٨٠٥

٢ - سورة الحج: الآية/ ٢٢

٣ - رواه البخاري- كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابُ زِيَادَةِ الإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ، حديث رقم: ٤٤، ومسلم- كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً فِيهَا، حديث رقم: ١٩٣، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وروي نحوه عن جابر وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وابن مسعود، وغيرهم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ، مَا هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُونَ؟ وَاللهُ يَقُولُ: ﴿إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢] وَ ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، فَمَا هَذَا الَّذِي تَقُولُونَ؟ قَالَ: فَقَالَ: «أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ – يَعْنِي الَّذِي يَبْعَثُهُ اللهُ فِيهِ –؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنَّهُ مَقَامُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَحْمُودُ الَّذِي يُخْرِجُ اللهُ بِهِ مَنْ يُخْرِجُ»، قَالَ: ثُمَّ نَعَتَ وَضْعَ الصِّرَاطِ، وَمَرَّ النَّاسِ عَلَيْهِ، – قَالَ: وَأَخَافُ أَنْ لَا أَكُونَ أَحْفَظُ ذَاكَ – قَالَ: غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ زَعَمَ أَنَّ قَوْمًا يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا، قَالَ: – يَعْنِي – فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ عِيدَانُ السَّمَاسِمِ، قَالَ: «فَيَدْخُلُونَ نَهَرًا مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، فَيَغْتَسِلُونَ فِيهِ، فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ الْقَرَاطِيسُ»، فَرَجَعْنَا قُلْنَا: وَيْحَكُمْ أَتُرَوْنَ الشَّيْخَ يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَرَجَعْنَا فَلَا وَاللهِ مَا خَرَجَ مِنَّا غَيْرُ رَجُلٍ وَاحِدٍ.[1]

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

أَيْ ولهم عذاب دائم لا يتحول ولا يزول عنهم، وتقديم الجار والمجرور (لهم) يفيد الحصر؛ والمعنى: لهم ذلك وليس لغيرهم.

١ – رواه مسلم– كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً فِيهَا، حديث رقم: ١٩١

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٣٨

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى حدَّ الحرابةِ وفيه حكم من أخذ المال على سبيل المحاربة والترويع، بين سبحانه هنا حكم من أخذ أموال الناس خفية بلا ترويع.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾.

السَّرِقَةِ: أَخْذُ الْمَالِ عَلَى وَجْهِ الْخِفْيَةِ وَالِاسْتِتَارِ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ [الحجر: ١٨]، أي: اختلسه سرًّا.

هذا حكمٌ من الله تعالى بِقَطْعِ يَدِ السَّارِقِ وَالسَّارِقَةِ، وتقدير الكلام: وَالَّذِي سَرَقَ والّتي سرقَتْ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا، وَدَخَلَتِ الْفَاءُ على الْخَبَرِ لِتَضَمُّنِ الْمُبْتَدَأِ مَعْنَى الشَّرْطِ.

والحكم في هذه الآية مطلق وأتت السنة بتقييده، فليس في الآية تقدير لنصاب السرقة، فهي تفيد أن من سرق شيئًا ولو يسيرًا فيجب قطعه، واستدلَّ على ذلك بعض الفقهاء عملًا بظاهر الآية، مع ما ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ».[١]

وذهب جمهور العلماء إلى أن القطع مقيدٌ ببلوغ السرقة النصاب وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، وهو الصحيح، واستدلوا بما ثبت عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ إِلَّا فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا».[٢]

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الحُدُودِ، بَابُ لَعْنِ السَّارِقِ إِذَا لَمْ يُسَمَّ، حديث رقم: ٦٧٨٣، ومسلم- كِتَابُ الْحُدُودِ، بَابُ حَدِّ السَّرِقَةِ وَنِصَابِهَا، حديث رقم: ١٦٨٧

٢ - رواه البخاري- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، وَفِي كَمْ يُقْطَعُ؟ حديث رقم: ٦٧٩٠، ومسلم- كِتَابُ الْحُدُودِ، بَابُ حَدِّ السَّرِقَةِ وَنِصَابِهَا، حديث رقم: ١٦٨٤

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَطَعَ سَارِقًا فِي مِجَنٍّ قِيمَتُهُ ثَلَاثَةُ دَرَاهِمَ».[1]

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «لَمْ تُقْطَعْ يَدُ سَارِقٍ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَمَنِ الْمِجَنِّ، حَجَفَةٍ، أَوْ تُرْسٍ، وَكِلَاهُمَا ذُو ثَمَنٍ».[2]

وأجاب الجمهور على من أخذ بظاهر الآية في القطع بأدنى شيءٍ، وحديث: «لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ البَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ......»، بأنه يبدأ بسرقة القليل ثم يعتاد على السرقة حتى يسرق ما يؤدي إلى قطع يده.

وأجمعَ أَهْلُ الْعِلْمِ على أَنَّ السَّارِقَ تُقْطَعُ يَدُهُ الْيُمْنَى، مِنْ مَفْصِلِ الْكَفِّ، وَهُوَ الْكُوعُ. وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: (فَاقْطَعُوا أَيْمَانَهُمَا)، وهي قِرَاءَةٌ تَفْسِيرِيةٌ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِذَا سَرَقَ السَّارِقُ، فَاقْطَعُوا يَمِينَهُ مِنْ الْكُوعِ. وَلَا مُخَالِفَ لَهُمَا فِي الصَّحَابَةِ.

واشترط أكثر الفقهاء أن تكون السرقة من حرز، فإن لم تكن من حرز فلا قطع، وذكروا أن حرز كل شيء بحسبه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

النَّكَالُ أَصْلُه مِنَ النِّكْلِ وهو الْقَيْدُ، وقيلَ له ذلك؛ لِأَنَّهُ يَنْكُلُ: أَيْ يَمْنَعُ. يقال: نَكَّلَ بِهِ تَنْكِيلًا وَنَكَالًا، أي: فَعَلَ بِهِ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْمُعَاوَدَةِ وَيَمْنَعُ غَيْرَهُ مِنْ إِتْيَانِ مِثْلِ صَنِيعِهِ.

والمعنى: فاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا التي امتدَّتْ إلى أموالِ الناس بالسرقةِ مُجَازَاةً عَلَى لَهُمَا عَلَى عَمَلِهِمَا السَّيِّئِ، وَليكون ذلك عِبْرَةً لِغَيْرِهِمَا وَيَمْنَعُهُمْ أَنْ يَسْرِقُوا.

---

١ - رواه مسلم- كِتَابُ الْحُدُودِ، بَابُ حَدِّ السَّرِقَةِ وَنِصَابِهَا، حديث رقم: ١٦٨٦

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ الحُدُودِ، بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، وَفِي كَمْ يُقْطَعُ؟ حديث رقم: ٦٧٩٤، ومسلم- كِتَابُ الْحُدُودِ، بَابُ حَدِّ السَّرِقَةِ وَنِصَابِهَا، حديث رقم: ١٦٨٥

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: عَزِيزٌ فِي انْتِقَامِهِ مِنَ السَّارِقِ، حَكِيمٌ فِي تشريعهِ وَحُدُودِهِ.

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: كُنْتُ أَقْرَأُ: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُور رَحِيم)، ويجنبي أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ كَلَامُ مَنْ هَذَا؟ قُلْتُ كَلَامُ اللَّهِ، قَالَ: لَيْسَ هَذَا كَلَامَ اللَّهِ فانتبهت فَقَرَأت ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. فَقَالَ: أَصَبْتَ هَذَا كَلَامُ اللَّهِ فَقُلْتُ: أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟

قَالَ لَا قُلْتُ مِنْ أَيْنَ عَلِمْتَ؟ قَالَ يَا هَذَا عَزَّ فَحَكَمَ فَقَطَعَ، وَلَوْ غَفَرَ وَرَحِمَ لما قطع.

فائدة:

استشكلَ أبُو العَلاءِ الْمَعَرّيّ أنَّ نِصَابَ السَّرِقَةِ رُبْعُ دِينَارٍ، وأنَّ دِيَةَ اليدِ إذَا قُطِعتْ خَمْسُمَائِةِ دِينارٍ فقال ساخرًا:

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِينَ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ***** مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارِ
تَنَاقُضٌ مَا لَنَا إِلَّا السُّكُوتُ لَهُ ***** وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ

فأجابه القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله:

عِزُّ الْأَمَانَةِ أَغْلَاهَا وَأَرْخَصَهَا ***** ذُلُّ الْخِيَانَةِ فَافهَمْ حِكْمَةَ الْبَارِي

وَقَالَ: لَمَّا كَانَتْ أَمِينَةً كَانَتْ ثَمِينَةً، فَلَمَّا خَانَتْ هَانَتْ.

وردَّ عليه بعض العلماءِ فقال:
صِيَانَةُ الْعُضْوِ أَغْلَاهَا وَأَرْخَصَهَا ***** صِيَانَةُ الْمَالِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ الْبَارِي

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٣٨- ٤٠

أَيْ: فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ أَنْ ظَلَمَ غَيْرَهُ بسَرِقَةِ مالِهِ، وَظَلَمَ نَفْسَهُ بارتكابِ ذلك الجرمِ، ﴿وَأَصْلَحَ﴾، أي: استقامَ على أمرِ اللهِ تعالى بتركِ الذنوبِ والمعاصِي، وأَصْلَحَ عَمَلَهُ بَعْدَ أَنْ أَسَاءَ، فَإِنَّ اللَّهَ تعالى يَتُوبُ عَلَيْهِ بتوفيقهِ إلى التوبةِ وقَبُولِهَا منه، ويَتَجَاوَزُ عَنْهُ.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

تذييل لبيان سعة رحمة الله تعالى، وعظيم مغفرته لمن ذل وأخطأ ثم تاب وأناب إليه تعالى.

اختلفَ العلماءُ فِيمَنْ تَابَ وعَلَيْهِ حَدٌّ مِنْ غَيْرِ الْمُحَارِبِينَ، وَأَصْلَحَ، على قولين للعلماءِ هما رِوَايَتَانِ عن أحمد؛ إِحْدَاهُمَا: أَنَّ الحَدَّ يَسْقُطُ عَنْهُ؛ لهذه الآية ولِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾.[1]

وَالثاني: وَهو قَوْلُ الجُمْهُورِ والرِّوَايَةُ الثَّانِيَةُ عَنْ أحمدَ وهو الراجِحُ: أَنَّ تَوْبَةَ السَّارِقِ لَا تُسْقِطُ حدَّ الْقَطْعِ، وَلَوْ جاءَ تَائِبًا قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجَمَ مَاعِزًا وَالْغَامِدِيَّةَ، وَقَطَعَ الَّذِي أَقَرَّ بِالسَّرِقَةِ، وَقَدْ جَاءُوا تَائِبِينَ يَطْلُبُونَ التَّطْهِيرَ بِإِقَامَةِ الْحَدِّ، وَصَلَّى عَلَى الْمَرْأَةِ التي زَنَتْ، وقَالَ فِي حَقِّهَا: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ عَلَى سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ».[2]

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الْخِطَابُ هنا لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ الْقُرْآنَ أَوْ يَقْرَؤُهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ للرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والسؤال للتقرير، وقدمَ هنا ذكر العذاب على المغفرة في قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ

١ – سورة النساء: الآية/ ١٦

٢ – رواه مسلم– كِتَابُ الْحُدُودِ، بَابُ مَنِ اعْتَرَفَ عَلَى نَفْسِهِ بِالزِّنَى، حديث رقم: ١٦٩٦

www.alukah.net

يَشَاءُ﴾؛ لعلمه تعالى بما سيقوله أعداء الإسلام عن القسوة في تشريع الحدود، وأيضًا لتناسب عقاب السارق وتوبته بعد السرقة.

والآية تعليل لبيان قدرة الله تعالى النافذة، ومشيئته الشاملة وأنه تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد لا رادَّ لأمره ولا معقب لحكمه، فالملك ملكه والأمر أمره؛ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الْأَعْرَافِ: ٥٤]، ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾، ويبتلي عدلًا، ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، ويعافي فضلًا.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، قادرٌ على عذاب من أراد عذابه، وعلى العفو عمن أراد معافاته.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٤١

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

هذه الآية تتمم ما قبلها من الآيات التي فيها تسلية للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن إعراض اليهود عن الإيمان به واتباعه مع معرفتهم به ويقينهم برسالته، مع أورد عليهم من دلائل النبوة، وإعراض المنافقين عن الإيمان بالله تعالى مع نزول القرآن بين ظهرانيهم، ومع ما يشاهدونه من معجزات حسية.

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رواهُ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مُرَّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا مَجْلُودًا، فَدَعَاهُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَقَالَ: «أَنْشُدُكَ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ» قَالَ: لَا، وَلَوْلَا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ، نَجِدُهُ الرَّجْمَ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ، وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ، قُلْنَا: تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَى شَيْءٍ نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ، فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ، وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ»، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾، يَقُولُ: ائْتُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ فَخُذُوهُ، وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا، فَأَنْزَلَ اللهُ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فِي الْكُفَّارِ كُلُّهَا.[١]

وهذه الآية وإن كانت قد نزلت في هؤلاء اليهود الذي أماتوا أحكام التوراة وبدلوا شرع الله وكذبوا رسوله محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي تشمل كل معرض عن الدين، مُسَارِعٍ فِي الْكُفْرِ، خَارِجٍ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.

خاطب الله تعالى رسوله محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الصفة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، تشريفًا له وتكريمًا، وتطيبًا لخاطره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حين جحد رسالته وأنكر نبوته اليهودُ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وذكرُ صفة الرسالة هنا لتتضمن النبوة فكل رسول نبي وليس العكس.

﴿لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.

النهي عن الحزن هنا المرادُ به النهي عن أسبابه التي تؤدي إليه ومنها المبالاة والاهتمام بهم، وذلك لما كان يعتمل في صدره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من الحزن على أولئك الذي بارزوه بالمحاربة، وآثروا الكفر على الإيمان، مع حرصه على هدايتهم، من المصير الذي ينتظرهم لو ماتوا على الكفر، وقد صور الله تعالى تلك المشاعر الجياشة لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عدة آيات؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاءِ: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الْكَهْفِ: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾.[٢]

---

١ – رواه مسلم– كِتَابُ الْحُدُودِ، بَابُ رَجْمِ الْيَهُودِ أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي الزِّنَى، حديث رقم: ١٧٠٠

٢ – سُورَةُ فَاطِرٍ: الآية/ ٨

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مُسَارَعَتُهُمْ فِي الْكُفْرِ عِبَارَةٌ المسارعةِ في إظهار الكفر وإعلانه، وقد كانوا يزعمون الإيمان ويدعونه، وعُدِّي الفعلُ يسارعُ بـ (في) والأصل أن يعدى بـ (إلى) كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣]؛ لتضمنه معنى الانغماس والاستقرار، أي: يسارعون منغمسين في الكفرِ، فإذا وجدوا فرصة لم يخطؤها، من إظهار موالاة أعداء الدين، ومظاهرتهم على المسلمين، وتحريف كلام رب العالمين، وتكذيب الرسول الصادق الأمين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فينتقلون في ضروب الكفر من ضرب إلى ضرب، ومن حال إلى حال.

﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾.

(من)، هنا بيانية والمعنى: هؤلاء ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ هم: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾، واختلف في المراد بهم فقيل: هم المنافقون، وقيل: هم اليهود الذي حجدوا صفة النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسارعوا إلى تكذيبه، والآية تشمل الفريقين.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾.

يخبر الله تعالى عن فريقٍ من يَهُودِ الْمَدِينَةِ أنهم: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، وَمَعْنَاهُ أنهم: قَابِلُونَ لِلْكَذِبِ الذي يختلقُهُ رُؤَسَاؤُهُمْ فِي دِينِ اللَّه تَعَالَى، وَفِي الطَّعْنِ فِي رَسُولِ اللهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالسَّمْعُ يُسْتَعْمَلُ وَيُرَادُ به الْقَبُولُ، وَمِنْهُ: «سَمِعَ اللَّه لِمَنْ حَمِدَهُ»، وَكَمَا فِي قولهم: لَا تَسْمَعْ مِنْ فُلَانٍ أَيْ لَا تَقْبَلْ مِنْهُ، وَسَمَّاعُونَ صيغةُ مُبَالَغَةٍ للدلالة على سرعة قبولهم كل ما يقال عن الإسلام ونبي الإسلام صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾.

وهم كذلك قَابِلُونَ لِلْكَذِبِ الذي يختلقُهُ قومٌ آخَرُون لم يلتقوا برسولِ اللهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يسمعوا منه شيئًا، لشِدَّةِ عداوتهم له، قيل هم يهود فدك، وقيل يهود خيبر، فتحملهم العداوةُ والبغضاءُ على افتراءِ الكذبِ عليه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعدم الإنصافِ.

وقيل: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، أَيْ يَسْمَعُونَ مِنْكَ لِيَكْذِبُوا عَلَيْكَ، و﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾، أي: يَتَجَسَّسُونَ عليك ويَسْمَعُون مِنْكَ لِيَنْقُلُوا أَخْبَارَكَ، لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَحْضُرُوا عِنْدَكَ.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾.

أي: يبدلون كلام الله عن مواضعِهِ التي وُضع عليها، يَقُولُ بعضهم لبعض: ائْتُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ لليهوديَّيْن اللَّذَيْنِ زَنَيَا فَخُذُوهُ، وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا أن تقبلوا قوله، وتقدم حديثُ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي شأن اليهوديين، وهذا دأبهم وديدنهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.[1]

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

ثم بين الله تعالى لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن هؤلاء اليهود قومٌ خذلهم الله تعالى فضلوا عَنْ سبيلِهِ، ومن كان هذا شأنه فلا سبيل لأحدٍ إلى هدايته، فلا تأس عليهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾.

أي: أُولَئِكَ الْيَهُودِ الَّذِينَ ذَكَرتُ لَكَ صِفَتَهُمْ، لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ مِنْ دَنَسِ الْكُفْرِ، وَأدرانِ الشِّرْكِ.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

لَهُمْ الذُّل وَالْهَوَانَ فِي الدُّنْيَا، وَلَهُمْ العَذَابُ العَظِيمُ الدائمُ فِي الْآخِرَةِ.

---

١ - سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ٤٦

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٤٢

السحت هو كل ما لا يحل كسبه، فيدخل فيه الرشوة في الحكم، وأكل الربا، وثمن الخمر، ومهر البغي، وحلوان الكاهن وغيرها؛ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: قَاتَلَ اللَّهُ فُلاَنًا، أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ اليَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا، فَبَاعُوهَا».[1]

وَأَصْلُ السحت: الاستئصال، مِنْ سَحَتَهُ إِذَا اسْتَأْصَلَهُ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١]، وسمى الله تعالى الرشوة سُحتًا؛ لأَنَّهُ تَعَالَى يُسْحِتُهُمْ بِسَبَبِهَا، أَيْ: يَسْتَأْصِلُهُمْ، ويُسْحِتُ البركةَ من أموالِهم، ويُسْحِتُ ثوابَ الطَّاعَاتِ أَيْ: يَسْتَأْصِلُهُ.

وأعيد قوله: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، لبيان نوع آخر من الكذب الذي يحرصون على قبوله، وهو كذب الخصم الذي يأتيهم بالرشوة عند الاحتكام إليهم، ودل عليه قوله تعالى بعدها: ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾، وهذا أولى من القول بأنه أعاد الكلام للتأكيد؛ قَالَ الْحَسَنُ كَانَ الْحَاكِمُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا أَتَاهُ مَنْ كَانَ مُبْطِلًا فِي دَعْوَاهُ بِرَشْوَةٍ سَمِعَ كَلَامَهُ وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى خَصْمِهِ، فَكَانَ يَسْمَعُ الْكَذِبَ وَيَأْكُلُ السُّحْتَ.

وشدد ﴿سَمَّاعُونَ﴾ و ﴿أَكَّالُونَ﴾، للمبالغة لكثرة وقوع ذلك منهم.

﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

هذا تخيير للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أن يحكمَ بَيْنَهُمْ أَوْ يُعْرِض عَنْهُمْ وَيتركَهُمْ إِلَى رُؤَسَائِهِمْ؛ وهذا الحكم خاصٌّ بالمعَاهَدِينَ، وكان اليهودُ مُعَاهَدِينَ عند قدوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حديث رقم: ٣٤٦٠، ومسلم- كِتَابُ الْمُسَاقَاةِ، بَابُ تَحْرِيمِ بَيْعِ الْخَمْرِ، وَالْمَيْتَةِ، وَالْخِنْزِيرِ، وَالأَصْنَامِ، حديث رقم: ١٥٨٢

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَسَلَّمَ المدينةَ ولم يكُونُوا أَهْلَ ذِمَّةٍ، وَأَمَّا أَهْلُ الذِّمَّةِ فَيَجِبُ علينا أن نحكمَ بَيْنَهُمْ إِذَا تحَاكَمُوا إِلَيْنا.

وأتى اليهود رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قضية زنى رجاء أن يجدوا عنده تخفيفًا عما عندهم، وأضمروا في أنفسهم ألا يقبلوا حكمه إذا كان فيه تشديدًا، فأعلمه الله تعالى بما في كتابهم، فحكم لهم بما فيه مما يوافق شرعنا إلزامًا لهم؛ فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: جَاءَتِ الْيَهُودُ بِرَجُلٍ وَامْرَأَةٍ مِنْهُمْ زَنَيَا، فَقَالَ: «ائْتُونِي بِأَعْلَمِ رَجُلَيْنِ مِنْكُمْ»، فَأَتَوْهُ بِابْنَيْ صُورِيَا، فَنَشَدَهُمَا: «كَيْفَ تَجِدَانِ أَمْرَ هَذَيْنِ فِي التَّوْرَاةِ؟» قَالَا: نَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ إِذَا شَهِدَ أَرْبَعَةٌ أَنَّهُمْ رَأَوْا ذَكَرَهُ فِي فَرْجِهَا مِثْلَ الْمِيلِ فِي الْمُكْحُلَةِ رُجِمَا، قَالَ: «فَمَا يَمْنَعُكُمَا أَنْ تَرْجُمُوهُمَا؟» قَالَا: ذَهَبَ سُلْطَانُنَا، فَكَرِهْنَا الْقَتْلَ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالشُّهُودِ، فَجَاءُوا بِأَرْبَعَةٍ، فَشَهِدُوا أَنَّهُمْ رَأَوْا ذَكَرَهُ فِي فَرْجِهَا مِثْلَ الْمِيلِ فِي الْمُكْحُلَةِ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجْمِهِمَا.[1]

﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

خيَّرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أن يحكم بينهم إذا احتكموا إليه أو الإعراض عنهم لأنه لا يريدون إقامة العدلِ، والهداية للحقِّ باحتكامهم إليه وإنما يريدون التفلت من أحكام الشرع كما قدمنا ولا يعتقدون وجوب طاعة رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾.

أَيْ: وَإِنْ حَكَمْتَ بَيْنَهُمْ فَاحْكُمْ بِالْعَدْلِ والإنصافِ، فلا يطمع ظالم في حيفك، ولا يقنط مظلومٌ من عدلك، وهو إرشادٌ لكل من تصدر للحكم بين الناس ولو كانوا كفارًا؛ فإن النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يحكم إلا بالقسط.

١ - رواه أبو داود- كِتَاب الْحُدُودِ، بَابٌ فِي رَجْمِ الْيَهُودِيَّيْنِ، حديث رقم: ٤٤٥٢، بسند صحيح

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

تذييلٌ لِإِيثَارِ الْقِسْطِ، والحرص على الاتصاف به، وفي الكلام تعريض بِرُؤَسَاءِ اليهودِ الذي كانوا يُبَدِّلُون أحكام الشرعِ بأخذ الرشوة، وأكلِ السحتِ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٤٣

هذا بيان للعلة التي من أجلها خيَّرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الحكم بينهم والإعراض عنهم، فقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾، سؤالٌ الغرض منه التعجيب من شأنهم، وأنهم ما أرادوا بذلك الحرص على موافقة حكم الله تعالى، فحكم الله عندهم يعرفونه.

فهم لم يحكموك بينهم لأنه يرضون بك حكمًا بينهم، ولا لأنهم يخفى عليهم حكم الله، فحكم الله عندهم في التوراة التي يؤمنون بها، ويعظمونها بزعمهم، ومع ذلك يعرضون عنها قصدًا، ويخالفون أحكامها عمدًا.

﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

أَيْ: ولا يكُونُ أُولَئِكَ الذين يُعرِضُونَ عَنْ حُكْمِ اللهِ الَّذِي الَّذِي أَنْزَلَهُ فِي كِتَابِهِ مُؤْمِنِينَ بحالٍ، فإن من لوازم الإيمان التحاكم إلى شرع الله تعالى، وامتثال أمره.

والآية وإن كانت نزلت على سبب خاص، فإن حكمها يشمل كل من تولى عن شرع الله تعالى، واستنكف عن الاحتكام إلى كتابِ اللهِ وسنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٤٤

لما ذم الله تعال اليهود لإعراضهم عن حكم الله تعالى الذي أنزله في التوراة، اثنى سبحانه وتعالى في هذه الآية على التوراة التي أنزلها على موسى عليه السلام فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ﴾، فهي وحيٌ منزلٌ من الله تعالى وهذا أدعى لقبول ما فيها من أحكام.

ثم وصف الله تعالى ما تشتمل عليه فقال: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، أي: فيها من الشرائع والأحكام ما إن أخذوا به هدوا إلى الصلاح والاستقامة في الدنيا، وإلى رضوان الله والجنة في الآخرة، وفيها من العقائد وأركان الإيمان والبشارات بنبي الإسلام ما لو أخذو به لاستنارت قلوبهم، والعطف في قوله تعالى: ﴿هُدًى وَنُورٌ﴾، يقتضي المغايرة، قال الفخر الرازي: فَالْهُدَى مَحْمُولٌ عَلَى بَيَانِ الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ وَالتَّكَالِيفِ، وَالنُّورُ بَيَانٌ لِلتَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ.[1]

﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾.

أي: يحكم النبيون الذين انقادوا لأحكام التوارة بها، فإن الإسلام دين الأنبياء جميعًا عليهم السلام، ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾، أي: يحكمون للذين هادوا بما فيها من أحكام وشرائع.

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾.

الرَّبَّانِيُّونَ جَمْعُ رَبَّانِيٍّ، وَهُوَ الْعَالِمُ الْمَنْسُوبُ إِلَى الرَّبِّ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ العِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ.

---

١ - تفسير الرازي (١٢/ ٣٦٥)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَالْأَحْبَارُ جمع: حَبْرٍ، وهم العلماء، أي: والربانيون والأحبار يحكمون كذلك تبعًا لأنبيائهم بما فيها، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمُ الْفُقَهَاءُ، وتقديم الربانيين على الأحبار يدل على أنهم أرفع رتبة، وأعلى منزلة في العلم منهم، كالمجتهد مع العالم.

﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾.

أي: بما أخذ الله تعالى عليهم من العهود والمواثيق أن يحفظوا ما فيها وأن يبلغوه الناس، ولا يكتموا شيًا من أحكامها؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾.[1]

﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾.

أي: كَانُوا شُهَدَاءَ عَلَى أَنَّ مَا فِي التَّوْرَاةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وأنه وحيٌ منه، وأنه حقٌّ وصدقٌ.

وفي الكلام تعريض باليهود المعاصرين للنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين استنكفوا عن الحكم بها.

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾.

اختلف العلماء في المخاطبين بهذا الكلام، فقيل المخاطبون به هم أحبار اليهود؛ لأنهم كانوا يكتمون صفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خوفًا من بقية اليهود اليهود، وهم الذين كانوا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا، وقيل: الخطاب لهذه الأمة، فكأن الله تعالى يقول للمؤمنين: قد ذكرت لكم حال هؤلاء اليهود وأنهم قد نقضوا عهد الله، ونبذوه وراءهم ظهريًّا، وكتموا ما أمرهم الله تعالى بتبليغه، وبدلوا ما أمرهم الله تعالى بحفظه، واشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا، فلا تفعلوا فعلهم، ولا تسلكوا سبيلهم، فحَكِّمُوا شريعة الله تعالى، ولا تأخذكم في سبيل تطبيقها لومة لائم، ولا تخشوا الناس إذا تمسكتم بدينكم، فإنهم لن يضروكم شيئًا إن خالفتموهم، ولن يغنوا عنكم من الله شيئًا إن أطعتموهم.

---

١ - سورة آل عمران: الآية/ ١٨٧

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وهذا الثول الثاني أرجح فإن اليهود المعاصرين للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هم الذين كتموا صفاته التي عندهم في التوراة، وهم الذين نابذوه العداء، وظاهروا عليه أعداءه.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أي: لا تبيعوا دين الله بعرض من الدنيا، ومهما أعطي الإنسان من الدنيا فهو قليلٌ، وكل من داهن الحكتم فأحل حرامًا، أو حرم حلالًا، فقد اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا، وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله يقول من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى.

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

أَيْ: كُلُّ مَنْ رَغِبَ عَنِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ أَحْكَامِ الشريعةِ، فاستبدل بها غيرها، وأن ما سنَّه البشر من القوانين يعدل أو يفوق ما شرعه الله تعالى، أو زعم أنها لا تصلح لهذا الزمان، فعو كافرٌ بنص هذه الآية، وأنبه هنا إلى أن الكلام عامٌّ، ولا يجوز الكفر بتكفير معين بالنصوص المطلقة حتى تقام عليه الحجة، وينفى عنه الجهل، حتى لا ينحرف الناس إلى التكفير بالظن، كما فعل الخوارج.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ جَحَدَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَقَدْ كَفَرَ. وَمَنْ أَقَرَّ بِهِ وَلَمْ يَحْكُمْ فَهُوَ ظَالِمٌ فَاسِقٌ.[1]

وَقَالَ السُّدِّي: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أنزلتُ فَتَرَكَهُ عَمْدًا، أَوْ جَارَ وَهُوَ يَعْلَمُ، فَهُوَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِهِ.

وقيل: هو كفر دون كفر، وليس كفرًا مخرجًا من الملة.

وسُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. قَالَ: هِيَ بِهِ كُفرٌ. قَالَ ابْنُ طَاوُسٍ: وَلَيْسَ كَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ.

وَقَالَ عَطَاءٌ: كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ، وَظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ، وَفِسْقٌ دُونَ فِسْقٍ.[2]

---

١ - رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٨/ ٤٦٨)

٢ - رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٨/ ٤٦٦)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٤٥

معنى كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا: أَيْ: وَأَوْجَبْنَا على بني إسرائيل فِي التَّوْرَاةِ، أَنْ تُقْتَلَ النَّفْسُ الْقَاتِلَةُ بِالنَّفْسِ الْمَقْتُولَةِ، وَمُنَاسَبَةُ ذكرِ أَحْكَامِ الْقِصَاصِ هنا أَنَّهُمْ غَيَّرُوا أَحْكَامَ الْقِصَاصِ كَمَا غَيَّرُوا أَحْكَامَ حَدِّ الزِّنَى، فَفَاضَلُوا بَيْنَ الْقَتْلَى وَالْجَرْحَى، فذمهم الله تعالى لذلك لأَنَّ نَصَّ التَّوْرَاةِ يسوي بين النَّاسِ ويوجب أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ، فخَالَفُوا ذَلِكَ عَمْدًا وَعِنَادًا، فإِذَا قَتَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ رَجُلًا مِنْ بَنِي النَّضِيرِ قَتَلُوا بِهِ رجلًا مِنْهُمْ, وَإِذَا قَتَلَتْ بَنُو النَّضِيرِ رَجُلًا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ, أَعْطَوْا دِيَتَهُ سِتِّينَ وَسَقًا مِنْ تَمْرٍ، فَفَضَّلُوا بَنِي النَّضِيرِ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وأوجبُوا الْقَوَدَ بِبَنِي قُرَيْظَة دُونَ بَنِي النَّضِيرِ، بَلْ يَعْدِلُونَ إِلَى الدِّيَةِ.

وقد احتج الْعُلَمَاءُ بِعُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ يُقْتَلُ بِالْمَرْأَةِ، وبما ثبت عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ».[١]

واحْتَجَّ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، بِعُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ يُقْتَلُ الْمُسْلِمُ بِالْكَافِرِ الذِّمِّيِّ، وَقَدْ خَالَفَهُ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءُ، وقالوا هذه الآية مطلقة وقيدها ما ثبت عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ».[٢]

﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

أي: وَأَوْجَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ يَفْقَئُوا عَيْنَ الَّتِي مَنْ فَقَأَ عَيْنَ غيره، وَيَجْدَعُوا الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ، وَيَقْطَعُوا الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ، وَيَقْلَعُوا السِّنَّ بِالسِّنِّ، وَيَقْتَصُّوا مِنَ الْجَارِحِ غَيْرَهُ ظُلْمًا لِلْمَجْرُوحِ.

١ – رواه أبو داود– كِتَاب الْجِهَادِ، بَابٌ فِي السَّرِيَّةِ تَرُدُّ عَلَى أَهْلِ الْعَسْكَرِ، حديث رقم: ٢٧٥١، بسند صحيح

٢ – رواه البخاري– كِتَابُ الدِّيَاتِ، بَابٌ: لاَ يُقْتَلُ المُسْلِمُ بِالكَافِرِ، حديث رقم: ٦٩١٥

وهذا كله إذا وقعت الجناية عمدًا وعدوانًا، فإذا وقع شيءٌ من ذلك على سبيل الخطأ ففيه الدية؛ فقد أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْعَيْنَيْنِ إِذَا أُصِيبَتَا خَطَأً فَفِيهِمَا الدِّيَةُ.

﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾.

أي: فَمَنْ عَفَا عن القصاص، فهذا العفو كفارةٌ له عن ذنبه؛ عَنِ الْهَيْثَمِ أَبِي الْعُرْيَانِ النَّخَعِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو عِنْدَ مُعَاوِيَةَ أَحْمَرَ شَبِيهًا بِالْمَوَالِي، فَسَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾. قَالَ: يَهْدِمُ عَنْهُ مِنْ ذُنُوبِهِ بِقَدْرِ مَا تَصدق بِهِ.[١]

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: هَشَّمَ رَجُلٌ فَمَ رَجُلٍ عَلَى عَهْدِ مُعَاوِيَةَ؛ فَأَعْطَى دِيَتَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ حَتَّى أُعْطِيَ ثَلاثًا. فَقَالَ رَجُلٌ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِدَمٍ أَوْ دِيَةٍ كَانَ كَفَّارَةً لَهُ مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إِلَى يَوْمِ تَصَدَّقَ».[٢]

وَقِيلَ: هُوَ كَفَّارَةٌ لِلْجَانِي فَلَا يُؤَاخَذُ بِجِنَايَتِهِ فِي الْآخِرَةِ؛ وَأَجْرُ الْمُتَصَدِّقِ عَلَيْهِ؛ قال ابْنُ عَبَّاسٍ: فَمَنْ عَفَا عَنْهُ، وَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لِلْمَطْلُوبِ، وَأَجْرٌ لِلطَّالِبِ.

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

لما ذكر تعالى في هذه الآية وجوب المساواة في القصاص، ناسب أن يذيل الآية بوصف الظلم لمن خالف شيئًا من هذه الأحكام، وذيل الآية السابقة بالكفر لمن أعرض عن أحكام الله ابتداءً.

---

١ - رواه ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ- حديث رقم: ٦٤٤٨

٢ - رواه أبو يعلى- كِتَابُ الْجِنَايَاتِ، بَابٌ: فِي مَنْ تَصَدَّقَ بِدَمٍ فَمَا دُونَهُ، حديث رقم: ٨٢١، وسعيد بن منصور- كِتَابُ التَّفْسِيرِ، بَابُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، حديث رقم: ٧٦٢

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٤٦، ٤٧

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

أي: وَأَتَيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ يَقْفُو آثَارَ النَّبِيِّينَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا، أَيْ: يَتْبَعُهَا، وَالتَّقْفِيَةُ مَصْدَرُ قَفَّاهُ إِذَا جَعَلَهُ يَقْفُوهُ، أَيْ يَأْتِي بَعْدَهُ ويسِيرُ وَرَاءَهُ. فَالتَّقْفِيَةُ معناها الإِتِّبَاعُ، متشقّةٌ مِنَ الْقَفَا والمراد به الظَّهْرُ، مثل توجَّهَ مشتقٌّ مِنَ الْوَجْهِ، وَتَعَقَّبَ مشتقٌّ مِنَ الْعقبِ، وَتَصَدَّرَ مشتقٌ مِنَ الصَدْرِ.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾.

أَيْ: مُؤْمِنًا بِهَا، مقرًّا أَنَّهَا مِنْ عندِ الله، وَحَاكِمًا بِمَا فِيهَا من أحكامٍ لم ينسخهَا الإنجيل.

﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾.

تقدم أَنَّ الْهُدَى بَيَانُ الْأَحْكَامِ، وَالنُّورُ بَيَانٌ لِلتَّوْحِيدِ، ففيه تعليم للناس من الجهالة، وَضِيَاءٌ مِنْ العَمَى، وهذاالوصف فيما أنزله اللهُ تعالى، وليس فيما حُرِّفَ ونُسِبَ إلى اللهِ زورًا وبهتانًا.

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾.

أي: وأنزلَ الله تعالى الْإِنْجِيلَ مُصَدِّقًا للتَّوْرَاةِ التي تقدم نزولها عليه، فالضمير هنا عائدٌ على الإنجيلِ، وفي الجملة السابقة عائد على عِيسَى عليه السَّلامُ.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ حَالَ كَوْنِهِ مُشْتَمِلًا عَلَى دَلَائِلِ وحدانيةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَنْزِيهِهِ عن كلِ نَقْصٍ، وَبَرَاءَتِهِ مِنَ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ، وحَالَ كَوْنِهِ مُشْتَمِلًا على النصائحِ والزَّواجِرِ التي ينتفعُ بها المتقون.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾.

في الكلام إيجازٌ بالحذف تقديره: وَقُلْنَا لِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ، والفعل المضارع المقترن بلامِ الأمرِ يفيدُ الوجوبَ، أي: فَرَضنا عَلَيْهِمْ فِي زَمَانِهِمْ الْحُكْمَ بِمَا فِي الْإِنْجِيلِ مِنَ الشَّرائِعِ والأَحْكَامِ، ومِمَّا فِي الْإِنْجِيلِ مِنَ الأَحْكَامِ، الْبِشَارَةُ بِبِعْثَةِ رسولِ اللهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووجوبُ اتِّبَاعِهِ.

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

أَي: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ، الْمُخَالِفُونَ لِمَا أَمَرَهُمْ به، وما نَهَاهُمْ عنه.

وَهَذِهِ الْآيَةَ وإن كانت نَزَلَتْ فِي النَّصَارَى، إلا أنَّها تنطبق على كل من لم يحكم بما أنزل الله تعالى، فمن كان كذلك فله نصيب من هذا الوصف، أي: الفسق، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٤٨

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى التَّوْرَاةَ وَأَثْنَى عَلَيْهَا وَأَمَرَ أَهْلَهَا باتِّبَاعِ مَا فِيهَا، وَذَكَرَ الْإِنْجِيلَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَأَمَرَ وَأَمَرَ أَهْلَهُ باتِّبَاعِ مَا فِيهِ، ذَكَرَ بعدهما الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، وأَنَّهُ أَنْزَلَهُ إلى رَسُولِهِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ فلم يَشُبْهُ باطلٌ، ولم يخالطه كذبٌ.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

أي: أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ حَالَ كَوْنِهِ مُصَدِّقًا لِمَا سبقَ نزوله مِنْ الْكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ السابقين، ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، أي: أَنْزَلْنَاهُ شَهِيدًا عَلَيْهَا أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وأَمِينًا عَلَيْهَا، وَحَافِظًا لَهَا. وَأَصْلُ الْهَيْمَنَةِ: الْحِفْظُ وَالارْتِقَابُ؛ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، قَالَ: مُؤْتَمَنًا.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، والسُّدِّي: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ أَيْ: شَهِيدًا.

ومِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى: الْمُهَيْمِنُ، وَهُوَ الشَّهِيدُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

قال ابن كثير: واسْمَ "الْمُهَيْمِنِ" يَتَضَمَّنُ هَذَا كُلَّهُ، فَهُوَ أَمِينٌ وَشَاهِدٌ وَحَاكِمٌ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ قَبْلَهُ.

﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.

ثم أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رسولَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ الناسِ جميعًا، ومنهم أَهْلُ الْكِتَابِ، بِمَا أَنْزَلَهُ إِلَيْهِ فِي الْقُرْآنُ وبهذا نسخ الله تعالى العمل بالتوراة والإنجيل وكل كتاب سابقٍ.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

أي: لَا تَتْرُكِ الْحُكْمَ بما أنزله الله إليك مِنَ الْقُرْآنِ معرضًا عنه، إيثارًا لمرضاتهم، واتباعًا لأَهْوَائِهِمْ، فإنَّ الذي أنزله الله تعالى إليك هو الحق الذي يجب اتباعه دون سواه.

وَمَعْنَى ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾: أي: حال كونك معرضًا عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.
سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٤٨

وَالشَّرِيعَةُ مَا شَرَعَ اللَّهُ لِعِبَادِهِ مِنَ الدِّينِ، وهي السَّبِيلُ الموصِّلَةُ إلى النَّجاةِ، وأصْلُهَا: الطَّرِيقُ الَّذِي يُتَوَصَّلُ مِنْهُ إِلَى الْمَاءِ، ويقال لها شِرْعَةٌ، والمنهاج الطَّرِيقُ الْمُسْتَمِرُّ؛ قال ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾. سُنَّةً وَسَبِيلًا.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾. قَالَ: الشِّرْعَةُ: السُّنَّةُ، وَمِنْهَاجًا، قَالَ: السَّبِيلُ.

وَالمعْنَى: جَعَلَ الله تعالى التَّوْرَاةَ لِأَهْلِهَا شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وَجعلَ الْإِنْجِيلَ بعدها لِأَهْلِهِ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وَجعلَ الْقُرْآنَ بعدهما لِأَهْلِهِ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وأصول الاعتقاد عند الأنبياء جميعًا واحدة لا اختلاف فيها، وإنما الاختلاف في الشرائعِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ».[1]

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

لَوْ شَاءَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لَجَمَعَ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى الْهُدَى، وجعلهم دِينٍ وَاحِدٍ وَشَرِيعَةٍ وَاحِدَةٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الْأَنْعَامِ: ٣٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يُونُسَ: ٩٩]؛ ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء، له الحكمة البالغة، الْحُجَّةُ الدامغَةُ عَلَى عِبَادِهِ.

---

١ - رواه البخاري- كتاب أحاديث الأنبياء، بَابُ قَوْلِ اللهِ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾، حديث رقم: ٣٤٤٣

﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾.

لِيَبْلُوَكُمْ: أي: لِيَخْتَبِرَكُم. والمعنى: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تعالى لجعل شَرَائِعَ النَّاسِ جميعًا وَمِنْهَاجَهُمْ واحدةً، ولَكِنَّهُ خَالَفَ بَيْنَ الشَّرَائِعِ لِيَخْتَبِرَ عِبَادَه فَيُعْرَفُ الطَّائِعُ مِنَ الْعَاصِي، لِيُثِيبَ الطَّائِعِينَ، ويُعَاقِبَ العُصَاةَ الْمُذنبِينَ.

وفي الكلام إيجازٌ بالحذف تقديره: وَلَكِنْ جَعَلَ شَرَائِعَكُمْ مُخْتَلِفَةً لِيَخْتَبِرَكُمْ.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

الِاسْتِبَاقِ: افْتِعَالٌ مِنَ السَّبْقِ، وهو التقدُّمُ فِي السَّيرِ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْمُبَادَرَةُ وَالْإِسْرَاعِ، والأصلُ أن يُعدَّى الفِعْلُ (اسْتَبِقُوا) بـ (إِلَى)؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الْحَدِيد: ٢١]، وهنا عُدِّيَ بِنَفْسِهِ لِتَضْمِينِهِ مَعْنَى ابْتَدِرُوا؛ أَيْ فَابْتَدِرُا الْخَيْرَاتِ وَسَابِقُوا نَحْوَهَا، وَالْمُرَادُ بِالْخَيْرَاتِ: طَاعَةُ اللهِ وَاتِّبَاعُ شَرْعِهِ، الَّذِي جَعَلَهُ نَاسِخًا لِمَا قَبِلَهُ، والاعتصام بالقرآن الذي جعله مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾.

بيانٌ لعلة الأمر بالمبادرة للخيرات، ويتضمن وعدًا للمبادِرينَ لِلْخَيْرَاتِ، ووَعيدًا للمقصِّرينَ عنها.

﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويتبين المحقُّ من المبطلِ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَة: الآية/ ٤٩، ٥٠

قال المفسرون يحتمل أن يكون الأمر باحْكُمِ هنا مَعْطُوفًا على قَوْلِهِ تَعَالَى في الآية السابقة: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ﴾. [الْمَائِدَة: ٤٨]، فَيَكُونُ تأكيدًا للأمر السابق، وقيل: بل هو معطوف على قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ......﴾. وليس تأكيدًا فيكون تقدير الكلام: (وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ)، وهذا القول أولى لأنَّ فيه تأسيسًا والتأسيس أولى من التأكيد.

قال القاضي أبو يعلى: وليس هذه الآية تكراراً لما تقدّم، وإنما نزلتا في شيئين مختلفين: أحدهما: في شأن الرّجم. والآخر: في التسوية في الديات حتى تحاكموا إليه في الأمرين.[1]

﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

أَي: احْذَرْ يارسول الله أولئك الْيَهُودَ أَنْ يُدَلِّسُوا عَلَيْكَ حقائق الشرع بتصوير الباطل بصورة الحق، فِيمَا يحدثونك بك، فلا تأمن غشهم وخداعهم وَلَوْ كنت تريدُ تَأْلِيفَ قُلُوبِهِمْ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ وَابْنُ صُورِيَا وَشَأْسُ بْنُ قَيْسٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اذْهَبُوا بِنَا إِلَى مُحَمَّدٍ لَعَلَّنَا نَفْتِنُهُ عَنْ دِينِهِ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّا أَحْبَارُ يَهُودَ وَأَشْرَافُهُمْ وَسَادَاتُهُمْ، وَأَنَّا إِنِ اتَّبَعْنَاكَ اتَّبَعَنَا يَهُودُ وَلَمْ يُخَالِفُونَا، وَإِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا خُصُومَةً، فَنُحَاكِمُهُمْ إِلَيْكَ، فَتَقْضِي لَنَا عَلَيْهِمْ وَنُؤْمِنُ لَكَ وَنُصَدِّقُكَ. فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.[2]

---

١ – زاد المسير في علم التفسير (١/ ٥٥٦)

٢ – تفسير الطبري (٨/ ٥٠٢)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾.

أَيْ: فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْ حُكْمِكَ بَعْدَ تَحَاكُمِهِمْ إِلَيْكَ، وَخَالَفُوا شَرْعَ اللَّهِ فَاعْلَمْ أَنَّ حِكْمَةَ ذَلِكَ هِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى صَرَفَ قلوبهم عَنِ الْهُدَى، لِمَا يتصفون به من الكبرِ، مع ما اقترفوه مِنَ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ، لِيُعَذِّبَهُمْ بِبَعْضِها فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

هذه سمة أكثر الناس الخروج عَنْ طَاعَةِ الله تعالى، ومخالفة أمره؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.[1]

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

ينكر الله تعالى عليه إعراضهم عن شريعته، وإيثارهم لحكم الجاهلية الذي يكانوا يحكمون به في حدِّ الزنا، وفي عدم المساواة بين الديات، وقد جعلوا كتاب الله وراءهم ظهريًّا، وشريعته تعالى دبر آذانهم، رغبة عنها.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

سؤال الغرض منه الإنكار على أولئك الذين أعرضوا عن حكم الله تعالى، ومعناه النفي، أَيْ: لَا أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا، ولا ينتفع بذلك إلا الذين يُوقِنُونَ، فاللَّامُ لام البيان، ومثلها اللام في قَوله تَعَالَى حكاية عَنْ امرأة العزيز: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يُوسُف: ٢٣]، لِأَنَّ تَهَيُّؤَهَا لَمَّا كام غَرِيبًا لَا يَخْطُرُ بِبَالِ يُوسُفَ عليه السلام قَالَتْ لَهُ مبينة عن مرادها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾؛ أي: تَهَيَّأْتُ لك أنت.

والمعنى: أنَّ هَذَا الْخِطَابَ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ ينتفعون به ويعلمُونَ أَنَّهُ لَا أَعْدَلَ مِنَ اللَّه حُكْمًا، ولا أعظم منه تشريعًا.

---

١ - سورة يُوسُف: الآية/ ١٠٣

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٥١، ٥٢

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تَعَالَى حالَ اليهودِ وما هم عليه من فسادِ الاعتقادِ واستحلالهم محارم الله تعالى بأدنى الحيل، وحذَّرَ رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من مكرهم وخداعهم، ناسبَ أن يحذر الله تعالى المؤمنين من موالاتهم؛ لما يضمرونه من العداء لأهل الإيمان لاختلاف الدين؛ ولما توجبه الموالاة من المشاكلة والتشابه، ولما يترتب على ذلك من الحب، وكل هذا لا يجوز لغير المؤمنين، ولما كان هذا المعنى عند النصارى كذلك ورد النهي عن موالاة الفريقين.

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ مَا رواهُ ابْنُ جَرِيرٍ وابْنُ إِسْحَاقَ والوَاحِدِيُّ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ ابْن الصَّامِتِ، قَالَ: لَمَّا حَارَبَتْ بَنُو قَيْنُقَاعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَشَبَّثَ بِأَمْرِهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ بن سَلُولَ، وَقَامَ دُونَهُمْ. قَالَ: وَمَشَى عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ أَحَدَ بَنِي عَوْفٍ، لَهُمْ مِنْ حِلْفِهِ مِثْلُ الَّذِي لَهُمْ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ، فَخَلَعَهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَبَرَّأَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حِلْفِهِمْ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَبْرَأُ مِنْ حِلْفِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ وَوِلَايَتِهِمْ. قَالَ: فَفِيهِ وَفِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ مِنَ الْمَائِدَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾.

الاتِّخاذُ افتعالٌ من الأخذ، ويعدّى إلى مفعولين ويقالُ فِي الْغَالِب لما يُخْتَار ويرتضى، ويأتي الاتِّخاذُ فِي الْقُرْآن على عشرَة أوجه منها الاعتمادُ والجعلُ كما في هذه الآية.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآيات عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، ومن الموالاة: المحبة، والنصرة، والتشبه، وبقدر موالاتهم يكون البعد عن الإيمان، ولا بد من التفريق بين الموالاة، وحسن المعاملة، وقد اختل مفهوم الولاء والبراء عند كثير من الناس، فمنهم من انطمس عنده مفهوم الولاء والبراء بالكلية، فإذا والى أو عادى فعلي أساس المصلحة الشخصية، والمنفعة الدنيوية، وبعضهم لا يعادي أحدًا من أهل الكفر ظنًّا منه أن المراد بذلك المفهوم هو حسن معاملة الغير، وقد غاير القرآن بين المفهومين تمام المغايرة، ورسم لكل واحد منهما حدودًا واضحة المعالم لا تلتبس على أحدٍ فقال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. [الْمُمْتَحِنَةِ:٨، ٩]، ففرق بين البرّ والموالاة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾.

والعلة في النهي عن اتخاذ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ أنهم كفروا بالله تعالى، وكفروا برسوله محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنهم اتخذوا دين الله تعالى هزوًا، وأنهم لا ينامون عن الكيد لأهل الإسلام، فهم أعداءٌ لله تعالى، وأعداءٌ للمؤمنين كما قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.[1]

ولذلك لم يستعنْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمُشْرِكٍ في قتالِ الكفارِ؛ فعَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ بَدْرٍ، فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ، فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَأَوْهُ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ، وَأُصِيبَ

١ - سُورَةُ الْمُمْتَحِنَةِ: الآية/ ١

www.alukah.net

مَعَكَ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ».[1]

ومن موالاة أعداء الله الاستعانة بهم في أمور المسلمين، واطلاعهم على بواطن أمورهم؛ فعَنْ عِيَاضٍ الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَمَرَهُ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ مَا أَخَذَ وَمَا أَعْطَى فِي أَدِيمٍ وَاحِدٍ، وَكَانَ لِأَبِي مُوسَى كَاتِبٌ نَصْرَانِيٌّ، يَرْفَعُ إِلَيْهِ ذَلِكَ، فَعَجِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَحَافِظٌ. وَقَالَ: إِنَّ لَنَا كِتَابًا فِي الْمَسْجِدِ، وَكَانَ جَاءَ مِنَ الشَّامِ فَادْعُهُ فَلْيَقْرَأْ، قَالَ: أَبُو مُوسَى: إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَجُنُبٌ هُوَ؟ قَالَ: لَا، بَلْ نَصْرَانِيٌّ قَالَ: فَانْتَهَرَنِي، وَضَرَبَ فَخِذِي، وَقَالَ: أَخْرِجْهُ، وَقَرَأَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. قَالَ أَبُو مُوسَى: وَاللهِ مَا تَوَلَّيْتُهُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْتُبُ قَالَ: أَمَا وَجَدْتَ فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ مَنْ يَكْتُبُ لَكَ؟ لَا تُدْنِهِمْ إِذْ أَقْصَاهُمُ اللهُ، وَلَا تَأْمَنْهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللهُ، وَلَا تُعِزَّهُمْ بَعْدَ إِذْ أَذَلَّهُمُ اللهُ، فَأَخْرِجْهُ".[2]

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

هذه الجملة كالعلة للنهي عن موالاتهم، فإنهم لا يوالون إلا من كان منهم؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الْأَنْفَالِ: ٧٣]، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.[3]

والمعنى أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ينصرُ بعضُهم بَعْضًا، ويجتمعون على عَدَاءِ أهلِ الإِيمانِ، وقيلَ بَعْضُ الْيَهُودِ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَبَعْضُ النَّصَارَى أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ.

---

١ – رواه مسلم– كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ كَرَاهَةِ الِاسْتِعَانَةِ فِي الْغَزْوِ بِكَافِرٍ، حديث رقم: ١٨١٧

٢ – رواه البيهقي في السنن الكبرى– كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ لَا يَنْبَغِي لِلْقَاضِي وَلَا لِلْوَالِي أَنْ يَتَّخِذَ كَاتِبًا ذِمِّيًّا وَلَا يَضَعُ الذِّمِّيَّ فِي مَوْضِعٍ يَتَفَضَّلُ فِيهِ مُسْلِمًا، حديث رقم: ٢٠٤٣٧، وشعب الإيمان– مباعدة الكفار والمفسدين والغلظة عليهم، حديث رقم: ٨٩٣٩، بسند صحيح

٣ – سورة البقرة: الآية/ ١٢٠

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾.

هذا وعيدٌ شديدٌ، لِمَنْ يوالي أعدَاءَ اللهِ تعالى؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَإِنَّهُ مِنْهُمْ فِي حُكْمِ الْكُفْرِ، أَيْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فِي الدِّينِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ مِنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

يعني أن من والى أعداء الله فهو ظالمٌ لأنه جعل الولاية لغير مستحقها، والظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومثل هذا أبعد ما يكون عن توفيق الله، وأقرب ما يكون إلى الضلالِ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٥٢

أَيْ: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ النِّفَاقِ، والقلوب تمرض كما تمرض الأبدان، وتموت كذلك، وأمراضُ القلوب نوعان: مرض شبهة ومرض شهوة، وأعظمها خطرًا على صاحبه مرض الشبهة، لأنه شَكٌّ، وَرَيْبٌ في الاعتقادِ وهو المرادُ هنا.

﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾.

أي: يبادرون في الدخول في أحلافهم، وفي إظهار مَوَدَّتِهِمْ، والأصل أن الفعل (يسارع) يتعدي بـ (إلى)؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. [آل عمران: ١٣٣]، وإنما عُدي الفعل ﴿يُسَارِعُونَ﴾ بـ ﴿فِيهِمْ﴾؛ لتضمنه معنى الدخول، أي: فَتَرَى المنافقين الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يبادرون في الدخولِ في أحلاف الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، مناصرين لهم، ومتعززين بهم خوفًا من أن تدور الدائرة عليهم.

﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾.

أَيْ: يتعللُ المنافقون فِي مُسَارَعَتِهِم فِي مَوَدَّتِهِمْ وَمُوَالَاتِهِمْ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، بِأَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ ينتصرَ الْمُشْرِكُونَ على الْمُسْلِمِينَ وتَدُولَ لِلدَّهْرِ دَوْلَةٌ، فلا يجدُ المنافقون ملاذًا يلجؤون إليه، فأرادوا مصانعة الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لذَلِكَ؛ والمرادُ بِالدَّائِرَةِ: الدَّوْلَةَ؛ كَمَا قِيلَ:

تَـــرُدُّ عَنْـــكَ الْقَـــدَرَ الْمَقْـــدُورَا ***** وَدَائِـــرَاتِ الـــدَّهْرِ أَنْ تَـــدُورَا

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾.

عَسَى مِنَ اللهِ وَاجِبَةٌ؛ لِأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الْوَعْدِ.

المرادُ بِالْفَتْحِ الْفَصْلُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْدَائِهِم مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، ونصرُ الله تعالى رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِظْهَارِ دِينِهِ، وَالْفَتْحُ لُغَةً: الْقَضَاءُ وَالْفَصْلُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عن

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المؤمنينَ: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾. أَيِ: افْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.

﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾، أي: يَقْطَعُ أَصْلَ الْيَهُودِ وَيُخْرِجُهُمْ عَنْ بِلَادِهِمْ بغيرِ قِتَالٍ، كما حَدَثَ لبَنِي النَّضِيرِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَتَى اللَّهُ بِالْفَتْحِ فَقُتِلَتْ مُقَاتِلَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ وَسُبِيَتْ ذَرَارِيُّهُمْ وَأُجْلِيَ بَنُو النَّضِيرِ.

﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

أي: فَيُصْبِحُوا نَادِمِينَ عَلَى مَا كَتَمُوهُ فِي أَنْفُسِهِمْ من تمنى زوالِ دولةِ الإسلامِ، وَأَنْ تدورَ الدَّائِرَةُ عَلَى المسلمين، فلم ينالوا من العز والشرف والمغانم حال الفتح، ولم يسلم لهم دينهم، ولم تنفعهم موالاتهم لأعداء الله تعالى.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٥٣

قرأ أبو عمرو البصري ويعقوب الحضرمي والكوفيون بِإِثْبَاتِ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقرأ الباقون بغير الْوَاوِ هكذا: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وَهِيَ كَذَلِكَ فِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الْحِجَازِ وَالشَّامِ. وقرأ أبو عمرو، ويعقوب بنصب اللام من: ﴿يَقُولُ﴾، وَهِيَ كَذَلِكَ فِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الْعِرَاقِ. وقرأ الباقون برفعها، واختلف التفسير تبعًا لاختلاف القراءة.

فعلى قراءة أبي عمرو ويعقوب بِإِثْبَاتِ الْوَاوِ، وَنَصْبِ ﴿يَقُولُ﴾، يكون الكلام معطوفًا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾، ويكون تَقْدِيرُهُ: (أَنْ يَأْتِيَ) وَ (أَنْ يَقُولَ)، ومَنْ قَرَأَ بِإِثْبَاتِ الْوَاوِ مَعَ رَفْعِ الْفِعْلِ وهم الكوفيون فتكون الْوَاوُ لِعَطْفِ جُمْلَةٍ عَلَى جُمْلَةٍ، ومَنْ قَرَأَ بِغَيْرِ وَاوٍ، فعلى تقديرِ جَوَابِ قَائِلٍ: مَا يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ حِينَئِذٍ.

قَالَ المفسرون: لما أجلى بني النَّضِيرِ تَأَسَّفَ الْمُنَافِقُونَ عَلَى فِرَاقِهِمْ، وَجَعَلَ الْمُنَافِقُ يَقُولُ لِقَرِيبِهِ الْمُؤْمِنِ إِذَا رَآهُ جَادًّا فِي مُعَادَاةِ الْيَهُودِ: هَذَا جَزَاؤُهُمْ مِنْكَ طَالَ، وَاللَّهِ مَا أَشْبَعُوا بَطْنَكَ، فَلَمَّا قُتِلَتْ قُرَيْظَةُ لَمْ يُطِقْ أَحَدٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ سَتْرَ مَا فِي نَفْسِهِ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: أَرْبَعُمِائَةٍ حُصِدُوا فِي لَيْلَةٍ؟ فَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ مَا قَدْ ظَهَرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالُوا: أَهَؤُلَاءِ أَيِ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ؟ وَالْمَعْنَى: يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ تَعَجُّبًا مِنْ حَالِهِمْ إِذْ أَغْلَظُوا بِالْأَيْمَانِ لِلْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُمْ مَعَكُمْ، وَإِنَّهُمْ مُعَاضِدُوكُمْ عَلَى الْيَهُودِ، فَلَمَّا حَلَّ بِالْيَهُودِ مَا حَلَّ ظَهَرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مَا كَانُوا يُسِرُّونَهُ مِنْ مُوَالَاةِ الْيَهُودِ وَالتَّمَالُؤِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.[1]

﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾.

أَيْ: يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ لِلْيَهُودِ عَلَى جِهَةِ التَّوْبِيخِ: أَهؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ بِأَيْمَانٍ مغلظةٍ أَنَّهُمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى المؤمنين.

---

١ – البحر المحيط في التفسير (٤/ ٢٩٤)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وَيَحْتَمِلُ أَنْ قَولَ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ عنِ الْمُنَافِقِينَ: أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَحْلِفُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ فَقَدْ هَتَكَ اللَّهُ سِتْرَهُمْ، وفَضَحَ أَمْرَهُم.

وَمَعْنَى ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾. أَقْوَاهَا وَأَغْلَظُهَا، قال ابْنُ عَرَفَةَ: الجَهْدُ الْمُبَالَغَةُ وَالْغَايَةُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾.[1]

والمعنى: أنهم بَالَغُوا فِي الأَيْمَانِ وَاجْتَهَدُوا فِيهَا، وَذَلِكَ بِتَوْكِيدِها وَتَكْرِيرِهَا.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

أي: بَطَلَتْ أَعْمَالُهُمْ وَذَهَبَ ثَوَابُهَا، فلَا ثَوَابَ لَهُم فِيهَا وَلَا أَجْرَ، فَخَابَتْ صَفْقَتُهُمْ، وخَسِرُوا آخرتهم.

---

١ - لسان العرب (٣/ ١٣٤)

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٥٤

مُناسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا نَهَى اللهُ تَعالَى عَنِ اتِّخَاذِ الْيَهُودِ وَالنَّصارَى أَوْلِيَاءَ بيَّنَ أَنَّ موالاة الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ذَرِيعَةٌ للرِّدَّةِ عن دينِ اللهِ تَعَالَى؛ لذلك بيَّنَ أنَّ من صفاتِ أولئك الذين يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أنهم أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ، يوالون أولياءه ويعادون أعداءه.

يخبرُ اللهُ تَعالَى عَنْ كمالِ غناه عن خلقه، وقُدْرَتِهِ البَاهِرَةِ أَنَّ مَنْ كفرَ به تعالى وأعرضَ عَنْ نُصْرَةِ دِينِهِ، فَسَوْفَ يُقَيِّضُ لنصرة دينه مَنْ هُوَ خَيْرٌ منه حالًا، وأهدى سبيلًا، قَوْم يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، يمتثلون أمره ويجتنبون نهيه، يوالون أولياءه ويعادون أعداءه، وينصرون دينه، ولا يخافون فيه لومة لائم؛ كَمَا قَالَ تَعالَى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾.[١]

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

يُحِبُّهُمْ سبحانه وتعالى محبة تليق بجلاله، والمحبة صفة ثابتة لله عز وجل، ولا تشبه محبة الخلق للخلق، فإنه تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.[٢]

عَنْ عِيَاضٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هُمْ قَوْمُ هَذَا، يَعْنِي أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ».[٣]

---

١ – سورة مُحَمَّدٍ: الآية/ ٣٨

٢ – سورة الشُّورَى: الآية/ ١١

٣ – رواه الحاكم– كِتَابُ التَّفْسِيرِ، تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ، حديث رقم: ٣٢٢٠، والطبراني في الكبير– حديث رقم: ١٠١٦، وابن أبي شيبة في مسنده– حديث رقم: ٦٦٤، وفي المصنف– حديث رقم: ٣٢٢٦١، وصححه الألباني

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

أي: يَلِينُ جانِبُهُم للْمُؤْمِنِينَ، ويتواضعون لهم، ولا يترفعون عليهم، ويعطفون عليهم، وهم مع ذلك مُتَعَزّزِينَ عَلَى خُصُومِهِم وَأعدائِهِم الكفَّارِ؛ كَمَا وصفهم اللهُ تَعَالَى بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.[1]

وَالْأَصْلُ أنَّ لفظَ: ﴿أَذِلَّةٍ﴾، يُعَدَّى بِاللَّامِ وَإنما عُدِّيَ هنا بِعَلَى؛ لِأَنَّهُ ضُمِّنَ مَعْنَى الْحُنُوِّ وَالْعَطْفِ كَأَنَّهُ قَالَ: عَاطِفِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى وَجْهِ التَّذَلُّلِ وَالتَّوَاضُعِ.

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾.

أي: عندهم من قوة الإيمان ورسوخ الاعتقاد، وثبات الجنان ما يعينهم على الثبات في جهاد أعداء الله تعالى بِخِلَافِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ نكلوا عن الجهاد وعابوا مَنْ جاهدَ مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.[2]

وعندهم من اليقين والاعتزاز بالدين ما يثبت قلوبهم أمام الحملات المغرضة من أعداء الدين التي يلومون فيها من تمسك بدين الله تعالى ومن جاهد في سبيل الله تعالى، وقوله: ﴿وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾، وَالتَّنْكِيرُ فِي: (لَوْمَة) و (لائِمٍ) للمبالغة، أي: وَلا يَخَافُونَ أَيَّ لَومٍ مِنْ أَيِّ لائِمٍ.

وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبايعُ أصحَابَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم على قول الحقّ لا يخافون في الله لَوْمَةَ لائمٍ؛ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى

---

١ - سورة الْفَتْح: الآية/ ٢٩

٢ - سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: الآية/ ١٦٨

السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ».[1]

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: (ذَلِكَ) الذي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ وَصْفِ الْقَوْمِ بِالْمَحَبَّةِ لله تعالى، ومحبة الله تعالى لهم، وكونهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وَجهادِهِم في سبيلِ اللهِ تعالى، وَانْتِفاءِ خَوْفِ لَوْمِ اللَّائِمِينَ، ذلك كله محض فضل الله تعالى، خصهم به ووفقهم إليه، حين تولى عنه من تولى.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أَيْ: وَاللَّهُ وَاسِعُ الْفَضْلِ، عظيمُ الْمَنِّ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ فَضْلَهُ، وَمَنْ لا يَسْتَحِقُّهُ.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الأَحْكَامِ، بَابٌ: كَيْفَ يُبَايِعُ الإِمَامُ النَّاسَ، حديث رقم: ٧١٩٩، ومسلم- كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، حديث رقم: ١٧٠٩

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٥٥، ٥٦

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا نَهَى اللهُ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ عَنِ اتِّخَاذِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَنْ الذين يَجِبُ على المسلمين مُوَالَاتُهم.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

نَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْ موالاةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وبين علة النهي أنَّ بعضَهم أولياءُ بَعْضٍ فلا يُتصوَّرُ منهم موالاة المؤمنين، فكأنه قال: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ليسوا لكم بأولياء إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...

(إِنَّمَا) تفيدُ قَصْرُ الولايةِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ والمؤمِنِينَ قَصْرًا حَقِيقِيًّا، و (وَلِيُّ) هنا اسم جنس، لتعم كل مذكور، ويحتمل أن يكون المراد أنَّ الْوَلَايَةَ لله عَلَى أَصَالَةٍ، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾. ثُمَّ هي لِرَسُولِ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِ.

والكلام إن كان خَبَرًا إلا أنَّه فِي مَعْنَى الْأَمْرِ؛ لا توالوا إلا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾.[1]

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

ثم بين تعالى صفات أولئك المؤمنين، التي تميزهم عن المنافقين الذين يسارعوا في موالاة أعداء الله فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، يعني يحافظون عليها مع المسلمين في أوقاتها بأركانها وشروطها وواجباتها، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، أي: يؤدونها طيبة بها أنفسهم، يبتغون بها الأجر من الله تعالى، ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، ومِنْ شَأْنِهِمْ كذلك أنهم يَتَقَرَّبُونَ بِالنَّوَافِلِ مع أداء الفرائض،

١ - سورة التَّوْبَةِ: الآية/ ٧١

www.alukah.net

فيكون قوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾، إشارة للفرائض، وهم راكعون إشارة للنوافل، وَخُصَّ الرُّكُوعُ بِالذِّكْرِ تَشْرِيفًا لَهُ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.[1]

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

الْحِزْبُ لُغَةً: الْقَوْمُ الَّذِينَ يَجْتَمِعُونَ لِأَمْرٍ حَزَبَهُمْ. وَهُم أَصْحَابُ الرَّجُلِ الَّذِينَ يَكُونُونَ مَعَهُ عَلَى رَأْيِهِ.

أي: ومن يجعل ولايته محبةً ونصرةً، لله تبارك وتعالى، ولدينه ولرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلِلَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّهُ مِنْ حِزْبِ اللَّهِ قطعًا، ومن أنصاره دينه، ومن كان كذلك فهو من المفلحين الغالبين حتمًا.

ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿حِزْبَ اللَّهِ﴾، تشريفًا لأولياء الله بنسبتهم إليه، ولما يحدثه اسم الله من الطمأنينة في النفوس، أن من كان مع الله ومن حزبه فهو مع الفئة التي لا تُغْلَبُ.

---

١ - سورةُ الْبَقَرَة: الآية/ ٤٣

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٥٧، ٥٨

نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين هنا عن موالاة الكفار على تباين مللهم واختلاف نحلهم، فالنهي المتقدم خاص باليهود والنصارى، والنهي هنا عامٌّ يشمل الكفار جميعًا، وبيَّنَ هنا علةَ للنهي عن موالاتهم مغايرةً لما تقدم، وهي السخرية والاستهزاء من دين الله تعالى، ولأجل هذه العلة عدل عن الاسم إلى الصفة فقال: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾، وما قال اليهود والنصارى، إيذانًا ببيان علة النهي عن موالاتهم، وهي الاستهزاء والسخرية من الدين، وهذا شأن أعداء الإسلام في كل زمان ومكان، يسخرون من الأذان ويسخرون من القرآن، ويسخرون من الصلاة ومن الركوع والسجود.

﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾.

و (مِن) هنا بيانية، والمرادُ بِالْكُفَّارِ هُنَا الْمُشْرِكُونَ، وإن كان اليهود والنصارى كفارًا لكن هَذَا مصْطَلَحُ الْقُرْآنِ، لأَنَّ كُفْرَ الْمُشْرِكِينَ أَعْظَمُ، وَهُمْ أَبْعَدُ شَأْوًا مِنْ أهلِ الْكِتَابَ.

وفيه بيان اشتراكهم في الضلالِ بدلالة اقترانهم في الاستهزاء بالدين.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أَي: اتَّقَوُا اللَّهَ فِي مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ، فإنه لا يجتمع الإيمان مع موالاة أعداء الله تعالى؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.[١]

١ - سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ: الآية/ ٢٢

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

أَيْ: وَإِذَا أَذَّنَ المؤذنونَ دَاعِينَ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا تلك العبادةَ هُزُوًا وَلَعِبًا، صدًّا للناس عن سبيل الله تعالى، وإظهارًا لما في قلوبهم من الغلِّ والحقدِ والحسدِ على المسلمين.

قَالَ السُّدِّيُّ فِي هذه الآية: كَانَ رَجُلٌ مِنَ النَّصَارَى بِالْمَدِينَةِ إِذَا سَمِعَ الْمُنَادِي يُنَادِي: "أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ" قَالَ: حُرِّق الْكَاذِبُ! فَدَخَلَتْ خَادِمَةٌ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي بِنَارٍ وَهُوَ نَائِمٌ وَأَهْلُهُ نِيَامٌ، فَسَقَطَتْ شَرَارَةٌ فَأَحْرَقَتِ الْبَيْتَ، فَاحْتَرَقَ هُوَ وَأَهْلُهُ.[١]

وكان الاستهزاء بالأذان سببَ هداية أَبِي مَحْذُورَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجعله رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤذنًا لأهل مكة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

لو كان يعقلون لعلموا أن الأذان عبادة من العبادات التي شرعها الله تعالى لعباده، ولكن لما غلب عليهم السفه رأوا الحسن قبيحًا والحق باطلًا، فآثروا الضلالة على الهدى، والغي على الرشد.

١ - رواه ابن جريرٍ في تفسيره (٨/ ٥٣٦)

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٥٩

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رواهُ ابن جريرٍ والواحدي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: " أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفَرٌ مِنَ الْيَهُودِ فِيهِمْ أَبُو يَاسِرِ بْنُ أَخْطَبَ وَرَافِعُ بْنُ أَبِي رَافِعٍ وَعَازِرٌ وَخَالِدٌ وَزَيْدٌ وَأَزَارُ بْنُ أَبِي أَزَارٍ وَأَشْيَعُ، فَسَأَلُوهُ عَمَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ مِنَ الرُّسُلِ، فَقَالَ: أُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. فَلَمَّا ذَكَرَ عِيسَى جَحَدُوا نُبُوَّتَهُ وَقَالُوا: لَا نُؤْمِنُ بِعِيسَى، وَلَا نُؤْمِنُ بِمَنْ آمَنَ بِهِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾.

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذكرَ اللهُ تَعَالَى حال الكفار وأهل الكتاب عند سماع الأذان، وأخبر عن سخريتهم بدين الله تعالى، بَيَّنَ في هذه الآية ما في قلوبهم من الإِحَنِ والأحقادِ على المسلمين، وما يضمرونه من الكفر والفجور، وما يتصفون به من العنادِ وقصد المخالفة للمؤمنين، فيما هو من دينهم الذي يدينون به ونزلت به كتبهم.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزلَ مِنْ قَبْلُ﴾.

النقمة: المبالغةُ فِي كَراهة الشَّيْء.

وقيل: الإِنْكَارُ باللِّسانِ، أو بالعُقُوبةِ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تُنكِرُونَ عَلَينَا وَتَكْرَهُونَ مِنَّا إِلَّا أَنَّنَا آمَنَّا بِاللَّهِ وحدَهُ لا شَرِيكَ له، وَآمَنَّا بِمَا أنزلَ اللَّهُ إِلَيْنَا وأنزلَ على أَنبيائِهِ وَرُسُلِهِ السَّابِقِينَ عليهم السَّلام؟

وَالسؤالُ للإِنْكَارِ عليهم، وَالتَّعْجِيبُ مِنْ شَأنِهِم؛ لأنهم نقموا ما يجب عليهم الإيمان به.

﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾.

أي: وَآمَنَّا كَذلِكَ بِأَنَّ أَكْثَرَكُمْ خَارِجُونَ عَنِ طاعةِ اللهِ تعالى، متنكبون لصراطِهِ الْمُسْتَقِيمِ؛ بإخبار الله تعالى لنا كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.[١]

١ - سورة التوبة: الآية/ ٣٤

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٦٠

فِي الكلام حذف اختصار تَقْدِيرُهُ: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ؟

و (شرّ) اسْمُ تَفْضِيلٍ، أَصْلُهُ أَشَرُّ، حُذِفَتْ هَمْزَتُهُ تَخْفِيفًا لِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ، والمعنى: قُلْ لهم يَا مُحَمَّدُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هَلْ أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ هُمْ أَشَدُّ شَرًّا مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الذي نَقْمِتُمُوهُ، وأقبحُ جَزَاءً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمَّا تَظُنُّونَهُ؟

وذلك لأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ: مَا نَعْلَمُ دِينًا شَرًّا مِنْ دِينِكُمْ.

والمثوبةُ مختصةٌ بالخيرِ كما أنَّ العقوبةُ مختصةٌ بالشَّرِ، وإنما ذكرت المثوبة هنا تهكمًا؛ كما فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾.[1]

﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾.

أَيْ: طَرَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، واللعن هو الطرد من رحمة الله؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾. [الْمَائِدَةِ: ٧٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾.[2]

﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾.

غَضِبَ عَلَيْهِ لانحراف عن الحق بعد العلم به؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الْفَاتِحَةِ: ٧]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّ اليَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ النَّصَارَى ضُلَّالٌ».[3]

---

١ - سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: الآية/ ٢١

٢ - سُورَةُ النِّسَاءِ: الآية/ ٤٧

٣ - رواه الترمذي- أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ فَاتِحَةِ الكِتَابِ، حديث رقم: ٢٩٥٤

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَالْغَضَبُ أَخَصُّ أَوْصَافِ الْيَهُودِ، كما أنَّ أَخَصَّ أَوْصَافِ النَّصَارَى الضَّلَالُ.

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾.

وهم أَصْحَابُ السَّبْتِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.[1]

وقِيلَ: مُسِخَ شُبَّانُهُمْ قِرَدَةً، وَمُسِخَ مَشَايِخُهُمْ خَنَازِيرَ.

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾.

أَيْ: وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ عَبَدَ الطَّاغُوتَ، وهي قراءة جمهور القراء، وَقَرَأَ حَمْزَةُ: ﴿وَعَبُدَ الطَّاغُوتِ﴾، بِضَمِّ الْبَاءِ مِنْ وفتحِ الدالِ من ﴿عَبُدَ﴾، وَخَفْضِ ﴿الطَّاغُوتِ﴾، جَمْعُ عَبْدٍ لكثرتهم.

﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

أي: أُولَئِكَ الذين ذكرت أوصافهم أعظمُ شَرًّا مِمَّا تَظُنُّونَ بِنَا، وأبعدُ في الضلال مما ترموننا به، وَهَذَا مِنْ بَابِ اسْتِعْمَالِ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ فِيمَا لَيْسَ فِيهِ مُشَارَكَةٌ.

أُضِيفَ الشَّرُّ هُنا إِلَى الْمَكَانِ في قوله: ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ مِنْ بَابِ الْكِنَايَةِ كما في الحديث: "زَوْجِي رَفِيعُ العِمَادِ، طَوِيلُ النِّجَادِ، عَظِيمُ الرَّمَادِ".

---

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآية/ ٦٥

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٦١، ٦٣

يخبر الله تعالى عن حال المنافقين من اليهود الذين كانوا في المدينة، أنهم كانوا يدخلون على النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى المؤمنين، ويزعمون أنهم آمنوا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًّا ورسولًا، وحقيقتهم أَنَّهُمْ دَخَلُوا مُتَلَبِّسِينَ بِالْكُفْرِ، وَخَرَجُوا مُتَلَبِّسِينَ بِهِ، لم ينتفعوا بمجالسةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا بسماع حديثه ومواعظه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.[1]

وكما قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.[2]

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾.

أي: وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كانُوا يُضْمِرُونَهُ مِنَ الْكُفْرِ، وبما كانوا يَكْتُمُونَهُ منَ الكيدِ للدينِ، والْمَكْرِ بِالْمُسْلِمِينَ.

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾.

أي: وَتَرَى كَثِيرًا مِنْ المنافقين يُبَادِرُونَ إِلَى الوقوع في المحرماتِ، وَالِاعْتِدَاءِ عَلَى النَّاسِ، وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَهُمْ بِالْبَاطِلِ، والأصل أن الفعل: (يُسَارِعُ) بعدى بـ (إلى)، وَعُدِّيَ هنا بِفِي لأنه ضُمِّنَ مَعْنَى يَقَعُونَ.

١ – سُورَةُ البقرة: الآية/ ٧٦

٢ – سُورَةُ آل عِمرَانَ: الآية/ ٧٢

www.alukah.net

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

اللَّامُ هنا لِلْقَسَمِ، والتقدير: أُقْسِمُ لَبِئْسَ الْعَمَلُ الذي كَانَ يعملهُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ، يعني: مُسَارَعَتَهُمْ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِ السُّحْتَ.

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾.

يعني: هَلَّا يَنْهَاهُمْ قَادَتُهم وعُلَمَاؤُهُمْ عمَّا يعْمَلُونه مِنْ قَوْلِ الْإِثْمِ وَأَكْلِ السُّحْت؟

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

أي: أُقْسِمُ لَبِئْسَ الصَّنِيعُ الذي كَانَ يَصْنَعُهُ هَؤُلَاءِ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ، وهو تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قيل: مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَشَدَّ تَوْبِيخًا لِلْعُلَمَاءِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ وَلَا أَخْوَفَ عَلَيْهِمْ مِنْهَا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ أَشَدُّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ (يعني على الْعُلَمَاءِ).

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَخْوَفَ عِنْدِي مِنْهَا أَنَّا لَا نَنْهَى.

وَقَالَ هنا: ﴿يَصْنَعُونَ﴾؛ لِأَنَّ (يَصْنَعُونَ) أَدَلُّ عَلَى التَّمَكُّنِ فِي الْعَمَلِ مِنْ يَعْمَلُونَ، أي: جعلوا ترك النهي عن المنكر صنعة، وربما طوعوا نصوص الشرع لاستباحة ترك النهي عن المنكر، حتى صَارَ الأمر عندهم رَاسِخًا مُتَمَكِّنًا.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٦٤

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

هذه الآية تنتظم مع ما سبقها في بيان فضائح اليهود، وكشف خبايا نفوسهم، يخبر الله تعالى فيها عن سوء معتقد اليهود، وعمَّا تنطوي عليه قلوبهم من الكفر الصريح، وأنهم لا يرجون لله وقارًا ولا يقدرونه حقّ قدره، فالله تبارك وتعالى عنده كآحاد الناس يمرض ويتعب ويندم، وهو عندهم فقير، بل ويتصف بأقبح الصفات بالبخل، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، ولولا رحمة الله التي سبقت غضبه، وحلمه تعالى لما بقيت منهم عين تطرف، ولعاجلهم بِالْعُقُوبَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.[1]

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رواهُ الطبراني في الكبير وابْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ يُقَالُ لَهُ النَّبَّاشُ بْنُ قَيْسٍ: إِنَّ رَبَّكَ بَخِيلٌ لَا يُنْفِقُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي فِنْحَاصٍ الْيَهُودِيِّ.[2]

١ – سُورَةُ فَاطِرٍ: الآية/ ٤٥

٢ – تفسير الطبري (٨/ ٥٥٥)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

الذي أخبرنا بقولهم هذا هو الله تعالى، وهو أصدق القائلين؛ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النِّسَاءِ: ١٢٢]، فلا وجه لقول الفخر الرازي: (نَرَى الْيَهُودَ مُطْبِقِينَ مُتَّفِقِينَ عَلَى أَنَّا لَا نَقُولُ ذَلِكَ وَلَا نَعْتَقِدُهُ أَلْبَتَّةَ).[١]

وكيف نسمع لهم أو نقبل دعواهم، وعندهم من السوابق بالغة السوء في حقِّ رب العالمين، وفي حق الأنبياء والمرسلين، ما يورثهم العار والشنار إلى يوم الدين؟

فإمَّا أن يكونوا جميعًا قالوا تلك المقولة واعتقدوها، وإمَّا أن يكون قالها بعضهم ورضيها الباقون؛ كما قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي النَّبَّاشِ بْنِ قَيْسٍ، وعلى هذا القول يكون لفظ: ﴿الْيَهُودُ﴾، من العام الذي يراد به الخصوص؛ ونسب القول إلى جميعهم لأنهم أقروه وارتضوه.

وغل اليد كناية عن البخل، كما أنَّ بسطها كناية عن الجود.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿مَغْلُولَةٌ﴾، أَيْ: بَخِيلَةٌ.

وعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَا يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ يَدَ اللَّهِ مُوثَقَةٌ وَلَكِنْ يَقُولُونَ: بَخِيلٌ أَمْسَكَ مَا عِنْدَهُ.

١ - تفسير الرازي (١٢/ ٣٩٣)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾.

لما قال اليهود ما قالوا ردَّ الله تعالى عليهم بهذا الردِّ الشَّديدَ الذي يناسب هذا الجرم العظيم في حقه تعالى فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾، فقضى عليهم بالبخل، فهم أَبْخَلُ الْخَلْقِ، فَلَا تَرَى يَهُودِيًّا إلا بخيلًا لَئِيمًا، ولعنهم الله تعالى فأبعدهم وطردهم من رحمته فَلَا تَرَى يَهُودِيًّا إلا ذليلًا مهانًا؛ قَالَ قَتَادَةُ: لَا تَلْقَى الْيَهُودَ بِبَلْدَةٍ إِلَّا وَجَدْتَهُمْ مِنْ أَذَلِّ النَّاسِ.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

ثم أخبر الله تعالى عن كمال غناه عن خلقه، وعن سعة جوده الذي عمَّ البرايا، وعن عظيم إحسانه الذي شمل الخلق جميعًا، فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، أي: ليس كما يزعم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «يَمِينُ اللهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُذْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ».[1]

وغاير الله تعالى اللفظ في الرد عليهم حيث قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾، بالتثنية مع أنهم قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ﴾ بالإفراد؛ لأنه تبارك وتعالى أراد إثبات الصفة، وليس النعمة كما يقول من قال بالتأويل؛ وقد تضافرت النصوص على إثبات صفة اليد لله تعالى، فنثبتها له تعالى بلا تكييف ولا تحريف ولا تكييف ولا تأويل؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا».[2]

١ – رواه البخاري– كِتَابُ التَّوْحِيدِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، حديث رقم: ٧٤١١، ومسلم– كِتَاب الزَّكَاةِ، بَابُ الْحَثِّ عَلَى النَّفَقَةِ وَتَبْشِيرِ الْمُنْفِقِ بِالْخَلَفِ، حديث رقم: ٩٩٣

٢ – رواه مسلم– كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ فَضِيلَةِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ، وَعُقُوبَةِ الْجَائِرِ، وَالْحَثِّ عَلَى الرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ، وَالنَّهْيِ عَنْ إِدْخَالِ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمْ، حديث رقم: ١٨٢٧

وقوله تعالى: ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، بَيَانُ أَنَّ تَقْتِيرَ الرَّزَّاقِ عَلَى بَعْضِ الْعِبَادِ، واقعٌ بمَشِيئتِهِ لحكمةٍ بالغةٍ، وذلك لَا يُنَافِي سِعَةَ جُودِهِ تعالى.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

ثم بين تعالى ما عندهم من الحقد والحسد لنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم وللمسلمين؛ أنهم لا يَزْدَادُون بنزول القرآن إلا طُغْيَانًا وهو مُجَاوَزَةُ لِلْحَدِّ إعراضًا ونفورًا، وإلا تكذيبًا وفجورًا، وهذا من خصائص القرآن العجيبة، أنه يَزْدَادُ بِهِ الكفارُ إلا كفرًا، ولا يَزْدَادُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ إلا صَالِحًا وَإِيمانًا؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾.[1]

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

اختلف العلماء فيما يعود عليه الضمير في لفظ: ﴿بَيْنَهُمُ﴾. فقَالَ الْحَسَنُ مُجَاهِدٌ: بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

وقيلَ: بَيْنَ فِرَقِ الْيَهُودِ، وبَيْنَ فِرَقِ النَّصَارَى.

والراجح أن اللفظ يشمل القولين، فالعداوة متحققة بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ لاعتقاد اليهود أن النصارى كفارٌ ضلالٌ خارجون عن حكم التوراة، واعتقاد النصارى أن اليهود فجرةٌ كفارٌ قتلوا ابن الله وصلبوه بزعمهم، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وكان النصارى يلعنون اليهود في صلواتهم إلى وقت قريب.

ودلَّ على هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾.[2]

---

١ - سورة فُصِّلَتْ: الآية/ ٤٤

٢ - سورة البقرة: الآية/ ١١٣

فالعداوة قائمة بَيْنَ فِرَقِ الْيَهُودِ، الفريسيين، والسامريين، والصدوقيين، وبَيْنَ فِرَقِ النَّصَارَى، الكاثوليك، والبروتستنت، والأرثزوكس، وكل فرقة تكفر الأخرى وتعاديها.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾.

عُرِفَ كلٌ من اليهود والنصارى بالتحريش بين خصومهم، في كل عصر ومصرٍ، وعاشوا دهورًا على بيع السلاح بعد نثر بذور العداوة بين الناس، وفي كل مرة يكشف الله تعالى سترهم، ويفضح شأنهم؛ ومن ذلك ما رواه ابْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: مَرّ شَأْسُ بْنُ قَيْسٍ، وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَسَا، عَظِيمَ الْكُفْرِ شَدِيدَ الضّغْنِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ شَدِيدَ الْحَسَدِ لَهُمْ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فِي مَجْلِسٍ قَدْ جَمَعَهُمْ يَتَحَدّثُونَ فِيهِ، فَغَاظَهُ مَا رَأَى مِنْ أُلْفَتِهِمْ وَجَمَاعَتِهِمْ وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، بَعْدَ الّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ مِنْ الْعَدَاوَةِ فِي الْجَاهِلِيّةِ، فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ مَلَأُ بَنِي قَيْلَةَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ لَا وَاَللهِ مَا لَنَا مَعَهُمْ إذَا اجْتَمَعَ مَلَؤُهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ، فَأَمَرَ فَتًى شَابّا مِنْ يَهُودَ كَانَ مَعَهُمْ، فَقَالَ: اعْمِدْ إلَيْهِمْ فَاجْلِسْ مَعَهُمْ، ثُمّ أُذْكُرْ يَوْمَ بُعَاثٍ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنْشِدْهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا تَقَاوَلُوا فِيهِ مِنْ الْأَشْعَارِ، فَفَعَلَ، فَتَكَلّمَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ وَتَنَازَعُوا وَتَفَاخَرُوا حَتّى تَوَاثَبَ رَجُلَانِ مِنْ الْحَيّيْنِ عَلَى الرّكْبِ فَتَقَاوَلَا، ثُمّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إنْ شِئْتُمْ رَدَدْنَاهَا الْآنَ جَذَعَةً فَغَضِبَ الْفَرِيقَانِ جَمِيعًا، وَقَالُوا: قَدْ فَعَلْنَا، مَوْعِدُكُمْ الظّاهِرَةَ - وَالظّاهِرَةُ الْحَرّةُ - السّلَاحَ السّلَاحَ. فَخَرَجُوا إلَيْهَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَرَجَ إلَيْهِمْ فِيمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ الْمُهَاجِرِينَ حَتّى جَاءَهُمْ فَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ اللهَ اللهَ أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمْ اللهُ لِلْإِسْلَامِ وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيّةِ وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنْ الْكُفْرِ وَأَلّفَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ"، فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنّهَا نَزْغَةٌ مِنْ الشّيْطَانِ وَكَيْدٌ مِنْ عَدُوّهِمْ، فَبَكَوْا وَعَانَقَ الرّجَالُ مِنْ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ثُمّ انْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، قَدْ أَطْفَأَ اللهُ عَنْهُمْ كَيْدَ عَدُوّ اللهِ شَأْسِ بْنِ قَيْسٍ.[١]

---

١ - سيرة ابن هشام (١/ ٥٥٥)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾، استعارة لما يثيرونه من العداوات، ولما ينشرونه من الضغائن والأحقاد، التي تؤدي إلى القتال، فشَبَّهَ حَالَهُم وهم يثيرون العداوةَ بين النَّاسِ، بِحَالِ مَنْ يُوقِدُ النَّارَ للإفسادِ، وإطفاءُ اللهِ تعالى لها، يعني: إبطالَ كيدِهِم، وفضحَ أمرِهِم.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

وهم مع تلك المكائد التي يفعلونها يجتهدون في نشر المعاصي والآثام بين الناس، وتيسير سبلها، لنشر الرذيلة بين من يخالطهم، وَاللَّهُ لا يرضى الفسادَ ولَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ، وهم أشدُّ النَّاسِ فسادًا لذلك غضب الله عليهم ولعنهم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنزلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٦٥، ٦٦

يخبر الله تعالى عن الْيَهُود وَالنَّصَارَى ومدى ما هم فيه من الخسران، بكفرهم بالله تعالى وتكذيبهم لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَوْ أَنَّهم آمَنُوا باللهِ تعالى واجتنبوا ما هم عليه من الشرك، وامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه، وَصَدَّقُوا رسوله مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَكَفَّرَ الله عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ؛ فإن الإسلام يَجُبُّ ما قبله, وَلأَدْخَلَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ التي وعد بها عباده المتقين، بل ولآتاهم الله أجرهم مرتين؛ فعَن أَبِي مُوسَى، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللهِ تَعَالَى وَحَقَّ سَيِّدِهِ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَغَذَّاهَا، فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا، ثُمَّ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ".[1]

وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ﴾ لَامُ تَأْكِيدٍ، ونون التعظيم في الموضعين لزيادة التأكيد، فإنه العظيم الذي لا يعجزه شيءٌ، الذي لا يخلف وعده.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنزلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

أي: وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا أحكامَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ووقفوا عند حُدُودِهِمَا، وامتثلوا ما فيهما من أوامر واجتنبوا ما فيهما من الزواجر، وفيهما البشارات بنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا مَا أُنزلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ على رسله عليهم السلام ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم.

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ فَضْلِ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ، حديث رقم: ٣٠١١، ومسلم- كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، وَنَسْخِ الْمِلَلِ بِمِلَّتِهِ، حديث رقم: ١٥٤

﴿لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾.

كناية عن المبالغة في وفرة المطر وسعة الرزق، وهي سنة الله في خلقه، أن من آمن به واتقاه فتح له أبواب الرزق في الدنيا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطَّلَاقِ: ٢، ٣]، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وكما قال نوحٌ عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.[1]

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

الأمة: الجماعة، والِاقْتِصَادُ فِي اللُّغَةِ: الِاعْتِدَالُ مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ؛ ومعنى مُقْتَصِدَة: وسط بين الاجتهاد والتقصير؛ وهذه الآية كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الْأَعْرَافِ: ١٥٩]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ النصارى: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.[2]

ومن حال أهل الكتاب تظهر منزلة هذه الأمة، فَقد جَعَلَ الله تعالى أَعْلَى مَقَامَاتِ أهل الكتاب الِاقْتِصَادَ، وَهُوَ أَوْسَطُ مَقَامَاتِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.[3]

---

١ - سُورَةُ نُوحٍ: الآية/ ١٠- ١٢

٢ - سورة الْحَدِيدِ: الآية/ ٢٧

٣ - سورة فَاطِرٍ: الآية/ ٣٢، ٣٣

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٦٧

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذمَّ اللهُ تَعَالَى أهل الكتاب أبلغ ذمٍّ، وهتك أستارهم، وكشف عوارهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرجو إسلامهم، ويأمل هدايتهم، ويلين لهم القول، وأنزل من الآيات ما يقرع أسماعهم، ويفضح أسرارهم، وشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم تغليب جانب الرفق، وعدم المجابهة بالسوء، ولا المواجهة بالشدة، مع ما كان يخشاه من كيدهم له، ومكرهم به، أنزل الله تعالى عليه هذه الآية رفعة لشأنه، وتثبيتًا لجنانه، وقطعًا لرجائه أن يؤمن منهم من لا يريد الله هدايته.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

خاطبه الله تعالى بصفة الرسالة، رفعة لقدره، وتطييبًا لخاطره في مقابلة تكذيب الكفار عمومًا له، وخصوصًا أهل الكتاب الذين يعرفونه تمام المعرفة، ومع ذلك أنكروا بعثته، وكذبوا رسالته.

وأمره الله تعالى بتبليغ ما أنزله إليه وهو كان قد بلغ ما أنزله الله تعالى إليه، فكان الأمر هنا بالمداومة على التبليغ، فامتثل أمر الله تعالى وقام به أتم قيامٍ، وما ترك من خير إلا دل أمته عليه وأمرهم به، وما ترك من شر إلا نهى أمته عنه، وحذرهم منه؛ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَقَدْ كَذَبَ»، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.[1]

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، حديث رقم: ٤٦١٢

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَشْكُو، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «اتَّقِ اللَّهَ، وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»، قَالَ أَنَسٌ: لَوْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَاتِمًا شَيْئًا لَكَتَمَ هَذِهِ.[١]

ولما توهم بعض الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، خصَّ آل البيت بعلم دون الناس نفى ذلك عليٌّ رضي الله عنه؛ فعَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ، قَالَ: قُلْنَا لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، أَخْبِرْنَا بِشَيْءٍ أَسَرَّهُ إِلَيْكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا أَسَرَّ إِلَيَّ شَيْئًا كَتَمَهُ النَّاسَ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ الْمَنَارَ».[٢]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَلِّغْ جَمِيعَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، فَإِنْ كَتَمْتَ شَيْئًا مِنْهُ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ.

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

العصمة معناها المنع؛ أي: والله يمنعك من أن ينالوك بسوء من قتلٍ أو أسرٍ، لَمَّا خاف رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب على نفسه، أن يقتلوه قبل أن يبلغ دين الله، طمأنه الله تعالى بأنه سيمنعه منهم، كما منعه من كفار قريش؛ فعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ».[٣]

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ التَّوْحِيدِ، بَابُ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ﴾ [هود: ٧]، ﴿وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، حديث رقم: ٧٤٢٠

٢ - رواه مسلم- كِتَابُ الْأَضَاحِيِّ، بَابُ تَحْرِيمِ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى وَلَعْنِ فَاعِلِهِ، حديث رقم: ١٩٧٨

٣ - رواه مسلم- كتاب الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، بَابُ الصِّفَاتِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ، حديث رقم: ٢٨٦٥

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

أَيْ: بَلِّغْ أَنْتَ ما أنزل إليك على ما فيه من الشدة عليهم، وأمر الهداية إلى الله تعالى، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ؛ كَمَا قَالَ تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.[1]

١ - سورة الْبَقَرَةِ: الآية/ ٢٧٢

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٦٨

يقول اللَّهُ تَعَالَى لنبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: يَا أَهْلَ التَّوْرَاةِ وَيَا أَهْلَ الْإِنْجِيلِ, لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ الذي جَاءَكُمْ بِهِ مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعِيسَى, وَتَدَّعُونَ أَنَّكُمْ متمسكون به، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ مَا أنزله الله التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وغيرهما مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ اللهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَتَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا ومن ذلك الْأَمْرُ باتباع النبي الأمي محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بعث فيكم وَالْإِيمَانُ به، وبما أنزله الله عليه، والأخذ بشريعته، ونصرة دينه؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾.[1]

وورد لفظ: ﴿شَيْءٍ﴾ نكرة ليفيد أنهم لا يتعلقون بأي شيء من دين الله تعالى، ولو كان يسيرًا، وأنهم لا حظ لهم من التقوى ولو كان قليلًا.

والعطف في قوله: ﴿وَمَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، يفيد المغايرة، إشارة إلى كل كتاب أنزله الله تعالى بعد التوراة والإنجيل لما فيها من البشارةِ ببعثةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وممَّا أنزله الله إليهم القرآن العظيم؛ لذلك قال مُجَاهِدٌ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

كرر ذلك لبيان علة مقامهم على الكفر بعد نزول الآيات البينات، أنهم لطغيانهم وكفرهم، وإعراضهم عن الهدى ما ازدادوا بالقرآن إلا طُغْيَانًا وَكُفْرًا.

١ - سورة الْأَعْرَافِ: الْآيَةَ/ ١٥٧

﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

الْأَسَى: هو الْحُزْنُ وَالْأَسَفُ، أي: لَا تَحْزَنَ عليهِمْ؛ فإن الله طبع على قلوبهم، لما أعرضوا واستكبروا عن قبول الحق.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٦٩

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِي الآية السابقة انحراف أهل الكتاب عن منهج الله بمخالفة التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ بقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾، بيَّنَ فِي هذه الآية أنَّه لا يتم إيمان أحدٍ ممن يزعم الإيمان إلا آمن به تعالى ربًّا، وآمن بالبعث بعد الموت، وَعَمِلَ صَالِحًا، سواءً كان من هذه الأمة أمة الإسلام، أو كان من اليهود أو كان من الصابئين أو النصارى، من كان منهم قبل بعثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمَّا بعد بعثته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يقبل من أحدٍ منهم إيمان ولا عمل ما لم يؤمن به ويتبعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

يعني: الْمُسْلِمِينَ، ولفظ ﴿الَّذِينَ﴾، يفيد العموم، وصار ذلك علمًا على الْمُسْلِمِينَ، وإن كان الإيمان في غيرهم؛ لأنهم ذكروا في مقابل اليهود والنصارى والصابئين.

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾.

هم قوم موسى عليه السلام.

﴿وَالصَّابِئُونَ﴾.

تقدم الكلام عنهم في سورة البقرة، وَالصَّابِئُون مرفوعٌ عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَخَبَرُهُ مَحْذُوفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى كَذَلِكَ، وأنشدوا:

وَإِلّا فَاعْلَمُوا أنَّا وأنْتُمْ ***** بُغَاةٌ مَا بَقِينَا فِي شِقَاقِ

أي فاعلموا أنَّا بغاةٌ، وأنتم كذلك.

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

أي: ثبتَ على إيمانه منهم، وفائدة تكرار ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، اخراج المنافقين الذين آمنوا بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم؛ فيكون التقدير: من ثبت على إيمانه منهم وعمل صالحًا.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

دُخُولُ الْفَاءِ لِتَضَمُّنِ الْمُبْتَدَأِ مَعْنَى الشَّرْطِ، وَالْعَائِدُ إِلَى اسْمِ إِنَّ مَحْذُوفٌ، أَيْ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ، فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فيما يستقبلهم، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ على ما تركوه وراءهم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٧٠، ٧١

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

هذه الآية تأتي في سياق مخازي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وعتوهم عن أمر ربهم، ونقضهم لعهودهم، التي عاهدوا الله عليها.

يخبر الله تَعَالَى أَنَّهُ أَخَذَ عَلَيهم الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ، واللام في: (لَقَدْ) هي الموطئة للقسم، و(قد): حرف تحقيق، والمعنى: أُقْسِمُ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى توحيدِ اللهِ تعالى والسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ له عز وجلَّ وَلِمنْ يرسله لهم من الرسلِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ عددًا من الرُسُلِ، ليبينوا لهم ما يحبه الله ويرضاه، وما يسخطه ويأباه، فكانوا كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بما يخالف هواهم من الشرائع، ويضادّ شهواتهم من أحكام التكليف، نَقَضُوا تِلْكَ الْعُهُودَ الْمَوَاثِيقَ، وناصبوه العداء.

وكذلك فعلوا مع رسلِ الله الذين أرسلوا إليهم ناصبوهم العداء فكذبوا فريقًا، وقتلوا فريقًا.

وذكر: ﴿يَقْتُلُونَ﴾. بصيغة المضارع، استفظاعًا للقتل، واستحضارًا لتلك الحال الشنيعة التي كانوا عليها، للتعجب منها.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾.

أَيْ: وَظَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أُخِذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقُ أَنَّهُ لَا يحدثُ لهم ابْتِلَاءٌ وَاخْتِبَارٌ وتَمْحِيصٌ، اغْتِرَارًا منهم بِإِمْهَالِ اللهِ لهم، وحلْمِهِ عليهم، فَعَمُوا عَنْ سبيلِ الْهُدَى الرَّشَدِ، وَصَمُّوا عَنْ سَمَاعِ الحَقِّ والوعْظِ، فلم يعملوا بما رأوا ولا بما سمعوا.

﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾.

ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فكشف عَنْهُمُ الضُّرَّ وَرَفَعَ البلاءَ، ثُمَّ عَادَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَى غَيِّهِم وَضَلَالِهِمُ الْقَدِيمِ، فَعَمُوا عَنْ الْهُدَى، وَصَمُّوا عَنْ سَمَاعِ الحَقِّ، فَأَصَابَتْهُمْ فِتْنَةٌ لَمْ تَعْقُبْهَا توبةٌ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

أَيْ: وَاللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِهِم. وَهُو وَعِيدٌ لَهُمْ عَلَى وإصْرَارِهِم عَلَى الضَّلالِ، وعَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ من الآثامِ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٧٢

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى فساد عقيدة اليهود، وطرفًا من قبائحهم، شرع هنا في بيان فساد عقيدة النصار، وتفصيل قبائحهم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

هذا حكمٌ من الله تعالى مؤكد بالقسم على كفر النصارى الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، فإن اللام في: (لقد) هي الموطئة للقسم، وقد تناول القرآن فرق النصارى فرقة فرقة وتولى الردَّ عليها جميعًا تفصيلًا وإجمالًا، بالدليل النقلي والدليل العقلي، ليقيم عليهم الحجة، وينفي عنهم كل شبهة، ويقطعُ كل عذرٍ.

وأكد الله تعالى ذلك الحكم بكفرهم لعلمه أنه سيخرج ممن ينتسب للإسلام مَنْ ينكر القول بكفر النصارى، ويدفع ذلك الحكم دفعًا، وقد رأينا ذلك، رأينا من يحكم بإيمانهم، ويجزم بدخولهم الجنة، على فساد اعتقادهم، وعبادتهم غير الله، وتكذيبهم لرسول الله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، أرادوا به حصر الألوهية في المسيحِ عليه السلام، قال الزمخشري: قولهم: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ معناه بت القول، على أن حقيقة الله هو المسيح لا غير.

وَهِيَ مَقَالَةُ الثَّلَاثِمِائَةِ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ أُسْقُفًّا، التي نصرها الْمَلِكُ قُسْطَنْطِينُ وحمل الناس عليها، بعد مجمع نيقية الثاني، ولعن من خالفها، كما ذكر ذلك ابن القيم في كتاب: (هداية الحيارى)، وبهذا يتبين خطأ الفخر الرازي حين قال: (أَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّصَارَى لَا يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ). وكيف لا يقول به أحد من النصارى وقد ذكر الله تعالى هذا المذهب مرتين، وردَّ عليه؟

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

هذا هو الدليل النقلي على فساد اعتقادهم، وهو كلام المسيح لهم في كتابهم الذي يؤمنون به؛ ففي إنجيل (يوحنا ١٧: ٣) "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته".

وقد أخبرنا الله تعالى أن أول معجزة للمسيح عليه السلام هي كَلامُهُ فِي الْمَهْدِ، وَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ نَطَقَ بِهَا: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.[١]

﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾.

الظَّاهِرُ أَنَّ هذا من كَلَامِ الْمَسِيحِ، يحذر بَنِي إِسْرَائِيلَ من الشركِ باللهِ تعالى، ويبين عاقبة المشركين، أنَّ الجنةَ حرامٌ عليهم، وأنهم لا مأوى لهم إلا النار.

وقيل هو من كلام الله تعالى لِإِثْبَاتِ كُفْرِهِمْ، على سبيل الوعيد لهم ولمن اعتقد مثل اعتقادهم.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، دَخَلَ النَّارَ».[٢]

وَذكر الْمَأْوَى على سبيل التهكم بهم؛ فإنَّ المأوى هو الْمَكَانُ الَّذِي يُلْجَأُ إِلَيْهِ لِيُحْتَمَي به الآفاتِ.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

أي: وليس لِلْمُشْرِكِينَ مِنْ أَنْصَارٍ يدفعون عنهم عَذَابَ اللهِ تعالى؛ فإنه تعالى يجير ولا يجار عليه.

---

١ - سورة مَرْيَمَ: الآية/ ٣٠

٢ - رواه أحمد- حديث رقم: ٤٠٤٣، بسند صحيح

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٧٣- ٧٥

هذا حكمٌ آخر من الله تعالى مؤكد بالقسم على كُفْرِ النَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وهذا اعتقاد أَغلبِ النَّصَارَى، يقولون الأب، والابن، والروح القدس، إله واحد، ودليل كونه اعتقاد أغلب النصارى قول الله تعالى: ﴿فآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ﴾ [النِّسَاءِ: ١٧١]، وكان قديمًا اعتقاد مَرْقِيُونَ وَأَشْيَاعِهِ، وقد ذكر المؤرخون أن سبب اختلاف النصارى في المسيح عليه السلام هو محاولة التوفيق بين الوثنية الرومانية والدين الجديد أعني: النصرانية.

وَقَالَ السُّدِّي: نَزَلَتْ فِي جَعْلِهِمُ الْمَسِيحَ وَأُمَّهُ إِلَهَيْنِ مَعَ اللَّهِ، فَجَعَلُوا اللَّهَ ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ. قَالَ: وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾.[1]

والصحيح أنَّ هذا مذهب آخر وهو مذهبُ الْمَرْيَمَانِيَّةِ، وسيأتي الكلام عليه في آخر السورة إن شاء الله تعالى، ولما عقدَ مجمع نيقية الثاني كان مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الْمَسِيحُ وَمَرْيَمُ إِلَهَانِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهُمُ الْمَرْيَمَانِيَّةُ.

وفي الكلام إيجازٌ بالحذف تقديره: ثَالِثُ ثَلَاثَةِ آلِهَةٍ، حُذِفَ ذِكْرُ الْآلِهَةِ لِأَنَّ ذَلِكَ مَعْلُومٌ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ.

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

نفي للألوهية عن كل ما سوى الله تعالى، وحَصْرٌ لوَصْفِ الْإِلَهِيَّةِ فِي وَاحِدٍ هو الله تعالى، ووضع حرف (مِنْ) هنا لتأكيدِ النَّفْيِ.

١ - سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الْآيَةَ/ ١١٦

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أَيْ: وَإِنْ لَمْ يَكُفُّوا عَنِ الْقَوْلِ بِالتَّثْلِيثِ – لأَنَّهُ سبٌّ للهِ تعالى – لَيُعَذِّبَنَّهُمْ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا.

و (مِنْ) في لفظ: (مِنْهُمْ) بَيَانِيَّةٌ.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

السؤالُ هُنَا لِلتَّعْجِيبِ مِنْ شَأْنِهِم فِي إِصْرَارِهِمْ عَلَيْهِ التَّثْلِيثِ وهو من أعظمِ الكفرِ بالله تعالى، وقد أقيمتْ عليهم الحُجَجُ على بطلانِهِ، وأنكرته العقول السليمة والفطر السوية المستقيمة، وفي الآية دليل على سعة رحمة الله تعالى، وعظيم عفوه لمن تاب إليه، وأن التوبة تهدم ما كان قبلها ولو كان الافتراء على الله تعالى والشرك به.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾.

بعد أن ذكر الله تعالى لهم دليلًا نقليًّا من كتابهم الإنجيل، ذكر تعالى هنا دليلًا عقليًّا على عبودية المسيح عيسى وأمه عليهما السلام، فقال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾؛ أي: شأنُ الْمَسِيحِ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا كشأنِ رسل اللهِ، أيد الله بالمعجزات كما أيد جميع الرسل، وخلقه من غير أب كما خلق آدم من تراب؛ كمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.[1]

﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾.

أَيْ: وَأُمُّهُ مُؤْمِنَةٌ فِي أَعْلَى مَقَامَاتِ الإيمانِ بعد الرُّسُلِ، ولا تخرج عن مقام العبودية لله تعالى، وَكَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ كنايةٌ عن قضاء الحاجة والجوع، وذلك ينافي الألوهية، فهما من جملة العباد، وليسا بإلهين.

١ – سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: الآية/ ٥٩

www.alukah.net

﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

أَيْ: انْظُرْ كَيْفَ نُوَضِّحُ الحججَ والبراهين النقلية والعقلية، ثُمَّ انْظُرْ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْوُضُوحِ كيف يكذبون على الله تعالى، وعلى رَسُولِه عيسى عليه السلام، ويؤثرون الضَّلَالَ على الهُدَى، والكفرَ على الإيمانِ؟

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٧٦، ٧٧

يقول الله تعالى لرسولِهِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قل يا محمد لأَهْلِ الْكِتَابِ ولغيرهم تبعًا لهم الذين عبدوا غَيْرَ اللَّهِ منكرًا عليهم وموبخًا لهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، فإنه لا يملك النفع والضر إلا الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾.[١]

وَقَدَّمَ الضَّرَّ عَلَى النَّفْعِ لِأَنَّ النَّاسَ أحرصُ على دفعِ الضَّرِّ مِنْهُم على جَلْبِ النَّفْعِ.

﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أَيْ: وَلَا يَسْمَعُ الدُعَاء، ولا يجيبُ المضطرَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَلا يَعْلَمُ حاجةَ كُلِّ مُحْتَاجٍ سواه؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾.[٢]

وتقديم الضمير (هو) للحصر، فليس ذلك لأحد سواه سبحانه وتعالى.

وفي الآية احتباك، وتقدير الكلام: أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، والله هو الذي يملك لكم النفع والضر، وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، والذين تعبدون من دون الله لا يسمعون دعاءكم، ولا يعلمون بحالكم.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾.

ثُمَّ قَالَ تعالى لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾، أَيْ: لَا تَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي اعتقادكم، وفي عبادتكم، ولا تتبعوا غير الحق، واليهود والنصارى عندهم من الغلو ما ليس عند غيرهم، فقد غالى اليهود في العزير حتى عبدوه من دون الله، وغالى النصارى في المسيح حتى عبدوه من دون الله؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، سَمِعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

١ - سُورَةُ يُونُسَ: الآية/ ١٠٧

٢ - سُورَةُ فَاطِرٍ: الآية/ ١٤

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يَقُولُ عَلَى المِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ».[١]

وحذر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغلو في العبادة؛ فَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ: «هَاتِ، الْقُطْ لِي» فَلَقَطْتُ لَهُ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ، فَلَمَّا وَضَعْتُهُنَّ فِي يَدِهِ، قَالَ: «بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ».[٢]

وغالوا في طاعة الأحبار والرهبان، حتى اتخذوهم أربابًا من دون الله؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾.[٣]

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

ثم نَهَى أَهْلَ الْكِتَابِ الْحَاضِرِينَ في زمن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ اتباع تَعَالِيمِ الْغُلَاةِ مِنْ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ، الَّذِينَ حرفوا كلامَ اللهِ، وبدلوا أحكامه، وأَسَاءُوا فَهْمَ الشَّرِيعَةِ متابعةً لأهوائهم، فضَلُّوا منذ أمدٍ بعيدٍ، وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ممن جاء بعدهم، واغترَّ بأقوالهم، وَضَلُّوا بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ الطريق المستقيم الموصل لرضوان الله تعالى وهو الإِسْلَام.

---

١ – رواه البخاري– كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦]، حديث رقم: ٣٤٤٥، وتقدم تخريجه عند قول الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾. (ص: ٤٠).

٢ – رواه أحمد– حديث رقم: ١٨٥١، والنسائي– كِتَابُ مَنَاسِكِ الْحَجِّ، بَابُ: الْتِقَاطِ الْحَصَى، حديث رقم: ٣٠٥٧، بسند صحيح

٣ – سورة التَّوْبَةَ: الآية/ ٣١

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾. سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآية/ ٧٨- ٨١

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَعَنَ الْكَافِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ فِي الزَّبُورِ، وَعَلَى لِسَانِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الْإِنْجِيلِ، أي: أبعدهم، وطردهم من رحمته، وهم يعلمون ذلك ويقرون به؛ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: "أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ، وَيَتْبَعُهُ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ اليَهُودِ فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ، فَقَالَ: إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ، فَأَخْبِرْنِي، فَقَالَ: لاَ تَكُونُ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، قَالَ زَيْدٌ مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، وَلاَ أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُهُ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ، قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ زَيْدٌ: وَمَا الحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا، وَلاَ نَصْرَانِيًّا، وَلاَ يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَى فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَقَالَ: لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، قَالَ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، وَلاَ أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، وَلاَ مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ، قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ: وَمَا الحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا، وَلاَ يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ خَرَجَ، فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ".[١]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لُعِنُوا فِي التَّوْرَاةِ وَفِي الْإِنْجِيلِ وَفِي الزَّبُورِ، وَفِي الْفُرْقَانِ.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

١ - رواه البخاري- كِتَابُ مَنَاقِبِ الأَنْصَارِ، بَابُ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، حديث رقم: ٣٨٢٧

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الباء في: (بِمَا) سببية، أي: لعنهم الله عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، بسببِ تعمُّدِ مخالفة أمر الله، وبسبب جرأتهم على محارم الله تعالى، وتعديهم لحدوده.

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

هذا تفصيل لما أُجمل، وبيانٌ لما أبهم من هذا العصيان، وذلك الاعتداء الذي استحقوا به اللعن، وهو أنهم كان لا ينهى بعضهم بعض عن مُنْكرٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ»، ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾. إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَاسِقُونَ﴾، ثُمَّ قَالَ: «كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا».[1]

والطرد من رحمة الله تعالى أثر من آثار ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، قَالَ: يا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ».[2]

ولفظ: ﴿مُنْكَرٍ﴾، نكرة في سياق النفي يفيد العموم.

وفي الآية دليل على أن الترك فعلٌ، لقوله: ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، فسمى عدم التناهي عن المنكر فعلًا.

---

١ - رواه أبو داود-كِتَاب الْمَلَاحِمِ، بَابُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، حديث رقم: ٤٣٣٦، والترمذي-أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ المَائِدَةِ، حديث رقم: ٣٠٤٨، وابن ماجه-كِتَابُ الْفِتَنِ، بَابُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، حديث رقم: ٤٠٠٦، بسند ضعيف

٢ - رواه أحمد- حديث رقم: ١، وأبو داود- كِتَاب الْمَلَاحِمِ، بَابُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، حديث رقم: ٤٣٣٨، والترمذي- أَبْوَابُ الْفِتَنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ مَا جَاءَ فِي نُزُولِ العَذَابِ إِذَا لَمْ يُغَيَّرِ المُنْكَرُ، حديث رقم: ٢١٦٨، وابن ماجه-كِتَابُ الْفِتَنِ، بَابُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، حديث رقم: ٤٠٠٥، بسند صحيح

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: تَرَى يَا مُحَمَّدُ كَثِيرًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَتَوَلَّوْنَ الْمُشْرِكِينَ عَبْدَةَ الْأَوْثَانِ، وَيُعَادُّونَ الرُّسُلَ وَأَوْلِيَاءَ الرَّحْمَنِ.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

اللَّامُ فِي ﴿لَبِئْسَ﴾، هي الْمُوَطِّئَةِ لِلْقَسَمِ، والمعنى: أُقْسِمُ لَبِئْسَ مَا قَدَّمُوه من أفعالٍ شنيعةٍ، واعتقاداتٍ فاسدةٍ أوجبتْ لهم سَخَطَ اللهِ تعالى، من تَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وموالاة أعداء الله، ومعاداة أوليائه.

وهم مع ما باءوا به من سخط الله تعالى مخلدون في العذاب يوم القيامة.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

أي: وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ الذي أرسلَ إليهم، وهو مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ فِي التَّوْرَاةِ كَمَا يَدَّعُونَ مَا اتَّخَذُوا الْمُشْرِكِينَ عَبْدَةَ الْأَوْثَانِ أَوْلِيَاءَ؛ لِأَنَّه محرمٌ عليهم فِي التَّوْرَاةِ.

ويحتمل أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْمُتَوَلُّونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُؤْمِنُونَ باللَّه وبالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا اتَّخَذَهُمْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ أَوْلِيَاءَ، ذَكَرَهُ الْقَفَّالُ.

﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

أي: وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ أَهْلُ خَارِجُون عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، مُستَحِلُّونَ لمحارِمِهِ، مَارِقُونَ من الدينِ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الفهرس

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة.	٣
٢	﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.	٤
٣	﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.	٦
٤	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ...﴾.	٨
٥	﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ.......﴾	١٠
٦	﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا.....﴾.	١٣
٧	﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ..﴾.	١٥
٨	﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ...﴾.	١٨
٩	﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ.......﴾.	٢٠
١٠	﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ......﴾.	٢٣
١١	﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ.....﴾.	٢٥
١٢	﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ..﴾.	٢٦
١٣	﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ.......﴾.	٢٩
١٤	﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ...﴾.	٣٣
١٥	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾.	٣٥
١٦	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ..﴾.	٣٦
١٧	﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ...﴾.	٣٨
١٨	﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ...﴾.	٤٥
١٩	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾.	٤٨
٢٠	﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ.......﴾.	٥٠
٢١	تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ	٥٤

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٢٢	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ....﴾.	٥٤
٢٣	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ..﴾	٥٨
٢٤	﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ....﴾.	٦٣
٢٥	﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ.......﴾.	٧٣
٢٦	﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ....﴾.	٧٨
٢٧	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ......﴾.	٨٢
٢٨	﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ..........﴾.	٩٤
٢٩	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ.......﴾.	٩٦
٣٠	﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.	٩٨
٣١	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا..﴾.	٩٩
٣٢	﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا....﴾.	١٠٢
٣٣	﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.	١٠٨
٣٤	﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ.....﴾.	١١٠
٣٥	﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ........﴾.	١١٣
٣٦	﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ.....﴾.	١١٧
٣٧	﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ..﴾.	١٢٠
٣٨	﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ......﴾.	١٢٢
٣٩	﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ........﴾.	١٢٧
٤٠	﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ	١٢٩

www.alukah.net
شبكة الألوكة

	فَقَاتِلا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾.	
٤١	﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.	١٣٢
٤٢	﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ........﴾.	١٣٥
٤٣	﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا........﴾.	١٤٣
٤٤	﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ......﴾.	١٤٦
٤٥	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.	١٥٣
٤٦	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.	١٥٥
٤٧	﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.	١٥٨
٤٨	﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.	١٦١
٤٩	﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ..........﴾.	١٦٣
٥٠	﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا.......﴾.	١٦٧
٥١	﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.	١٧٠
٥٢	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ	١٧١

شبكة الألوكة - قسم الكتب

	هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ........﴾.	
٥٣	﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ.........﴾.	١٧٤
٥٤	﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ.........﴾.	١٧٦
٥٥	﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ.......﴾.	١٧٨
٥٦	﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾.	١٨٠
٥٧	﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ........﴾.	١٨٢
٥٨	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ........﴾.	١٨٤
٥٩	﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ.......﴾.	١٨٨
٦٠	﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.	١٩٠
٦١	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ.............﴾.	١٩٢
٦٢	﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.	١٩٥
٦٣	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ.........﴾.	١٩٧
٦٤	﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا	١٩٩

www.alukah.net
شبكة الألوكة

	أُنزلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾.	
٦٥	﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ..........﴾.	٢٠١
٦٦	﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾.	٢٠٣
٦٧	﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ.........﴾.	٢٠٥
٦٨	﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.	٢١١
٦٩	﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.	٢١٣
٧٠	﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ........﴾.	٢١٦
٧١	﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.	٢١٨
٧٢	﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.	٢٢٠
٧٣	﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ........﴾.	٢٢٢
٧٤	﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ...﴾.	٢٢٤
٧٥	﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.	٢٢٧
٧٦	﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.	٢٢٩

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٧٧	الفهرس..	٢٣٢